تاريخ

العلاقات المغربية المصرية

منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام 1912

دكتور يونان لبيب رزق

استاذ التاريخ الحديث - جامعة عين شمس

القاهرة

محمد مزين

استاذ التاريخ الحديث - كلية الآداب

فاس

could, he felt sure, be disposed of satisfactorily if only we could come to an agreement as to the position of France and Morocco.

The only other subject mentioned during the conversation which I have recorded was that of the treatment of British firms in the French Congo. I endeavoured to impress upon M. Delcassé the importance of an amicable settlement of the cases of Messrs. Holt and others, and I dwelt upon the influence of the commercial element in the British House of Commons and the mischief which was created by the constant complaints which we had received as to the treatment of these firms.

M. Delcassé replied that whenever these gentlemen had come to Paris they had apparently been well content with the explanations which they had received. I said that they had, no doubt, been treated with great courtesy by the French officials, and that what they complained of was rather the arbitrary action of the French local Tribunals, which appeared to me to have dealt them very hard measure.

M. Delcassé answered, good humouredly, that it was extremely difficult to moderate the ardour of the Colonial Courts, and that we had probably experienced similar difficulties in dealing with ours. He promised me, however, to bear in mind what I had said.

Throughout our conversation M. Delcassé spoke apparently with the utmost sincerity, and he did not attempt to disguise from me the immense importance which the French Government attached to obtaining from us a recognition of the predominance which they desired to obtain in Morocco. The impression which he evidently desired to leave upon my mind was that, in order to secure our acquiescence, they would, in regard to Morocco itself, accept the conditions upon which we should probably desire to insist, whilst they would at other points go very far indeed to comply with our requirements.

I am, &c.

(Signed) LANSDOWNE.

تاريخ
العلاقات المغربية المصرية
منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام 1912

دكتور يونان لبيب رزق
استاذ التاريخ الحديث - جامعة عين شمس
القاهرة

محمد مزين
استاذ التاريخ الحديث - كلية الآداب
فاس

طبـع وتوزيـع دار النشر المغربية
13/5 زنقة الجندى روش ـ الهاتف : 24.51.47/48
الـدار البيضـــاء

يبـاع في مكتبـة «اديمـا» 27 زنقة حسن الصغيـر
الهاتـــف : 30.47.11/30.47.18 ـ الدار البيضاء

الايداع القانوني 1982/62

المحتويات

تقديم

يمكن لقارئ هذا الكتاب أن يتبين بسهولة مدى العنت الذى واجهناه لدى تخيرنا لهذا الموضوع وقبول المخاطرة بالكتابة فيه.

وليس من قبيل المبالغة توصيف ماقمنا به من عمل بالمخاطرة، ويصدر هذا التوصيف عن أكثر من سبب:

1) فعلى حد علمنا وقع اختيارنا على موضوع بكر لم يقترب منه أحد الباحثين بشكل كان، ومن ثم جاءت مخاطرة ارتياد المجهول وتقديمه إلى القارئ في ثوب علمى ومقبول.

2) ويتأكد حجم المخاطرة إذا علمنا أن العلاقات المصرية ـ المغربية انما كانت تشكل مجرد جانب محدود في علاقات العالم الاسلامي، وكان مطلوباً، والحال هذا، تسليط أقوى ضوء ممكن على هذا الجانب وتمحيص كل كبيرة وصغيرة فيه والتوصل بها إلى موضوعات وتجميعها لتشكل في النهاية مرجعاً علميا معتمدا.

3) وتزداد درجة المخاطرة مما كنا ندركه منذ بداية اشتغالنا في هذا العمل من تخلينا عن السهل واختيارنا الصعب.

فقد كان من السهل أن يكون موضوعنا أشمل وأعم بدراسة العلاقات المغربية ـ المشرقية على العموم ولكننا لم نفعل.

وكان من السهل ثانياً أن نختار موضوعاً تتوفر فيه المادة العلمية وبه من الكتابات والمصادر ماكان يغنينا عن كل ما كابدناه من البحث عن المادة العلمية.. ولنقل مثلا موضوعاً مثل العلاقات المشرقية ـ المغربية في حقبة من حقاب التاريخ الإسلامي، ولكن كنا نعلم أن هذا ليس بميداننا.

وكان من السهل ثالثا أن نلجأ إلى دور المحفوظات الاوربية نتابع فيها من خلال الوثائق المنظمة والوفيرة علاقة المغرب بإحدى دول أوربا التى تعاملت معها، لكنا انصرفنا عن ذلك لسبب بسيط وهو أننا رأينا بأننا لن نضيف جديدا يذكر باللجوء الى هذا السبيل

غير أن قبولنا بالمخاطرة كانت له أسبابه آيضاً..

فعلى الجانب الأول لم يكن من المقبول أن يبقى موضوع هام مثل هذا الموضوع مجرد شذرات في المصادر، أو بحوث محدودة الأثر، أو دفين الوثائق حتى ولو كان عددها محدودا.

وعلى الجانب الثاني فقد رفضنا الوقوع أسرى الدراسات الاوربية التي تعددت حول علاقات المغرب الخارجية والتى تنظر إلى هذه العلاقات في العصور الحديثة وكأنها انحصرت في اتصاله بأوربا عبر المضيق، وقد تناسى هؤلاء ان رابطة المغرب بالبلاد العربية، أو بعضها، انما هي رابطة مصيرية ولابد أن يكون لها تاريخ!

وعلى الجانب الأخير، فبالرغم من قلة المادة العلمية فقد كنا مؤمنين طول الوقت بإمكانية استخدامها على نحو حاولنا معه استكمال الصورة من خلال خيال علمى يعتمد على الاستقراء والتمحيص والربط والتحليل والتركيب.

وليس بإمكاننا أن نحكم بنجاحنا أو فشلنا في هذا العمل وإنما نترك ذلك للقارئ الكريم ولكن شفيعنا في هذه الحالة أو تلك أننا كنا أول من ارتاد المجهول في ميدان العلاقات العربية ـ العربية وهو ميدان لازال يتطلب الكثير من جهود الباحثين لأن مساحة المجهول فيه أكثر من مساحة ماهو معروف، هذا من جانب، ثم على الجانب الآخر فإن الحصول على المادة العلمية الأصيلة المطلوبة لمثل هذه الدراسات أمر عسير بحكم فقر دور الوثائق العربية، ونلاحظ أن بعضها حتى ولو لم يكن فقيرا في وثائقه فهو فقير في تنظيمه.

يبقى أخيرا في هذا التقديم تفسير الأسباب التي دعتنا إلى الوقف عند عام 1912 من تاريخ العلاقات بين البلدين.

في تقديرنا أن لهذاالعام دلالتين هامتين على مستوى هذه العلاقات...

الأولى: ماترتب على فرض الحماية الفرنسية على المغرب من سعى سلطات الحماية إلى تقطيع أسباب الاتصال المغربي عن المشرق العربي الإسلامي ومنه مصر.

الثانية: ماشهدته مصر في نفس العام من سياسة قمع للحركة الوطنية، ولم يكن هذا التواكب عشوائيًا فيما نعتقد بل انه كان جزءا من الصفقة الاستعمارية (1).

وقد استتبع هذا القمع أن تم كتم الصوت المصرى الوحيد الذي بقى ينبه بالاخطار الاستعمارية المحدقة بالمغرب مما كان بمثابة قطع آخر خيوط العلاقات المتبقية بين البلدين. (2).

وعندما عادت هذه العلاقات مرة أخرى فقد عادت خلال الثلاثينات بشكل مختلف جد الاختلاف مما يشكل صفحة جديدة في تاريخ العلاقات المصرية ـ المغربية ندعو الله أن يمكننا من كتابتها.

وعلى الله قصد السبيل

فاس في ماي 1981

المؤلفان

---

1) أنظر الفصل السادس

2) انظر الفصل السابع

الفصل الاول

مصر والمغرب قسمات مشتركة

الازهر والقرويين
وضعية خاصة في العالم الاسلامي
التحكم في الابواب وآثاره
السياسة السودانية

مصر والمغرب قسمات مشتركة

ليس من الضرورى أن تؤدى بعض القسمات المشتركة بين بلد وآخر إلى علاقة بينهما، غير أن الموقف بالنسبة لمصر والمغرب مختلف، فقد كانت هذه القسمات بمثابة بعض القنوات التي تبحر فيها العلاقة بين البلدين، ذهابا وجيئة..

وتتعدد البراهين التى تؤكد على هذه الحقيقة..

1 ـ أدى وجود أزهر القاهرة وقرويين فاس إلى علاقة خاصة بين مصر والمغرب تمثلت في ذلك التيار من العلماء والأفكار مما استمرت تتبادله المؤسستان الاسلاميتان العتيدتان على مر العصور (1)، ومن ثم كان وجود هذه القسمة المشتركة بمثابة قناة إتصال مؤكدة.

2 ـ وكان ما تمتع به البلدان من وضعية خاصة في العالم العربي الاسلامي منفذا آخر من منافذ الإتصال. فمصر منذ أوائل القرن التاسع عشر تمتعت بوضعية خاصة (فى) الدولة العثمانية، والمغرب منذ أوائل القرن السادس عشر تمتع بوضعية أكثر خصوصية (من) الدولة العثمانية.

وقد سمحت هذه الوضعية للبلدين أن يتبادلا علاقات خاصة فيما بينهما سواء كانت علاقات اقتصادية أو كانت علاقات سياسية (2)

3 ـ أما عن القسمة المشتركة المتمثلة في خصوصية الموقع فلا تخفى أهميتها فكل من مصر والمغرب من الدول ذات المواقع الحاكمة، اذ بينما يتحكم المغرب في الباب الغربي للبحر المتوسط تتحكم مصر في بابه الشرقى، الباب المؤدى إلى الشرق الأقصى ممثلا في قناة السويس.

---

1) انظر الفصل الرابع

2) انظر الفصلين الخامس والسابع.

وقد ترتب على هذه الخصوصية المشتركة مجموعة من السمات كان أظهرها هذا الاحتكاك المبكر والدائم بين كل من المغرب ومصر من ناحية وبين أوربا من ناحية أخرى.

واستتبع هذا الاحتكاك في جانب منه أخذ كل من المصريين والمغاربة بسياسة تحديثية خلال القرن التاسع عشر بدت أوضح ماتكون على عهد كل من الخديو اسماعيل في مصر (1863 ـ 1879) ومولاى الحسن الأول في المغرب (1873 ـ 1894)، وكما أخذ المغرب في عملية تحديثه من أوربا فقد أخذ أيضاً من مصر بسبب سبقها في هذا الميدان (3) مما يمكن القول معه أن هذه السياسة كانت بمثابة قناة اتصال أخرى بين البلدين.

على الجانب الآخر فقد أدى هذا الاحتكاك إلى ماوقع في البلدين مما دفع بهما إلى براثن القوى الاستعمارية. وكان هذا الوقوع متشابهاً في كثير من مناحيه: التغلغل الاقتصادى في البلدين من خلال ماعرف بأنظمة الحماية القنصلية بالمغرب (4) الامتيازات الأجنبية بمصر، (5) ثم نصب شبكة الديون التي وقع في خيوطها العنكبوتية أولا إسماعيل في مصر لحقه بعد قليل مولاي عبد العزيز في المغرب، وأخيرا ما تمخض عن كل هذا من احتلال للأراضي المصرية (1882) تبعها بعد ثلاثين عاما بالضبط اعلان الحماية الفرنسية على المغرب (1912).

وكما خلقت سياسة التحديث قناة اتصال بين البلدين، أدى تعرضهما المشترك للهجمة الاستعمارية إلى قناة إتصال أخرى تمثلت في تصدى الوطنيين في كل جانب لتلك الهجمة وقت ان تعرض لها الجانب الآخر (6).

4 ـ اما القسمة الأخيرة فقد نتجت عن هذا الوضع العربي ـ الافريقي الفريد الذى تميزت به كل من مصر والمغرب. فقد اختص البلدان، دون سائر البلاد العربية الواقعة شمال افريقيا التي يفصلها عن بقية القارة بحر الرمال الهائل المتمثل في الصحراء الكبرى... اختصا بانحسار هذا البحر جنوبيهما، فمصر: أدى وجود النيل إلى

---

3) انظر الفصل الرابع

2) انظر عبد الوهاب ابن منصور: مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب، ـ من نشأتها إلى مؤتمر مدريد 1880 (الرباط 1977)

5) انظر عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل الجزء الثاني (القاهرة 1948)

6) أنظر الفصل السابع

رابطة خاصة مع قلب إفريقيا القادم منها شريان حياتها، والمغرب: عاونت الظروف المناخية على انحسار بحر الرمال جنوبية واستمرت العلاقة قائمة بينه وبين تلك المناطق الافريقية.

أدى ذلك إلى أن ينفرد البلدان عن سائر الشمال الافريقى العربي بوجود سياسة فرضت نفسها على المسئولين في البلدين تلك هي السياسة الافريقية أو بتوصيف أكثر خصوصية السياسة السودانية.

ومن هذا المنطلق، وارتكازا على أن تلك القسمات المشتركة، إنما قد خلقت قنوات للاتصال بين البلدين فانه من البديهى وقبل التعرض للعلاقات المصرية ـ المغربية إفراد دراسة خاصة عن هذه القسمات وهي الدراسة التي يتضمنها هذا الفصل.

1) الأزهر والقرويين:

تتعدد وجوه الشبه بين الجامعتين الاسلاميتين العتيدتين، جامعة فاس وجامعة القاهرة بحيث يمكن القول في النهاية ان كلتيهما قد أشاع جوا فكريا وسياسيًا مشابها في البلدين.

من الناحية الفكرية فقد كان الأزهر مركز جذب سواء على المستوى المصرى أو على المستوى العربي أو على المستوى الإفريقي.

المستوى الأول يبدو من تلك الوفود من صغار الشبان المصريين الذين أتوه بعد أن نالوا قسطًا من التعليم في مكاتب قراهم أو جوامع المدن القريبة منهم، وقد استمرت تلك العناصر تتوافد على الجامعة العتيقة بعضها يبرز فيبقى فيها والبعض الآخر يعود لالقاء الدروس أو تولى مناصب القضاء في شتى الأقاليم المصرية.

أما على المستوى الثاني (العربي) فقد كان الأزهر مقصدا للقادمين من شرق مصر الذين تجمعوا من «رواق الشوام» أو من مغربها الذين عاشوا في «رواق المغاربة» (7).

---

7) عبد الحميد يونس، عثمان توفيق: الأزهر (القاهرة 1946)

ثم على المستوى الافريقى فقد اتى الى الازهر السودانيون جنبآ إلى جنب مع مسلمى الحبشة (8) اضف إليهم المسلمين من غرب افريقيا.

كانت « جامعة القرويين » بدورها مركز جذب على نفس المستويات على المستوى المغربي اتاها العلماء والمتعلمون من شتى أنحاء البلاد من مكناس ، وسلا ، ومراكش ، وتازة ، والقصر الكبير ، وشفشاون ، وسلجماسة ، ودكالة وتارودانت وغيرها . (9).

ثم على المستوى العربي قصده التونسيون والجزائريون وأبناء طرابلس ولعل تخرج واحد من أهم هؤلاء هو «أبو عبد الله بن على بن السنوش» مؤسس الطريقة التى عرفت بإسمه.. لعل تخرجه من القرويين يوضح دور جامعة فاس في المنطقة العربية من شمال إفريقيا، فالرجل أصلا ولد في الجزائر (مستغانم) وأسس طريقته في برقة (10).

ثم ان العلاقةعلىهذا المستوى تتضح من ذلك السجل الوافى من العلماء الذين أتوا إليه من كل من تلمسان وقسنطينة ووهران والجزائر بالاضافة الى تلك العلاقة الخاصةالتيظلت قائمة بين جامعة القرويين وعلماء الزيتونة بتونس (11).

ويأتى المستوىالافريقي حيث كان جامع القرويين أقرب الجامعات للشعوب الاسلامية السوداء الواقعة غرب القارة، ومن ثم كان من الطبيعيأن يتوافد عليها أبناء هذه الشعوب يتلقون أمور دينهم فيها. وان كنا نلاحظ أن المصادر قد اغفلت تناول الشخصيات الإفريقية التى اكتسبت شهرة فكرية وكانت قد إرتبطت علميآ بجامعة فاس (12).

من الناحية الفكرية أيضآ ظلت الجامعتان الاسلاميتان مركزا للاشعاع، وقد بدا ذلك في تلك المؤسسات العلمية العديدة التى إنتشرت في أنحاء البلدين وحذت حذو الأزهروالقرويينأو انبثقت عنهما.

---

8) فقد كان لسكان إقليم جبرته رواق خاص، وهو الاقليم الذي ينتسب إليه المؤرخ المصرى المعروف عبد الرحمن الجبرتي.

9) انظر محمد ابن عسكر الحسنى الشفشاوني: دوحة الناشر ـ تحقيق محمد حجي الرباط 1976

10) إبن ابراهيم عباس (المراكشي) الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام ج7 ص 192

11) محمد المنونى: الصلات الثقافية بين المغرب وتونس الحفصية (المناهل عدد 17) ص 47 ـ 99

12) يسجل د. حجى في كتابه الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ج2 633 ـ 639 عددا من أسماء العلماء السودانيين غير أنه ليس هناك إشارات محددة لعلاقة لهم بالقرويين.

أما فيما يتصل بالأزهر فهناك جامع المرس أبو العباس بالاسكندرية وجامع دمياط وجامع السيد البدوى بطنطا وجامع سوهاج بالإضافة إلى جوامع القاهرة الأخرى التي كثيرا ما كان يشير إليها الرحالة المغاربة الذين زاروا مصر (13).

وفيما يتعلق بالقرويين فقد ارتبط به عديد من المدارس كانت تابعة له من الناحية العلمية منها المدارس التي تحيط مباشرة بالجامع مثل مدرسة الحلفاويين ومدرسةالعطارين والمدرسة المصباحية، ومنها مدارس بعيدة نوعًا كانت بمثابة فروع للجامع الكبير مثل مدرسةالصهريج ومدرسة السباعيين ومدرسة الوادى ومدارس فاس الجديد (14).

أما من الناحيةالسياسيةفقد لعبت كل من الجامعتين دورا بارزا في قيادة العمل السياسي على مر حقب التاريخ الحديث.

وقد تنوعت جوانب هذا الدور فيما نسجله أولا بالنسبة للأزهر..

(1) أدت طبيعة الحكم العثماني ـ المملوكي بطول ما يناهز القرون الثلاثة (1517 ـ 1798) إلى توفر دور واضح للأزهر في السياسة.

فمن ناحية أدى الطابع الدينى لهذا الحكم إلى سعيه دائمًا لاضفاء الشرعية على تصرفاته، وكان علماء الأزهر وحدهم القادرين على هذا الاضفاء من خلال فتاويهم.

من ناحية أخرى أدت طبيعة الحكم القائمة على التشرذم والصراع إلى سعى كل شرذمة من الشراذم المتناحرة إلى كسب الأزهر إلى صفهم فقد كان يترتب على هذا الكسب أن يتحول من يتمكن منه إلى السلطة الشرعية بينما يتحول الآخرون إلى جماعات خارجة عليها.

من ناحية أخيرة فقد نتج عن المظالم المختلفة التي أوقعها أطراف الحكم العثماني ـ المملوكي بطوائف الشعب ممثلين في سكان الحارات ان كان هؤلاء يلجأون إلى العلماء ليردوا عنهم تلك المظالم، وتحفل يوميات الجبرتى (15) بتلك الانتفاضات التي كان سكان القاهرة يقومون بها تحت قيادة رجال الأزهر.

---

13) انظر الفصل الثالث

14) د. عبد الهادى التازى: جامع القرويين ـ المسجد والجامعة بمدينة فاس (بيروت 1973) ج2 ص 356.

15) عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار .طبعة دار الفارس بيروت (غير مؤرخ) 3 مجلدات

2) وقد قام الأزهر بدور قيادى في مقاومة الحملة الفرنسية على مصر (1798 ـ 1801) حتى ان احدى الثورتين الكبريين اللتين قامتا في القاهرة ضد الوجود الفرنسى كان مركزها بالأزهر (16).

3) اما الفترة التى اعقبت الخروج الفرنسى فقد كان الأزهر أكثر القوى تأثيرا في الشارع السياسي المصرى الذي تعاونت عليه عناصر الاضطراب خلال السنوات الأربع التي استغرقتها هذه الفترة (1801 ـ 1805). وقد استمر دور علماء الأزهر ومشايخه في تزايد حتى انتهى أخيرا بقيادة ثورة القاهرة التي انتهت بعزل الوالى العثمانى خورشيد باشا وتولية محمد على مكانه مما يعتبر ذروة ماوصل إليه الأزهر من نفوذ (17).

غير أن ماترتب على تولية محمد على من بدء بناء الدولة الحديثة ذات السلطة المركزية قد تسبب في إنهاء الظروف الموضوعية التى لعب الأزهر في ظلها دوره السياسى. ففى عام 1808 وقبل أن تمضى ثلاث سنوات على هذه التولية كان محمد على قد نجح في ضرب زعامة الأزهر ونفى السيد عمر مكرم أقوى شخصياتها إلى دمياط مما كان ايذانًا ببداية النهاية للدور السياسى الذى لعبته الجامعة الاسلامية في تاريخ مصر الحديث (18). ولم يعد هذا الدور للظهور الا في ظل الاحتلال البريطاني أواخر القرن التاسع عشر وفي إطار الحركة الوطنية العامة ضد هذا الاحتلال وكان دورا مختلفًا.



لعب جامع القرويين أيضًا دورا ملحوظًا في الحياة السياسية بالمغرب.. تمثل أهم جانب من هذا الدور في «البيعة» التى كان يقدمها علماء جامعة فاس إلى السلطان لدى توليه العرش، وهذه البيعة هى التى كانت تكفل الشرعية لصاحب العرش الجديد.

---

16) عبد العزيز محمد الشناوى: صور من دور الأزهر في مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر (القاهرة 1971)

17) د. عبد العزيز محمد الشناوى: عمر مكرم ـ بطل المقاومة الشعبية ـ القاهرة 1967، ص127. ص 141.

18) المصدر السابق، ص 240 ـ 246

وطالما بقيت الأمور مستقرة فقد كانت هذه البيعة أقرب إلى إجراء شكلى، ولكن ما أن تضطرب هذه الأمور نتيجة لضغوط خارجية أو لأسباب الصراع الذي كثيرا ماكان يحدث لدى وفاة أحد السلاطين وتنازع أبنائه العرش حتى يسعى كل طرف من أطراف الصراع إلى الحصول على بيعة القرويين، وفي هذه الظروف كان يلعب علماء جامعة فاس دورا هامًا، بل حاسمًا في معظم الأحيان، في السياسة المغربية.

في نفس الوقت أدت مثل هذه المواقف من جانب علماء القرويين أن تبطش بهم القوى التى رفضوا مبايعتها، كما حدث عندما تمسكوا بالاستمرار ببيعتهم للوطاسيين ورفضهم مبايعة السعديين. ووصل هذا البطش الى الفتك بعلم من أهم اعلامهم (19).

وكان دور جامعة القرويين ينشط مع تعرض البلاد لمخاطر الغزو الأجنبي، وتاريخ المغرب الحديث حافل بمظاهر هذا التعرض.

ولقد كان موقف علماء فاس واضحًا في هذه القضية فهم مع من يصون وضد من يفرط.

بدا تأييدهم للصنف الأول من خلال موقفهم الواضح والمحدد بتأييد السعديين الذين كانوا قد عارضوهم من قبل، وذلك بعد بروز دور هؤلاء الجهادى والذى تجلى في اخراجهم للبرتغاليين من سانتاكروز دى اجير (أكادير) وآسفى وأزمور، والوصول إلى حد الصدام الواسع بهم في وادى المخازن (1578).

أما معارضتهم للمفرطين فقد بدت في أكثر من مناسبة، حيث افتوا مثلًا بردة المتوكل الذي سمح لنفسه بالاستنجاد بملك البرتغال وذلك *لأن* «الاستعانة بالكفار على المسلمين ففى ذلك من مصادمة للقرءان مالايخفى وهو عين الكفر أيضًا» (20) كما أنهم تزعموا مقاومة الشيخ المأمون الذى سلم مدينة العرائش للاسبان عام 1610، وهي المقاومة التى تحولت إلى ثورة قادها علماء القرويين انتهت بخروج اعداد منهم ليس من فاس فحسب بل من المغرب كله (21).

---

19) هو عبد الواحد بن احمد الونشريى ـ انظر ابن عسكر: مصدر سابق ص 52

20) رسالة جوابية من علماء فاس إلى مولاي محمد السعدى ـ انظر الوفرانى: نزهة الحادى باخبار ملوك القرن الحادى ص 71

21) المصدر السابق، ص 197 ـ 199

وبالإضافة إلى هذا الدور السياسي للقرويين (بالفعل) فقد لعب الجامع دورا آخر من خلال (الفكر) ذلك أنه مع تعرض البلاد لموجة التغريب وما صحب ذلك من تغلغل الأفكار السياسية الاوربية فقد وقفت جامعة فاس لتقدم النمط الآخر ممثلا في «الفكر السلفى» الذى احتل مكانة هامة في تاريخ الفكر السياسي المغربي وخلف بصمات واضحة في العمل الوطني للمغاربة، خاصة بعد فرض الحماية الفرنسية عليه.

وضعية خاصة في العالم الإسلامي:

كان المغرب البلد العربي الوحيد الذي نجح في التصدى للدولة العثمانية والاحتفاظ بوضعية خاصة من هذه الدولة منذ أن شملت بوجودها العالم العربي خلال القرن السادس عشر.

وكانت مصر البلد العربي الوحيد الذي عرف حركة انفصالية ناجحة ضد هذه الدولة انتهت بكسب وضعية خاصة داخل الدولة خلال القرن التاسع عشر.

بالنسبة (للمغرب) يلفت النظر حقيقة تفرده بالافلات من القبضة العثمانية، ومن الملاحظ في هذا الجانب أن العلاقات العثمانية ـ المغربية مرت بثلاث مراحل.

استغرقت أولاها أغلب القرن السادس عشر، وهو القرن الذي عرف من ناحية الهجمة الاوربية (البرتغالية ـ الاسبانية) على الشمال الافريقي، كما عرف من ناحية أخرى نجاح العثمانيين في الهيمنة على شتى أنحاء العالم العربي.

ولقد حاول الأتراك خلال هذا القرن ضم المغرب كما ضموا سائر الشمال الافريقى من قبله غير أنهم اخفقوا في ذلك، ويمكن أن يعزى هذا الاخفاق لأكثر من سبب.

1) بينما عجز أهل بقية الشمال الإفريقى عن مقاومة الهجمة الأوربية مما رعاهم إلى الاستنجاد بالسلاطين العثمانيين، فإن المغاربة، قد نجحوا في هذا التصدى حتى انه قبل انتصاف القرن السادس عشر لم يكن قد بقى للبرتغاليين في المغرب سوى جيوب صغيرة تقوم بالدفاع عنها حاميات ضئيلة لاتتجاوز 2500 رجل. (22).

2) نجاح السلطة المغربية في تجديد شبابها ذلك أن انهيار الحكم الوطاسي كان بالامكان أن يؤدى إلى فراغ سياسي يستوجب ملأه بقوة إسلامية، وهو الدور

---

(22) د. صلاح العقاد: المغرب العربي: ص 54

الذي قامت به الدولة العثمانية في سائر البلاد العربية، أما في المغرب فقد اختلف الأمر -حيـن نجح السعديون في ملأ هذا الفراغ وبالتالى لم تكن ثمة حاجة لأى قوة أخرى تأتي إلى البلاد حتى وان حاول العثمانيون في هذه المناسبة القيام بنفس الدور (23).

المرحلةالثانية وقد اتضحت خلال القرن السابع عشر وكانت الدولة العثمانية قد فقدت خلالها قوة اندفاعها ولم تعد تشكل بالنسبة للمغرب خطرا كبيرا. غير أن الوجود التركى على الحدود الشرقية للبلاد كثيرا ماكان يسبب النزاعات بين الطرفين ولكنها في النهاية كان أغلبها مجرد نزاعات حول الحدود. وكان الصدام الذي جرى بين مولاى إسماعيل والقوة العثمانية في الجزائر عام 1089 (1678) من قبيل هذه النزاعات حتى أن الأتراك كاتبوا السلطان المغربي يطلبون منه أن «يقف عند حد اسلافه، ومن كان قبلهم من ملوك الدولة السعدية فإنهم مازاحموهم قط في بلادهم (24)».

المرحلة الثالثة: اتضحت منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر حين أخذت أسباب الضعف تلم بالدولة العثمانية وما استتبع ذلك من تزايد الأطماع الاوربية فيها مما ترتب عليه زوال كل دواعى التخوف القديمة منها وحلول علاقة أخرى تقوم على شكل من أشكال التعاطف الإسلامي. وتقدم العلاقة المغربية ـ العثمانية على عهد مولاى محمد بن عبد الله النموذج الامثل لهذه المرحلة (25).

أما بالنسبة (لمصر) فقد تأخر وجودها المتميز داخل الدولة العثمانية إلى القرن التاسع عشر، ويلاحظ هنا إختلاف مسار العلاقة، فالمغرب بدأ معاديا وانتهى متعاطفًا، كما سبقت الإشارة، أما مصر فقد بدأت في العصور الحديثة قسمًا من الدولة العثمانية وانتهت ولاية متميزة بداخلها.

ويرجع الفضل فيما حصلت عليه مصر إلى سياسة حاكمين من حكامها..

أولهما: محمد على باشا مؤسس الدولة المصرية الحديثة والذي خاض خلال

---

(23) الوفراني: مصدر سابق ص 42

(24) ابو العباس أحمد بن خالد الناصرى: الاستقصا ج6 ص 59

(25) ابن زيدان: اتحاف اعلام الناس ج3 ص 297 ـ 308

ثلاثينات القرن التاسع عشر حروباً متواصلة مع الدولة احرز فيها انتصارات مؤكدة مما أدى إلى تدخل أوربا لمنع انهيار العثمانيين.

وقد تمخض عن هذا التدخل تسوية بين الطرفين اصبحت لمصر بمقتضاها وضعية معلومة تمثلت في توارث حكمها بين أبناء أسرة محمد على ، في نفس الوقت تمتع هؤلاء الحكام بقدر من الصلاحيات في تصريف شؤون بلادهم كانت أقرب إلى الاستقلال الداخلى (26).

ثانيهما: إسماعيل باشا أو الخديو إسماعيل الذى استخدم أسلوباً غير أسلوب الحرب، فهو قد تمكن من خلال الضغوط الديبلوماسية والاغراءات المالية من انتزاع مزيد من الصلاحيات من حكومة استنبول والتي تجسدت فيما عرف الفرمان الشامل الصادر عام 1873 (27).

وقد تهاوت أغلب مظاهر التبعية القديمة بعد هذا الفرمان حتى أن الدولة العثمانية لم تعد تملك من أشكال السيادة على مصر سوى إصدار فرمان تولية الحاكم من أبناء أسرة محمد على كلما توفى سلفه والحصول على مبلغ سنوى محدد من الخزينة المصرية.

التحكم في الأبواب وآثاره

فرض على المغرب ومصر بحكم موقعيهما الحاكمين الدخول في علاقات معقدة مع القوى البحرية ذات المطامع الاستعمارية التي تبدت مطامعها منذ مطلع العصور الحديثة والتي سعت إلى الهيمنة على هذه الأبواب، مضيق جبل طارق بالنسبة للمغرب، وبرزخ السويس الذي تحول إلى قناة في القرن التاسع عشر بالنسبة لمصر.

ويبدو الأمر أكثر اتضاحاً بالنسبة للمغرب بعد أن احتل البرتغال ثم الاسبان مدينة سبتة، وبعد أن إستولى البرتغاليون أيضاً ثم من بعدهم الانجليز على

26) عبد الرحمن الرافعى: عصر محمد على ص 279 ـ 281

27) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: علاقات مصر بتركيا على عهد الخديو إسماعيل 1863 ـ 1879 القاهرة.

مدينة طنجة. وكان على المغاربة منذ بدء تاريخهم الحديث، وحتى يومنا هذا، خوض المعارك المستمرة لتخليص تلك المواقع الحاكمة في أراضيهم من أيدى القوى التى احتلتها.

ولم يقتصر الأمر على هذا فقد أدى وجود قوة أوربية كبرى مثل الانجليز في جبل طارق على مرمى البصر من الأراضى المغربية إلى علاقة خاصة بين هذه القوة وبين المغرب (28) إلى حد يمكن القول معه أن المغرب قد ادخل منذ وقت مبكر (1415) وبحكم وضعيته الجغرافية في دائرة الصراعات الإستعمارية.

وقد كان لهذا الادخال آثاره الهامة على مسيرة التاريخ المغربي، فهو بالرغم من الإدخال المبكر غير أنه كان من آخر البلاد التى وقعت تحت السيطرة الامبريالية ابان العملية الواسعة التى تمت أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فيما عرف بحركة اقتسام افريقيا أو نهبها.

ويعزى هذا التأخر بالأساس لأهمية الموقع إذ أن انفراد قوة بعينها بالهيمنة على البلاد كان يمكن أن يؤدى إلى ردود فعل واسعة لدى القوى الأخرى من المحتمل أن تؤدى إلى حرب أوربية!

وقد استتبع هذا التأخر ظاهرتان في تاريخ محاولات الهيمنة الامبريالية على المغرب:

الأولى: شدة التناحر الاستعماري حول المغرب، فبالاضافة الى الدولتين الاستعماريتين الكبيرتين، فرنسا وانجلترا، دخلت الحلبة دول بحكم التاريخ مثل إسبانيا كما دخلتها دول أخرى بحكم الظروف الجديدة مثل ألمانيا.

وقد أصبح المغرب منذ مطلع القرن العشرين وحتى فرض الحماية الفرنسية عليه عام 1912 مسألة من أهم مسائل الخلاف الاوربي، ولم تستطع فرنسا أن «تنظف» طريقها إليه إلا بعد اتفاقيات مع كل من إيطاليا وانجلترا، وإسبانيا ،والا بعد تدخل الألمانى حاول تدويل المسألة المغربية (29).

---

28) انظر ب.ج روجرز: تاريخ العلاقات الانجليزية ـ المغربية حتى عام 1900 ترجمة د. يونان لبيب رزق (الدار البيضاء 1981) ـ الفصل السادس

29) P. Guillen- l'Allemagne et le Maroc de 1870 à 1905 P.U.F. Paris 1967

الثانية: فيما خدث من اقتسام المغرب بين أكثر من قوة امبريالية على عكس الموقف في العمليات الإستعمارية الأخرى حيث كانت تستأثر كل دولة بمستعمرة بعينها.

وقد نبع هذا الاقتسام من موقع المغرب الحاكم، ذلك أن طنجة بحكم هيمنتها على المضيق خضعت للادارة الدولية، في نفس الوقت فقد قصدت بريطانيا أثناء مفاوضاتها مع فرنسا التى نتج عنها اتفاق 1904.. قصدت ابعاد الاخ يرة عن شمال المغرب واعطاءه لإسبانيا لسبب واحد وهو ابعاد الفرنسيين بقدر المستطاع عن تلك المنطقة الحاكمة المطلة على مياه جبل طارق (30).

في مصر جرى نفس الشيء، فقد كان من أهم الدواعى التى أدت إلى توجيه نظر أوربا إليها منذ أواخر القرن الثامن عشر أهمية الموقع الفاصل أو الواصل بين البحرين المتوسط والأحمر.

يتضح ذلك من التعليمات التي أصدرتها حكومة الإدارة لنابليون بونابرت قبل تقدم الفرنسيين لغزو مصر عام 1798، والتى تضمنت قيامه بقطع طريق الشرق على الإنجليز من خلال السيطرة على الأراضي المصرية.

يتضح أيضاً من الدراسات التي قام بها علماء الحملة الفرنسية خلال الفترة القصيرة التى قضوها في البلاد ـ ثلاث سنوات ـ بهدف توصيل البحرين بقناة عبر برزخ السويس. صحيح لم يقدر لهذا المشروع أن يرى النور سواء بسبب خطأ وقع فيه هؤلاء العلماء أو بسبب الخروج السريع للحملة، غير أنه إستمر الفرنسيون يتداولونه في دوائرهم السياسية والإقتصادية حتى تمكن احدهم (31) فيما بعد ان يصل به إلى طريق التنفيذ.

وتزداد أهمية مصر كموقع حاكم بعد افتتاح قناة السويس عام 1869 وتتصارع عليها القوتان الكبريان، فرنسا وبريطانيا، وتتمكن الأخيرة من شراء قدر كبير من اسهم شركة القناة عام 1875 وكان هذا ايذاناً بقرب فرض هيمنتها الاستعمارية على البلاد.

---

(30) انظر الفصل السادس

(31) المسيو فردينان دى لسبس Ferdinand de Lesseps

وبالفعل لايمضى على هذا التاريخ سبعة أعوام حتى تكون الدوائر الإستعمارية في لندن، متذرعة بأسباب الاضطراب في البلاد، وهى الحجة التقليدية التى إستمرت تستخدمها هذه الدوائر... حتى تكون قد نجحت في فرض احتلالها العسكرى على مصر (1882).

وقد تحققت بهذا الاحتلال أسوأ مخاوف الخديو إسماعيل الذي حفرت القناة في عهده وأطلق قولته « أريد أن تكون القناة لمصر لامصر للقناة»!.

وكما حدث بالنسبة للمغرب فقد ادى موقع مصر المتميز إلى شكل من إشكال الادارة الاستعمارية المختلفة، صحيح لم يصل الأمر إلى تقسيمها بين أكثر من قوة استعمارية كما حدث في المغرب، ولكن استمرت أكثر من قوة تمنع الانجليز من استكمال أسباب هيمنتهم على مصر.

فمن ناحية قررت معاهدة القسطنطينية عام 1888 التى عقدتها سائر الدول الاوربية التى تستخدم القناة شروط استخدامها لها والتي حرمت الانجليز من استخدام القناة في الاغراض السياسية.

ومن ناحية أخرى فقد استمر الاشراف المالى الفرنسى على الخزينة المصرية جنبا إلى جنب مع الاشراف المالى الانجليزى، وكان هذا الاشراف الثنائي قد تقرر منذ إنشاء صندوق الدين عام 1876.

ومن ناحية أخرى فإن الامتيازات الأجنبية التي استمرت الدول الاوربية تتمتع بها في مصر ظلت بدورها حجر عثرة أمام تنفيذ حكومة لندن لسياستها الاستعمارية في البلاد على النحو الذي كانت تخطط له.

ومن ثم فإن أوربا وان لم تقتسم الأرض المصرية مع بريطانيا غير أنها اقتسمت معها النفوذ، وهذا الاقتسام سواء في حالة المغرب أو في حالة مصر انما قد صدر أساسًا من ظروف الموقع ذى الطبيعة الحاكمة.

السياسة السودانية

استمرت الرابطة التى انعقدت بين كل من المغرب ومصر والاراضى الواقعة جنوبيهما بالاتجاه الافريقى رابطة مصيرية، مما الزم المسئولين في البلدين على أن يمدوا بأبصارهم وبسياساتهم إلى الجنوب... السودان الغربي بالنسبة للمغاربة

والسودان الشرقى بالنسبة للمصريين، وقد كانت «السياسة السودانية» لكل من البلدين تمثل ركنا أساسيًا داخل خططه السياسية.

وتبدو الزامية الرابطة من أكثر من حقيقة..

بالنسبة لمصر: تأتيها من السودان أسباب الحياة ممثلة في ماء النيل، كما إستمرت تأتيها على مر العصور قوافل التجارة التى كانت تشكل عنصرا هامًا في نشاط أهلها الاقتصادي.

وقد ترتب على هذا بروز ذلك الجانب من السياسة السودانية لمصر خلال القرن التاسع عشر من خلال سياسات محمد على التى استهدفت لدى فتحه للسودان عام 1820 الهيمنة على طرق التجارة بين البلدين واكتشاف مصادر المعادن النفيسة التى تأتي مع التجار، وبالذات الذهب، مما دفعه إلى أن يقوم برحلة إلى السودان (1838 ــ 1839) زارفيهاجبال«فازوغلى» حيث قيل بوجود مناجم الذهب بها(32).

برز أيضًا من خلال سياسات محمد على أو اسماعيل في محاولة التوصل إلى منابع النيل خاصة بعد ان بدأت مصر منذ أوائل القرن في انشاء شبكة ري عصرية وبالتالى كان من المطلوب دراسة كل ما اتصل بالماء الذى يغذى هذه الشبكة وتأمينه.

وبالنسبة للمغرب فقد ظلت تجارته مع السودان تؤثر في استقرار السلطة فيه بشكل مصيري. وإستمر ازدهار البلاد مرتبطا برواج هذه التجارة بحكم الدور الذى كانت تلعبه كوسيط تجارى بين غرب افريقيا وبين أوربا.

وتبدو جوهرية هذه العلاقة من ذلك التأثير المتبادل بين السلطة في المغرب، كيفما كانت، وبين استمرار هذه التجارة أو انقطاعها.

ذلك أنه كلما انقطعت التجارة السودانية عن المغرب لسبب أو لآخر استتبع ذلك انتشار الكساد واضطراب الأوضاع السياسية، وتتعدد الأمثلة على ذلك بإمتداد تاريخ المغرب الحديث...

كان من أهم أسباب انهيار السلطة الوطاسية في القرن السادس عشر انقطاع طريق الجنوب نتيجة لظهور قوة جديدة على هذا الطريق هي قوة الاشراف

---

(32) عبد الرحمن الرافعى: عصر محمد على ص 147 ــ 148

السعديين الذين وسعوا منطقة نفوذهم انطلاقا من درعة بإتجاه المحـيط، مما مكنهم من قطع الطريق نحو الشمال، هذا من ناحية، ومن استثمار تجارة الجنوب لصالح قوتهم النامية من ناحية أخرى، وكان هذا التحول هو الفيصل في انهيار الوطاسيين وقيام الدولة السعدية (33).

نفس الشيء حدث تقريبا لدى ظهور الدولة العلوية في تافيلالت وقطعها الطريق على السعديين مما آذن بنهايتهم.

وتظهر مدى أهمية طرق الجنوب من ذلك الصراع الذى كان كثيرا ما يدور حولها مثل الصراع الذى دار بين العلويين وبين ابى حسون السملالى أواسط القرن السابع عشر والذي انتهى بفوز الشرفاء العلويين بالهيمنة على هذه الطرق مما مهد لهم الانفراد بالسلطة على مستوى المغرب كله (34).

ويحدث العكس اذ كلما تضعضعت السلطة في المغرب بحثت طرق التجارة السودانية عن منفد آخر غير منفذ الشمال، وكانت تتجه أحيانا الى البحر المتوسط عبر تلمسان أو باتجاه شرقي عبر فزان، وكانت تتجه أحيانا أخرى الى المحيط عبر تارودانت بإتجاه غربي (35).

أما على مستوى الاستراتيجية فقد كانت السياسة السودانية لكل من مصر والمغرب تشغل ركنا أساسيا من استراتيجيتها. فقد كان السودان بالنسبة للبلدين اشبه بالعمق الوطني وكان تأمينه ضرورة لتأمين الوطن. وقد ادرك المسئولون في البلدين دائما هذا المعنى..

كان من أسباب توجه محمد على لفتح السودان في القرن التاسع عشر المخاطر التي بدأت تواجه مصر بعد هروب فلول المماليك اليه وخشية المسؤولين في القاهرة أن يتحول هؤلاء إلى قوة تهدد الاراضي.

نفس الأسباب دفعت المسئولين في القاهرة باتخاذ قرار استعادة السودان 1899 بعد أن وصلت الأنباء بإقتراب قوى أوربية معادية إلى منابع النيل بكل ماكان يمكن أن ينتج عن ذلك من تهديد لمصر في حياتها (36).

---

(33) مؤلف مجهول: تاريخ الدولة السعدية التاكمادرتية (نشر كولان) الرباط 1934 ص 3 _ 4

(34) J. Brignon et Ce Histoire du Maroc - Hatier 1968, Casablanca p. 191 et p. 226

(35) Ibid p. 194

وإذا ما انتقلنا إلى الجانب الآخر نلاحظ أن المغرب سعى دائمًا إلى تأمين عمقه الوطنى في السودان بنفس الدرجة. وقد تفاوتت وسائله لهذا التأمين تبعًا للظروف التاريخية المحيطة.

فلا يمكن مثلا فصل محاولة المنصور الذهبي لضم السودان خلال القرن السادس عشر عن الاخطار التى سببها الالتفاف البرتغالى من الغرب والذي كان آنئذ قد بدأ في بث نفوذه في ارجين والمينا، والتى سببها أيضًا التفات الاتراك إلى أهمية السودان الاستراتيجية وبداية تحركهم تجاه بورنو. وكان على مغرب المنصور أن يتحرك قبل أن تسبب تلك التحركات أخطارا داهمة عليه. (37)

ثم على المستوى العسكرى فقد نظر كل من المغرب ومصر إلى السودانيين الغربي والشرقى بإعتبارهما مصدرا للجنود في قواتهما المسلحة.. وقد بدت التجربة في مصر في عهد محمد علي، ويشير المؤرخون إلى فشل هذه التجربة، ولكن ليس هذا صحيحًا على إطلاقه ذلك أن بعض العناصر السودانية ظلت تشكل بإمتداد تاريخ مصر الحديث قسمًا من قواتها المسلحة. (38).

نفس الشيء حدث في المغرب الذى استمد في بعض العصور قسمًا هامًا من قواته من أبناء السودان، وأوضح مثل على هذا جيش البخاري على عهد مولاى إسماعيل والذى بلغ عدده عند تأسيسه نحو الفين ووصل عند نهاية هذا العهد إلى 150 ألفًا. (39)

ويبقى آخر المستويات التى فرضت أن يكون لكل من البلدين «سياسة سودانية» وتمثل في الرسالة الاسلامية.

حمل المغاربة الاسلام إلى السودان الغربي منذ العصور الوسطى، وكان من الطبيعى أن يشعروا في كل مناسبة بمسئوليتهم تجاه الحفاظ عليه، وبالتالى تأثرت سياستهم الدينية على مر التاريخ الحديث بهذا الاعتبار.

---

36) د. يونان لبيب رزق: السودان في عهد الحكم الثنائى الأول القاهرة 1976

37) J. Brignon - op. cit. p. 190

38) بالذات قوات الهجانة المكلفة بحماية الحدود.

39) J. Brignon op. cit. p. 242

يتضح ذلك تماماً من رسالة المنصور الذهبي الى بعض حكام السودان (اسحاق اسكيا بن داود) والتي قال فيها:

« فقد نيطت بنا التكاليف الشرعية التى لم تنط بغيرنا أى مناط وارتبطت بنا أى ارتباط ولا مطمع في التقصى من ربقتها والانفلات من عهدتها الا بمواصلة الجد في السلطات.. (40) ».

وعندما لم يتقبل اسكيا دعوة المنصور رأى الأخير أن مسئوليته الدينية توجب عليه التحرك في الاتجاه السودانى (41).

أمافي السودان الشرقى فما قامت به مصر من بناء الجوامع وإرسال الائمة واستقدام ابناء البلاد للتعلم في الأزهر.. كان كل هذا بمثابة الفهم الواضح لرسالتها الاسلامية في تلك البلاد على اعتبار متاخمتها للمناطق الافريقية التي كانت قد بدأت تواجه منذئذ حملات الارساليات التبشيرية الساعية الى - - -صبغها بالنصرانية مما ادى الى أن يكون السودان المصرى آخر معاقل الاسلام بالاتجاه الجنوبي، وكان مطلوبا في كل وقت تدعيم هذا المعقل.



يتأكد من كل ماسبق تشابه القسمات المغربية ـ المصرية مما تمخض عنه تقارب في المسيرة التاريخية وارتباط على مستويات متنوعة، دينية كانت أو إجتماعية أو إقتصادية أو ثقافية أو سياسية وهو ما تتضمنه الصفحات التالية.

---

(40) عبد العزيز الفشالى ـ مناهل الصفا ـ تحقيق.د. عبد الكريم كريم. الرباط 1972.

(41) المصدر السابق ص 136

الفصل الثاني

مصر فى طريق الحج المغربي

ركب الحج الفاسي
الحجاج المغاربة فى مصر
الحجاج المغاربة والمجتمع المصري
الركب المغربي من قافلة الحج المصري
السلطات في مصر وركب الحج المغربي

مصر فى طريق الحج المغربي

استمر ركب الحج المغربي يخرج بانتظام الى المشرق لتأدية الفريضة المقدسة منذ أن وصل الاسلام الى المحيط

واستمرت مصر طوال العهود الاسلامية وحتى بداية العصر العثماني مركزا يلتقي فيه حجاج شمال افريقيا ينطلقون منه الى الحجاز لتأدية هذه الفريضة.

وقد ارتبط انتظام ركب الحج المغربي الى الشرق بمجموعة من الظروف يمكن استعراضها فيما يلي:

1ـ الاوضاع الداخلية في المغرب، فكلما استقرت هذه الاوضاع وكلما تقوت يد السلطة المركزية وجدنا هذا الموكب وقد زادت العناية به وكبر حجمه وتعددت طوائفه.

دليل على أهمية الاستقرار اننا كثيرا ماوجدنا هذا الركب وقد توقف عن التقدم الى المشرق في أوقات الاضطراب وضعف السلطة المركزية مما حدث خلال فترة انتقال السلطة في المغرب من الموحدين الى المرينيين والتي واكبت العصر المملوكي في مصر، حتى انه عاد ركب الحج المغربي الى الذهاب للشرق بعد ذلك ثم خروجه من المغرب في احتفال كبير عام 703هـ (1303) (1) م.

بالمقابل فقد كانت فترات الاستقرار تشهد اهتماما متزايدا بالركب وبكل ماينتصل به منذ خروجه من فاس الى عودته اليها.

---

(1) انظر المنوني: علاقات المغرب بالمشرق في العصر المريني الاول مجلة دعوة الحق ـ العدد الخامس ـ السنة الثامنة ـ مارس 1965 ص 62

مثل على ذلك الركب الذي خرج على عهد السلطان محمد بن عبد الله عام 1187هـ (1773) والذي كان تحت رئاسة ابنه مولاي عبد السلام وقد حمل الهدايا والمنح لاشراف الحرمين الشريفين والى مشايخ مصر وطلاب العلم فيها (2).

2ـ كانت هناك علاقة عكسية بين أهمية ركب الحج المغربي وامتداد حركة الجهاد ضد الاوربيين، اذ كلما احتدت هذه الحركة كلما شعر المغاربة بضرورة تكريس كل طاقاتهم لصد عدوهم وعدو دينهم، مما كان يؤدي الى اهتمام اقل بركب الحج.

يتضح ذلك من الفتاوي التي اصدرها العلماء بتقديم فريضة الجهاد على فريضة الحج واشهرها الفتوى التي سجلها صاحب الاستقصاء (3) والتي لعبت دورا سلبيا نوعا على ركب الحج المغربي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

3ـ كان هناك ايضا ماشهدته بداية العصور الحديثة من ظهور الدولة العثمانية وسيطرتها على كل العالم العربي الاسلامي فيما عدا المغرب.

وكان من المتوقع ان يترتب على محاولات العثمانيين ضم المغرب الى امبراطوريتهم، وما اصاب هذه المحاولات من فشل، لما تمخض عنه فترات من توتر العلاقات بين البلدين.. كان من المتوقع أن يؤثر ذلك التوتر بالسلب على انتظام ركب الحج المغربي الى المشرق الواقع تحت الحكم العثماني

غير أنه من الملاحظ ان هذا التأثير السلبي لم يكن بحدة توتر العلاقات بين الدولتين، ويمكن ان يعزى ذلك لاكثر من سبب :

1 ـ أن عملا أساسيا من اعمال الدولة العثمانية كان تشجيع ارسال قوافل الحج على اعتبار أن في تأدية هذه الفريضة استكمال لاركان الدين الاسلامي، وكما يقول أحد الذين ارخوا للدولة « ان واجب ولي الامر تسيير الحج أمام الراغبين في أداء هذه الفريقة » (4).

---

(2) انظر: الفصل الرابع

(3) أنظر: الناصري: الاستقصاء جـ 7 ص 8

(4) د.عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها (القاهرة 1980) جـ ا ص 57

وبالتالي فقد كان من الصعب، ان لم يكن من المستحيل، على المسؤولين في الدولة العثمانية منع المغاربة من الخروج في ركبهم قاصدين الديار المقدسة، ولو كانوا قد فعلوها لاثر ذلك على طابع الدولة الديني أشد التأثير (5)

2 ـ ان ركب الحج المغربي كان يضم أيضا أعدادا من غير المغاربة، خاصة حجاج غرب افريقيا الذين كانوا يأتون من بلادهم للانضمام للركب المغربي الذي كان الوسيلة الاساسية لوصولهم الى المشرق.

وبالتالي فقد أكتسب هذا الركب الطابع الاسلامي بالاضافة الى طابعه المغربي مما كان لايمكن معه أن يقف العثمانيون منه موقفا معاديا.

3 ـ اذا كان هناك أي تأثير للعلاقات المغربية ـ العثمانية في ركب الحج المغربي فالملاحظ انها قد اثرت في تكوينه، وليس في حجمه أو انتظامه. اذ نادرا ماحدث في فترات التوتر بين البلدين ان ضم الركب شخصيات رسمية مامن أسرة السلطان، على عكس الحال بعد أن هدأت العلاقات بين الطرفين اذ نلاحظ انه منذ الثلث الثاني من القرن الثامن عشر وحتى نهاية الفترة موضع الدراسة ازداد قدوم أعضاء من الاسرة المالكة المغربية في ركب الحج.

وقد اشتهر من هؤلاء زوجة المولى اسماعيل «خناثة بنت الشيخ بكار بن علي المغافري» التي قامت برحلتها عام 1143 هـ (1730) (6) والامير مولاي عبد السلام ابن السلطان محمد بن عبد الله الذي قام برحلته عام 1204 (1789) (7) والاميران سليمان ورشيد ابنا مولاي عبد الرحمن بن هشام وقد قاما برحلتهما عام 1265 (1848) (8).

بعد استعراض الظروف المؤثرة في علاقة ركب الحج المغربي بالمشرق، وبالتالي بمصر، فانه يبقى الخروج مع هذا الركب ومتابعته في طريقه الى الاراضي المقدسة مع ابراز علاقته الخاصة بمصر.

---

(5) عموما حرصت الدول التي قامت على خدمة الحرمين الشريفين على مر العصور وحتى وقتنا الحاضر على الا تقف حائلا دون تأدية المسلمين لشعائر فريضة الحج بغض النظر عن الاعتبارات السياسية

(6) انظر تفاصيل هذه الرحلة في:

عبد الرحمن ابن زيدان: اتحاف اعلام الناس جـ 3 ص 16 ـ23

(7) نفس المصدر جـ 3 ص 228

(8) نفس المصدر جـ 5 ص 154

ركب الحج الفاسي

جرت العادة على أن يخرج ركب الحج المغربي من فاس، لهذا اطلق عليه «ركب الحج الفاسي»، وقد تاكدت هذه التسمية في مصر ليس فقط بسبب الخروج من فاس وانما تمييزا له عن سائر وفود الحجيج التي كانت تأتي من المغرب، فقد كان هناك بالاضافة الى الوفد الفاسي وفود ثلاثة أخرى، واحد منالجزائر والثاني من تونس والثالث من طرابلس.

غير أنه من الملاحظ أن الوفد الفاسي كان يتمتع بمكانة خاصة ضمن الوفود الاخرى وذلك بحكم ان المغرب كانت طوال الفترة موضع الدراسة ذات وضعية خاصة تتمثل في استقلاله عن الدولة العثمانية بكل ماترتب على هذا الاستقلال من قدوم المغاربة في موكب الحج بامكانيات تختلف عن امكنيات سائر المواكب.

ولاشك أن مثل هذه المكانة تثير في كثير من الاحيان بعض اسباب الغيرة في قلوب الوفود المغربية الاخرى.

وقد عبر الرحالة المغاربة الذين رافقوا ركب الحج الفاسي عن كثير من مظاهر هذه الغيرة، نختار منها ماعبر عنه العياشي في أكثر من موقع من رحلته عن التنافر بين الركب المغربي والركب الجزائري، ويكفي اختيار موقع واحد منها يوضح نوعية العلاقة بين الركبين

يقول ابو سالم «.. ثم في الغد يوم الجمعة نزلنا على التميمي ضحى ووجدنا ركب الجزائر مقيمين فيه وكرهنا الورود عليهم لاجل مابين الركبين من الشنئان وكانوا يتوقعون منهم فتنة فوقى الله شرها» (9)

وقد استمر الركب المغربي يعرف أيضا في المغرب بالركب الفاسي والسبب، كما سبقت الاشارة، خروجه من فاس بعد تجمع الحجاج القادمين من سائر انحاء البلاد، مراكش وسلجماسة وغيرهما.

ويلاحظ ان فاس ظلت المنطلق لركب الحج المغربي سواء كانت عاصمة للمغرب كما كان الحال في العهدين المريني والوطاسي أو لم تكن حين انتقلت العاصمة الى مراكش في العهد السعدي والى مكناس أيام مولاي اسماعيل.

---

(9) أبو سالم العياشي: الرحلة العياشية (ماء الموائد) - الرباط 1977 ج2 ص 371

وليس من تفسير لهذه الوضعية التي تمتعت بها فاس سوى مكانتها الدينية التي استمدتها من أكثر من رافد منها: وجود جامع القرويين الشهير، ومنها، انها كانت مركز جماعة العلماء الذين كانت تتم على يدهم مبايعة السلاطين المغاربة مبايعة شرعية.

أضف الى ذلك موقعها الجغرافي كنافذة على الشرق وملتقى لشتى الطرق القادمة من سائر انحاء البلاد.

وكان خروج الركب الفاسي يتم في أواخر جمادى الثانية (27 أو 28 منه) بحيث يستهل عليه رجب بتازا أو بعدها (10)

واذا كان الحجاج الفاسيون يخرجون يوم خروج الركب فقد كان الحجاج من سائر انحاء المغرب يبدأون رحلتهم قبل هذا بوقت طويل حتى يلحقون يوم الخروج، وأحيانا يصلون قبل هذا اليوم بوقت قصير أو طويل تبعا لما قد يكون لبعضهم من مصالح يؤدونها في فاس خاصة اذا ماكانوا من التجار بكل ماكان معروفا عن المدينة من أهمية تجارية.

أما الخروج فقد كان يتم في احتفال كبير، أو كما وصفه أحد الكتاب المغاربة بأنه «يوم موعود ومشهود» (11)

وكان ينصب مكان الاحتفال بخروج الركب خارج باب الفتوح قرب وادي سبو حيث تقام أخبية وقياطين من أنواع مختلفة ويبدأ حفل كبير تقرع فيه الطبول ويحضره جميع أهل البلد من خاصة القوم وعامتهم حتى ان نفس الكاتب يعلق على الاحتفال بقوله انه:

«قل من بقي بالمدينة الا خرج ودب ودرج الرجال والولدان والاحرار والعبدان فما ترى اعجب من ذلك اليوم ولاأحسن منه منظرا أو مخبرا يروق البصر ويميل بالفكر عادة جميلة استندوا اليها وطبيعة حيلوا عليها» (12)

---

(10) محمد المنوني: ركب الحج المغربي (الرباط 1957) ص 22

(11) المصدر السابق ص 9

(12) نقل المنوني هذه العبارات عن كاتبها الاسحاقي

انظر نفس المصدر السابق

وتتأكد أهمية هذا الاحتفال مما لاحظه المراقبون من أنه كثيرا ماكان السلطان نفسه تصاحبه حاشيته يتواجدون فيه ويقومون بواجبات التوديع للركب.

ومأن تنتهي مراسم الاحتفال حتى يبدأ الركب الفاسي خروجه ميمما تجاه الشرق وقاصدا بالذات مصر، وهو طول رحلته تجاه مقصده انما كان يعبر بشتى البلدان على طول الطريق الممتد الى القاهرة، ليس أكثر من عبور يتزود خلاله بالغذاء واسباب الركوب، أما حين يصل الى مصر فيختلف الموقف.

الحجاج المغاربة في مصر:

كان ركب الحج المغربي يصل في العادة الى القاهرة خلال النصف الثاني من رمضان بعد أكثر من ثلاثة شهور من خروجه من فاس.

وتتعدد الملاحظات مع دخول المغاربة الى الاراضي المصرية:

فهم (أولا) يصلونها بعد المرحلة الاخيرة من رحلتهم والتي تكون في العادة أصعب المراحل حين يشق الركب طريقه في المناطق الصحراوية التي تندر بها مصادر المياه خاصة تلك الممتدة من طرابلس عبر الصحراء الغربية في مصر، وكانت مدة اجتيازها تصل الى خمسين يوما في الظروف المواتية منها خمسة وأربعين يوما من السير المستمر، ويصف العياشي هذه المرحلة.. يقول:

«نزلنا خارج انبابة ضحى يوم الاحد الخامس والعشرين من رمضان الموفى خمسين يوما من يوم خروجنا من بلد سيدي احمد زروقآخر العمران من عمالة طرابلس ولم تكن هذه المدة كلها مشيا بل منها نحو الخمسة أيام اقامة وخلص للمشي خمسة واربعون يوما من مسراته الى مصر ولم يعهد قطع هذه المسافة في مثل هذه المدة الا في النادر واعاننا على ذلك مع تيسير المولى جل جلاله اعتدال الهواء وطول النهار مع وجودالكلأوشبع الابل وكنا نقطع هذه المسافة قبل هذا تارة في شهرين وتارة في شهرين ونصف وربما مكثنا فيها اذا كان فصل الشتاء ثلاثة أشهر» (13).

---

(13) العياشي: مصدر سابق جا ص 121

يتبع ذلك أن يكون اعضاء الركب عموما، هم ودوابهم، في حالة يرثي لها من الارهاق والحاجة الى الغذاء والماء. يسجل هذه الحقيقة رحالة آخر من الرحالة المغاربة الذين صاحبوا الركب، يقول ابو القاسم الزياني:

«لما نزلنا على مرحلة من مصر خرج اهل مصر لملاقاة الركب والتبرك بمباشرة الحجاج ومن له قريب قدم له مركوبا مزينا للدخول عليه للمدينة لان مراكبهم لاتبلغ الا ضعيفة من كثرة التعب والسهر وقلة العلوفة والماء» (14)

وهم (ثانيا) عندما يصلون الى مصر فان الركب يتقدم رأسا الى القاهرة دون دخول الاسكندرية، أو كما يقول العياشي «.. وعد لنا عن طريق الاسكندرية يمينا في أرض طيبة، كثيرة آثار البناء، جمة المراعي» (15)

ويعبر الركب بعد ذلك الوديان التي تؤدي به الى القاهرة، ويذكر العياشي أيضا في هذا الصدد كلا من وادي الرهبان «لان فيه رهبان النصارى يتعبدون في ديور أربعة كل طائفة في دير» (16) ثم بعده وادى النطرون، أو ماكان يسمى وقتئذ «باليطرون وهو وادي فيه معدن اليطرون ومنه يحمل الى مصر» (17)، تلى ذلك المرحلة الاخيرة من الرحلة التي يصلون بعدها الى انبابة التي تقع على شاطيء النيل الغربي قبالة القاهرة

غير انهم قبل أن يدخلوا العاصمة كانوا يرسلون من يطمئنهم أولا بان المدينة بخير ولايجتاحها وباء من تلك الاوبئة التي كانت تعاني منها بصفة دورية. فاذا حدث وثبت لهم صدق هواجسهم بوجود الوباء ذهبوا مع الفلاحين الى قرى الريف «غالب من خاف الوباء من الحجاج» (18) أما اذا اطمئن هؤلاء بان المدينة خالية من الوباء بات الناس «في سرور كامل ونعمة شاملة» (19)! ثم يدخلونها زرافات زرافات.

---

(14) أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى في اخبار المعمورة برا وبحرا (المحمدية 1967) ص 193

(15) العياشي: مصدر سابق ج1 ص 116

(16) نفس المصدر والجزء ص 118

(17) نفسه ج1 ص 120

(18) نفس المصدر والصفحة

(19) نفسه ص 124

وهم (ثالثا) يبقون في القاهرة لنحو شهر لمن ينضم منهم الى موكب الحج المصري الذي كان يغادر العاصمة المصرية في العادة يوم 21 شوال، أو فترة أطول لمن كان منهملاينوي مرافقة الموكب ويفضل لسبب أو لاخر الارتحال الى الاراضي المقدسة بحرا من السويس (القلزم).

وكانت تواجه الحجاج المغاربة خلال هذا الشهر مشاكل العيش في المدينة الكبيرة سواء ماتصل بالغذاء أو بالاقامة أو بغير ذلك..

وكان تدبير مكان للاقامة بمثابة المشكلة الاساسية والملحة ونلاحظ أن ابناء ركب الحج المغربي قد اختلفوا في المناطق التي اختارتها كل فئة لسكناها خلال هذه الايام.

هناك أولا الذين أتوا للحج والتجارة وكانوا يستقرون عادة في الوكائل مثل وكالة الغوري وغيرها، الا أن الدور في تلك الوكائل كانت ضيقة في عمومها مما كان لايشجع غير التجار على السكنى فيها.

وهناك ثانيا المجموعة التي تشكل الغالبية العظمى من الحجاج المغاربة الذين كانوا يقصدون طولون يبحثون عن سكن فيها.

أما سبب اختيار هذا الحي فلقربه من «الرملة محل سوق الدواب ومايحتاج اليه من أمور السفر» (20)

غير انه كانت هناك تلك المجموعة من الحجاج التي تشكل النخبة فيهموالتي كانت تتشكل أساسا من العلماء وأصحاب الاهتمامات الثقافية ، وقد كان هؤلاء يسعون بكل الوسائل الى السكنى قرب الجامع الازهر حيث تتوفر فرص الاحتكاك بالجو العلمي فيه وبالمدارس المجاورة له، فقد كان هذا الحي انئذ اشبه بالمدينة الجامعية التي تضم العلماء والطلاب.

ترتبط الملاحظة الرابعة باولئك المغاربة الذين ركبو البحر وقدموا رأسا من بلادهم الى الاسكندرية، وليس من احصاء دقيق يرد على التساؤل ما اذا كان القادمون عن طريق البحر اكثر عددا امزملاؤهم القادمون برا.

---

(20) المصدر السابق جا ص 120

يرجح الكتاب الاوربيون الطريق الاول فهذا «جرار» المسؤول المالي في الحملة الفرنسية يثير فيما كتبه عن الاوضاع الاقتصادية في مصر خلال عهد الحملة (1798_1801) مؤكدا بان القادمين من البحر كانوا أكثر من القادمين بالطريق البري (21)

ولكن وعلى الجانب الاخر قلما يتحدث الكتاب المعاصرون، سواء على الجانب المصري مثل الجبرتي أو على الجانب المغربي مثل العياشي، عن اولئك القادمين بحرا وينصب حديثهم على الواصلين عن الطريق الاخر.

على أي الاحوال فقد كان القادمون بحرا يصلون مبكرا عن المجموعة التي اجتازت الطريق البري. يؤكد ذلك ماأشار اليه العياشي بقوله: «لما نزلنا انبابه خرج للقائنا من سبقنا في البحر من أصحابنا المغاربة» (22)

وعلى العموم فقد كان حجاج البر يلقون المخاطر من العربان كما أن حجاج البحر واجهوها من القراصنة اذ ان البحر المتوسط كان يموج وقتئذ بالاخطار من السفن الاسلامية أو المسيحية التي يسعى كل منها الى اقتناص الاخر، ويروي لنا الزياني في هذا الشأن كيف وقع هو ومن معه أسرى في أيدي فرسان القديس يوحنا في مالطة في أثناء ابحاره الى مصر (23)

الملاحظة الخامسة: لم يكن في مقدور فقراء الحجاج اكتراء الدور خلال تلك الفترة التي كانوا يقضونها في مصر، من ثم كانت هنـــاك أمـــاكن معينة يستطيعون الاقامة فيها دون مقابل.

في القاهرة كانوا يقصدون جامع ابن طولون..«وبخارج المسجد زيادة كثيرة كان حجاج المغاربة ينزلون فيها بابلهم وأخبيتهم ايام الاقامة وكان في ذلك رفق بالضعيف الذي لايقدر على كراء المنازل» (24) ، كما كانوا يقصدون أيضا «جامع السانية» ببولاق «واليه يأوي فقراء المغاربة ببولاق» (25)

(21) جب وبوون: المجتمع الاسلامي والغرب (ترجمة د. احمد عبد الرحيم مصطفى) القاهرة جـ2 ص 150

(22) العياشي: نفس المصدر جـ1 ص 124

(23) الزياني ص 192

(24) العياشي جـ1 ص 153

(25) المصدر السابق جـ2 ص 356

أما في الاسكندرية فقد كانت هناك الزاوية المعروفة بزاوية «ابي محمد صالح ينزلها المغاربة ولهم فيها أوقاف» (26)

ويتأكد من الملاحظتين الثالثة والخامسة ان ركب الحجاج المغاربة قد ضم بالاضافة الى الفئة القادرة من «هايتر الناس» والتي انتمى اليها الرحالة الذين نأخذ عنهم، الفئة الاخرى من الفقراء الذين اسماهم العياشي «صعاليك الحجاج» بينما نعتهم الجبرتي «بمقاطيع الحجاج المغاربة » (27).

الملاحظة الاخيرة: انه كان للحجاج المغاربة خلال فترة اقامتهم بالقاهرة اماكن معينة يترددون عليها ويبقون فيها.

منهامساجد بعينها كان يطلق عليها «مسجد المغاربة»، فيشيرالعياشيالى أنه ذهب لزيارة الشيخ ابي الحسن على الشبراملى «فوجدته في المسجد المسمى بمسجد المغاربة بازاء داره» (28)

منها بعض المزارات والاضرحة التي كان المغاربة حريصين كل الحرص على زيارتها خلال مدة اقامتهم من العاصمة المصرية. ومثل هذا الحرص طبيعي من شعب تمتليء بلاده بأضرحة الصالحين.

ويشير مرة اخرى صاحبنا العياشي الى الاولياء الذين زارهم في الذهاب والاياب، فكان منهم السيدة نفيسة والشافعي وابن الفارض وابن عطاء الله والبوصيري والمغاوري.

كما كان المغاربة يزورون بعض الاولياء الاقل شهرة وكان السبب وراء حرصهم على هذه الزيارات كونهم مالكيين مثل الشيخ عبد الرحمن بن قاسم والشيخ اشهب (29)

ومنها أخيرا ماكان يحدث من اشتهار بعض المشايخ المصريين بالكرامات فكان يقبل عليهم كثيرون من الحجاج خلال فترة اقامتهم بالقاهرة يتبركون بهم، غير اننا نلاحظ أن الحجاج المغاربة كانوا أكثر طوائف هؤلاء الحجاج اقبالا على مثل هؤلاء المشايخ.

---

(26) نفس المصدر والجزء ص 367

(27) عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الاثار في التراجم والاخبار ج3 ص 19

(28) المصدر السابق ج1 ص 145

(29) نفس المصدر ج1 ص 151ـ153

يروي لنا الجبرتي في حوادث عام 1205 (1790) عن الشيخ «ابو الغيض السيد محمد بن محمد الشهير بمرتعني الحسين الزبيدي الحنفي»
كيف اشتهرت كراماته وكيف تهافت الحجاج المغاربة عليه فيقول:

«وصار له عند أهل المغرب شهرة عظيمة ومنزلة كبيرة واعتقاد زائد وربما اعتقدوا فيه القطبانية العظمى حتى ان احدهم اذا ورد الــــــى مصر حاجا ولم يزره ولم يصله بشيء لايكون حجه كاملا فاذا ورد عليه احدهم سأله عن اسمه ولقبه وبلده وخطته وصناعته واولاده وحفظ ذلك أو كتبه ويستخبر من هذا عن ذاك بلطف ورقة فاذا ورد عليه قادم من قابل سأله عن اسمه وبلده فيقول له فلان من بلدة كذا فلايخلو اما أن يكون عرفه من غيره سابقا أو عرف جاره أو قريبه فيقول له فلان طيب فيقول نعم سيدي ثم يسأله عن أخيه فلان وولده فلان وزوجته وابنته ويشير له باسم حارته وداره وماجاورها فيقوم ذلك المغربي ويقعد ويقبل الارض تارة ويسجد تارة ويعتقد أن ذلك من باب الكشف الصريح فتراهم في أيام طلوع الحج ونزوله مزدحمين على بابه من الصباح الى الغروب وكل من دخل منهم قدم بين يدي نجواه شيئا ما فضة أو تمرا أو شمعا على قدر فقره وغناه وبعضهم يأتيه بمراسلات وصلات من أصل بلاده وعلمائها واعيانها ويلتمسون منه الاجوبة فمن ظفر منهم بقطعة ورق ولو بمقدار الانملة فكأنما ظفر بحق الخاتمة وحفظها معه كالتميمة ويرى أنه قد قبل حجه والا فقد باء بالخيبة والندامة وتوجه عليه اللوم من أهل بلاده ودامت حسرته الى يوم ميعاده» (30).

وتقودنا هذه الملاحظة الاخيرة الى محاولة تقصي طبيعة العلاقة بين الحجاج المغاربة خلال اقامتهم بمصر وبين المجتمع المصري.

الحجاج المغاربة والمجتمع المصري:

لم يتحرك الحجاج المغاربة في فترات تواجدهم على الاراضي المصرية قاصدين الديار الحجازية أو عائدين منها في فراغ، بل انهم تحركوا في جو اجتماعي احاط بهم وكان من الحتمى الاحتكاك معه.

---

(30) الجبرتي: مصدر سابق ج2 ص 108 ـ 109

وتسجل لنا المصادر المعاصرة ظاهرة تتطلب التفسير في اطار هذا الاحتكاك.

تتمثل هذه الظاهرة في تلك المصادمات التي كثيرا ماجرت بين وفود الحجاج المغاربة وبين فئات بعينها من سكان العاصمة المصرية

يسجل المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي في حوادث عام 1110هـ(1698) ماسماه بواقعة المغاربة فيقول.

«في رابع عشر شوال كانت واقعة المغاربة من أهل تونس وفاس وذلك أن من عادتهم ان يحملوا كسوة الكعبة التي تحمل كل سنة للبيت الحرام ويمرون بها في وسط القاهرة ويحمل المغاربة جانبا منها للتبرك بها ويضربون كل من رأوه يشرب الدخان في طريق مرورهم. فرأوا رجلا من اتباع مصطفى كتخدا القازدغلي فكسروا انبوبته وتشاجروا معه وشجوا رأسه، وكان في مقدمتهم طائفة منهم متسلحون وزاد التشاجر واتسعت القضية وقام عليهم أهل السوق. وحضر أوده باشا البوابة فقبض على أكثرهم ووصفهم في الحديد وطلع بهم الى الباشا واخبروه بالقضية فأمر بسجنهم بالعرقانه فاستمروا حتى سافر الحج من مصر ومات منهم جماعة في السجن ثم افرج عن باقيهم» (31).

ويعود الجبرتي ليسجل في حوادث شهر رمضان عام 1202 (1781) ، أي بعد نحو قرن من الحادثة الاولى، يعود ليسجل حادثة أخرى لها نفس الطابع، يقول:

«وفي خامس عشرينه وقع بين طائفة المغاربة الحجاج النازلين بشاطيء النيل ببولاق وبين عسكر القليونجية مقاتلة وسبب ذلك أن المغاربة نظروا بالقرب منهم جماعة من القليونجية المتقيدين بقليون اسماعيل بك ومنهم نساء يتعاطون المنكرات الشرعية فكلمهم المغاربة ونهوهم عن فعل القبيح وخصوصا في مثل هذا الشهر أو أنهم يتباعدون عنهم فضربوا عليهم طبنجات فثار عليهم المغاربة فهرب القليونجية الى مراكبهم فنط المغاربة خلفهم واشتبكوا معهم ومسكوا من مسكوه وذبحوا من ذبحوه ورموه الى البحر وقطعوا حبال المراكب ورموا صواريها وحصلت

(31) الجبرتي جا ص 51ـ52

زعجة في بولاق تلك الليلة واغلقوا الدكاكين وقتل من القليونجية نحو العشرين ومن المغاربة دون ذلك » (32) .

ومن خلال ماسجله الجبرتي يمكن ملاحظة أولا ان الحجاج المغاربة لم يكونوا يصطدمون في العادة بعناصر من المصريين أو من أسماهم صاحب «عجائب الاثار» بأولاد البلد وانما كانت صداماتهم تقع مع عناصر عسكرية في خدمة السلطة، وهي في العادة كانت من العناصر التركية.

ويبدو أن أبناء هذه العناصر سواء كانوا في خدمة العثمانيين كما كان الحال بالنسبة للحادثة الاولى أو في خدمة المماليك كما كان الحال بشأن الحادثة الثانية، كانوا يسلكون في شكل استفزازي تحت الشعور بغطاء الحماية من السلطة، وهو امر ربما يكون المصريون قد احتملوه لانهم تعودوا عليه غير أن الحال اختلف مع غيرهم خاصة المغاربة .

ويتم تخصيص المغاربة لاكثر من سبب فمن ناحية كانوا في عمومهم متشددين بحكم انتمائهم للمذهب المالكي وهم نتيجة لهذا التشدد كانوا يرون في بعض سلوكيات أتباع المذاهب الاخرى خروجا عن الدين أو ماأسموه «بالمنكرات الشرعية». مثل التدخين كما جرى في الحادثة الاولى.

ومن ناحية أخرى وهم في طريقهم الى تـــأديـــة الفريضة المقدسة فقد كان شعورهم الديني أكثر التهابا من اولئك الذين يمارسون حياتهم العادية، وبالتالي فقد كان ما حدث من (القليونجية)(33) بمصاحبتهم النساء في شهر رمضان مايمكن أن يستفزهم الى أقصى حد.

ولاشك انه قد ترتب عن مثل هذه الاصطدامات قلق شديد لدى بعض اصحاب السلطة في مصر مما كان يترتب عليه في بعض الاحيان جمع عديد من الحجاج المغاربة واخراجهم من القاهرة أو عدم السماح أصلا بدخولهم اليها.

فيما يتصل بالاخراج فهو قد حدث عقب حادثة القليونجية فيما يرويه الجبرتي ايضا..

---

(32) مصدر سابق ج2 ص 55-56

(33) القليونجية: هم بحارة المراكب النهرية التي كان يطلق عليها القليون أو الغليون

«فلما بلغ اسماعيل بک ذلک اغتاظ وأرسل الى المغاربة يأمرهم بالانتقال من مكانهم فانتقلوا الى القاهرة وسكنوا بالخانات. فلما كان ثاني يوم نزل الاغا والوالى (34) وناديا في الاسواق على المغاربة الحجاج بالخروج من المدينة الى ناحية العادلية ولايقيموا بالبلد وكل من آواهم يستأهل ما يجري عليه » (35).

أما فيما يتصل بالمنع من الدخول فهو مايرويه مؤرخناالمصريفي حوادث عام 1218 (1803) اذ يقول ان المسؤولين في القاهرة آنئذ والتي كانت واقعة تحت الحكم المملوكي «منعوا ايضا حجاج المغاربة من الدخول الى المدينة ومن دخل منهم لاجل حاجة فليدخل من غير سلاح فذهبوا الى بولاق واقاموا هناک» (36).

بالاضافة الى هذه العلاقة السلبية بين حجاج الركب المغربي وبين أبناء المدينة المصرية فقد تعددت جوانب اخرى من العلاقة وكانت جميعها ذات طابع ايجابي..

1- فهناک حالة الرواج الاقتصادي الظاهر التي كانت تصاحب قدوم الحجاج المغاربة، وقد امتدت هذه الحالة لتشمل وجوها شتى من وجوه النشاط الاقتصادي .

هناک أولا ماكان يصيبه أصحاب الدور من رواج، فقد كان هؤلاء ينتهزون الفرصة ويرفعون أسعار كراء دورهم مما كان يوفر دخولا كبيرة لهم في هذه المناسبة.

يصف العياشي صعوبة الحصول على الدور وارتفاع ثمنها فيقول «دخلنا القاهرة ضحى ولم نجد دارا للكراء بقرب الازهر مع شدة رغبتنا في ذلک فطرحنا امتعتنا بوكالة مايتباي بباب الازهر الغربي وجعلنا نتطلب دارا للسكنى فما وجدناها الا آخر النهار بمحل يقال له البردبكية وجدنا هناک دارا واسعة فيها عدة مساكن الا أنها بعيدة عن الازهر بنحو من اربعمائة خطوة.. واكتريناها بثلاثة وسبعين نصفا ونقلنا اليها امتعتنا» (37).

---

(34) المسئولان عن حفظ الامن في القاهرة.

(35) المصدر السابق ج2 ص 56

(36) نفس المصدر والمجلد ص 592

(37) العياشي ج1 ص 125

وقد استتبع هذا النشاط الظاهر في كراء الدور رواج لطائفة اخرى هي طائفة السماسرة التي كانت تقوم بدور الوساطة بين اصحاب هذه الدور وبين الراغبين في كرائها من الحجاج الوافدين، ويقدم لنا الزياني وصفا شيقا عن هؤلاء الذين كانوا ينتظرون في بولاق على الشاطيء الشرقي من النيل يستقبلون الحجاج العابرين من انبابة على الشاطيء الاخر ويعرضون عليهم خدماتهم، ويلاحظ أن الذي استقبل الزياني كان مغربيا مما يوحي بان الغالبية ممن احترفوا هذا العمل كانوا من المغاربة المقيمين في مصر وذلك لسهولة تفاهمهم مع ابناء وطنهم الوافدين في الركب (38).

هناك ثانيا ماكان يترتب على دخول الحجاج الى مصر من تنشيط التجارة على نطاق واسع، فمن ناحية كان قطاعا هاما من هؤلاء يقدمون ومعهم سلع بلادهم. وكانت هذه التجارة من الاهمية بمكان لمصر حتى انه كان يسمح بدخول بضائع الحجاج معفاة من الرسوم وبدون تفتيش من سلطات الجمارك (39) ونلاحظ أن التجار من هذا النوع كانوا يتعاملون فيما يمكن تسميته بلغة الاقتصاد «السلع المعمرة» وهي السلع التي تتحمل النقل لهذه المسافات الطويلة دون ان تفسد أو تفقد قيمتها.

من ناحية اخرى كان قطاع هام من المصريين يعمل في اعداد المؤن التي سوف يحملها الحجاج في رحلة الذهاب والاياب والتي كانت تستغرق نحو اربعة شهور (شوال الى صفر).

يقدم أحد الحجاج المغاربة صورة لابناء هذا القطاع فيتحدث عن أنه كان هناك فضاء واسع خارج قلعة الجبل «فيه تباع الابل والخيل وسائر الدواب، وبه يوجد غالب مايحتاجه الحاج من الاثاث والامتعة وتنصب فيه أيام الموسم أراحي

---

(38) انظر الزياني: مصدر سابق ص 201ـ انظر ايضا الفصل الخامس

(39) انظر جب وبوون .

المرجع السابق جـ2 ص 150

نقلا عن P. S. Girard, Memoire sur l'agriculture l'industrie, et le commerce de l'Egypte.

متعددة«لتدشيش» (40) الفول يديرها الرجال بايديهم مع كبرها وقد اعطوا قوة على ذلك يطحن الرجلان اراداب (41)متعددة في يوم واحد، فتكون بالرميلة صبر من الفول المدشش، كل صبره تزيد عن المائة اردب، ومن هناك «يكيل» غالب الحجاج فولهم ويعمرونه هناك في غرائرهم» (42).

2ـ هناك أيضا حالة الانتعاش الاجتماعي العام التي كانت تسود مصر عموما والقاهرة على وجه الخصوص- لدى دخول الحجاج المغاربة اليها. واذ كان هذا الدخول يتم خلال شهر رمضان ويوافق بعد ذلك عيد الفطر فقد كانت هذه المناسبات مضافا اليها وصول هؤلاء الوافدين الذين كانوا أشبه بالسياح بالنسبة لسكان المدينة تؤدي الى انتعاش ظاهر في الحياة الاجتماعية بالمدينة.

يصف الرحالة المغربي «الزياني» مظهرا من مظاهر هذا الانتعاش فيتحدث عما كان في الرميلة من كثير من الخلق. وهي تجمعات تتكون حول من يقومون بالالعاب البهلوانية «يلعبون هناك في سائر الايام كأنواع المشعوذين وأصحاب القرود ومن ضاهاهم من أصحاب اللعب بأنواع الحيوان كالدب والحمير والتيوس والكلاب ». (43).

أضف الى ذلك حالة الانتعاش الديني التي كانت تصحب قدوم الحجاج المغاربة الى المدينة المصرية، فمنذ دخول ركب الحج المغربي الى القاهرة يستقبله أهل مصر «للتبرك بمباشرة الحجاج» على حد تعبير أحد المعاصرين (44) من ناحية أخرى فقد كانت الزيارات التي يقوم بها هؤلاء الحجاج الى اضرحة الاولياء مما يزيد جو المدينة انتعاشا دينيا اذ كان هؤلاء يذهبون الى تلك الاضرحة على هيئة وفود ويعقدون صلواتهم حولها.

3ـ تبقى أخيرا حالة الانتعاش العلمي الناتجة عن قدوم عدد من العلماء المغاربة ضمن ركب الحج وحرصم على حضور دروس أشهر المشايخ بالازهر وغيره واشتراكهم في المناقشات العلمية وشرائهم لعدد من أمهات المصادر (45)

---

(40) التدشيش : نزع قشر الفول وتكسيره الى قطع صغيرة

(41) الزياني: مصدر سابق ص 210

(42) اراداب جمع اردب وهو مقياس كبير للحبوب

(43) الزياني: مصدر سابق ص 211

(44) المصدر السابق ص 193

(45) ستتم دراسة هذه الظاهرة بالتفصيل في الفصل الرابع الخاص بالعلاقات الثقافية

لايعني كل ماسبق أن تأثير قدوم ركب الحج المغربي قد انحصر في مجتمع المدينة، فالريف المصري بدوره نال نصيبا من هذا التأثير وان كان بالطبع نصيبا أقل بحكم ان الفترة التي كان يقضيها الحجاج في مصر كانوا يقضونها أساسا بالمدينة وخصوصا بالقاهرة.

في بعض الاحيان كان البقاء في الريف يصبح ضرورة في حالة اذا مااكتشف الحجاج أن القاهرة مصابة بالوباء قبل أن يدخلوها، وذلك كما سبقت الاشارة.

غير أنه حتى في الاحوال العادية كانت تحدث معاملات بين الحجاج المغاربة وبين أهل الريف المصري خصوصا تلك المناطق المتاخمة للعاصمة المصرية.

وقد قامت هذه المعاملات على أساس من تبادل المصالح، فقد كان الحجاج، خاصة القادمين منهم عن طريق البر، في حاجة الى من يودعون عندهم ابلهم التي صحبتهم في رحلتهم الطويلة من المغرب والتي كانت بعد هذه الرحلة المنهكة في حاجة الى من يرعاها لبعض الوقت حتى تتمكن من استعادة قواها استعدادا لرحلة العودة.

وكان سكان بعض القرى القريبة من أمبابة - ويشير العياشي الى قريتي المنصورية والمنشية- يستقبلون الحجاج المغاربة ويحثونهم على ايداع ابلهم لديهم حتى عودتهم.

ويبدو أن هؤلاء كثيرا ماكانوا يرفضون اعادة الابل لاصحابها حتى أن عديدا من الحجاج بدأ بعد ذلك فيمصاحبة ابله الى المدينة حيث يبيعها هناك على أن يشترى ابلا أخرى لدى عودته بعد تأدية فريضة الحج، غير أنه رغم ذلك ظل حجاج آخرون يودعون ابلهم عند هؤلاء الفلاحين ويقعون في حبائلهم، كما يقول صاحب ماء الموائد (46).

الحجاج المغاربة في موكب الحج المصري:

كانت مناسبة خروج موكب الحج المصري من القاهرة قاصدا الديار الحجازية

(46) العياشي: مصدر سابق ج1 ص 124

احدى المناسبات القليلة التي تحظى بمثل هذا الاهتمام من شتى الاطراف، سواء على المستوى الحكومي أو على المستوى الشعبي (47).

وكان الاحتفال بخروج هذا الموكب يتم على مرحلتين، في المناسبة الاولى التي كان تجري عادة في منتصف شوال كان يحتفل باحضاره «كسوة الكعبة المشرفة» من دار الصناعة، وهو احتفال كان يحضره كافة رجال الدولة في نظام خاص، ويجري أمام القلعة الى حيث يتقدم موكب الابل الذي يحملها والمسمى «بالمحمل الشريف»، ثم يمر هذا الموكب وسط السوق «والناس يتمسحون بها حتى يبلغوها الى المشهد الحسني فتنشر في صحن المسجد وتخاط هناك (48).

ويعتبر هذا الاحتفال بالكسوة بمثابة اعلان عن قرب الخروج في موكب الحج أو ماكان يسمى بالخروج الكبير أو الخروج الثاني والذي كان عادة يجري بعد الاحتفال الاول بأسبوع.

وخلال هذا الاسبوع يبدأ الاستعداد الاخير للحجاج لمصاحبة موكب الحج. وكانت القضية الاساسية التي تفرض نفسها خلال هذا الاسبوع هي قضية تدبير وسيلة الانتقال.

ويتضح مالهذه القضية من أهمية اذا مالاحظنا انشغال سائر الاطراف بها، سواء كانت أطرافا رسمية أو شعبية.

على الجانب الرسمي يروي الجبرتي مع مناسبة خروج موكب الحج عمليات المصادرة التي كانت تقوم بها السلطات للدواب، وفي أكثر من موقع من كتاباته..

موقع منها في حولياته عن شهر شوال 1193 (1779م) يقول فيه «هاجت مصر وماجت في أيام خروج الحج بسبب الاطلاب وجمع الاموال وطلب الجمال والبغال والحمير. وغصبوا بغال الناس ومن وجدوه راكبا على بغلة أنزلوه عنها وأخذوها منه قهرا.. وغلت أسعارها جدا (49) ».

---

(47) يشير الزياني انه لايوجد مثل هذا اليوم كل عام الا يوم «وفاء النيل» ويوم قدوم باشا جديد.

(48) العياشي: مصدر سابق جـ 1 ص 151

(49) العياشي: مصدر سابق جـ1 ص 153

موقع آخر في حوادث نفس الشهر بعد ثلاث سنوات (1782) يقول فيه «.. وجمعوا المراكب وحجزوها من أربابها وعطلوا أسباب التجار والمسافرين» (50).

أما على الجانب الاخر فهناك شهادات الحجاج المغاربة في هذه المناسبة، وقد تطابقت فيها شهادة الرحالتين المغربيين الشهيرين، العياشي الذي حج خلال القرن السابع عشر، والزياني الذي حج خلال القرن التالي (51).

جاء في هذه الشهادة عن نفس القضية ذكر قدوم الجمالين من الصعيد والارياف، وكيف أنهم كانوا يعرضون ابلهم للكراء أو للشراء، والواضح أن العياشي وأمثاله من الحجاج المغاربة الميسورين كانوا يفضلون الشراء، اذ كما قال «من أراد تعب قلبه والخصومة أثناء الليل وأطراف النهار اكترى، ومن أراد سلامة قلبه ودينه والمخاطرة بماله اشترى ابله» (52).

خلال نفس الاسبوع الممتد بين خروج المحمل الاول وخروجه الثاني يتم الاتفاق مع مندوبين من القبائل العربية القاطنة على طريق الحج أو دربه، وكانوا يسمون (عرب الدرب)، يتم الاتفاق على أن يقدموا في المويلح الواقعة على خليج القصبة الزاد الذي يحتاجه الحجاج والعلف الذي تحتاجه ابلهم.

وبعد اجراء كل هذه الاستعدادات يتم خروج المحمل الكبير حيث يؤتي بالكسوة من موضع خياطتها، وتتضمن الكتابات المعاصرة كثيرا من التفاصيل عن الاحتفال بخروج المحمل (53) غير ان مايعنينا هنا هو دراسة تركيب الموكب المصري، ومكان الحجاج المغاربة بداخله.

وأول ماينبغي التنبيه اليه أنه كان بين مصر والحجاز علاقة خاصة تمثلت في تلك النفقات التي كانت تؤديها مصر للحرمين الشريفين كل عام والتي تنوعت وتعددت مواردها بشكل ملحوظ (54).

---

(50) عبد الرحمن الجبرتي: مصدر سابق جا ص 539

(51) نفس المصدر جا ص 569

(52) الواضح تماما أن الزياني قد نقل من العياشي بالحرف الواحد

(انظر الرحلة العياشية جا ص 150 - ص 158 ومانقله الزياني عنها من الترجمانة بالحرف الواحد ص 204 - ص 213)

(53) أنظر الجبرتي والعياشي والزياني

(54) د. فؤاد محمد المادي: العلاقات الاقتصادية والمالية بين مصر والحجاز من الفتح العثماني حتى الاحتلال الفرنسي 1517 - 1798 (أكتوبر 1980)

أما عن تركيب الموكب المصري، فقد كان هناك بالاضافة الى الحجاج .

أولا: قائد الموكب أو امير الحج، وكان صاحب هذا المنصب خلال السنوات الاولى من الحكم العثماني من البكوات الذين يرسلهم الباب العالي من الاستانة غير أنه بعد ذلك وابتداء من القرن السابع عشر كان يشغل هذا المنصب الامير الذي يذهب صحبة المؤن والنقود المرسلة من مصر للباب العالي، وكانت هذه الوظيفة على قدر من الاهمية يتضح من أن شاغلها كان يعتبر ثالث الشخصيات الكبيرة في مصر بعد كل من الباشا والدفتردار، وكان صاحبها في العادة من الامراء المماليك.

اما مهمة أمير الحج فقد كانت حماية قافلة الحجخلال الرحلة سواء باستخدام القوة العسكرية، أو بتوزيع الهدايا على شيوخ القبائل العربية النازلة على طول الطريق الذي تسلكه القافلة، أضف الى ذلك ترتيب عمليات شراء ونقل المؤن المرسلة مع القافلة والاشراف على توزيعها أثناء الرحلة (55).

ثانيا: العناصر العسكرية المكلفة بحماية القافلة والتي كان يتراوح عددها بين خمسمائة جندي في السنوات العادية وألفى جندي في السنوات التي تزداد فيها الاعمال العدائية من العربان المقيمين على جانبي الطريق.

وقد كانت هذه العناصر تأتي من مصدرين.. أولهما: الفرق العسكرية (الوجاقات) السبع التي تشكل الحامية العثمانية في البلاد والتي يسمى رجالها «بالوجاقلية»، وثانيهما: ماكان يقدمه كل أمير من أمراء المماليك من رجال تراوح عددهم بين ثلاثة وعشر (56).

ثالثا: عناصر تقوم على خدمة الحجاج من «المتسوقة والباعة والجمالين» وأغلب هؤلاء من الفلاحين، ويندهش الملاحظون المغاربة من قدرة هؤلاء على الخدمة فهم «بالليل يسيرون وبالنهار يعملون في البيع والشراء والسقي والطبخ وعلف الابل واصلاح أقتابها ومداواة جراحاتها، فلا يكادون ينامون حتى القليل » (57).

---

(55) المصدر السابق_ هامش رقم 12،13 ص 23_24

(56) نفس المصدر ص 32

(57) العياشي: مصدر سابق ص 158

أما عن مكان الحجاج المغاربة داخل الموكب فمن الواضح أن نوعين من هؤلاء الحجاج كانا يفضلان صحبة القافلة المصرية.

النوع الاول من الاصحاء القادرين على تحمل مشاق السفر برا أو من يصفهم العياشي «بأهل القوة الذين لهم شغف ومحامل وهوادج ينامون فيها بالليل على ظهور الابل، ويصحون بالنهار كأنهم مقيمون » (58).

وتبدو مشقة السفر البرى من أن القافلة التي كانت تخرج من القاهرة أواخر شوال، كما سبقت الاشارة، كانت تتوقف في الطريق ستا وثلاثين وقفة ، ثم تصل الى مكة وتمكث فيها عشرين يوما، تذهب بعدها الى المدينة في رحلة تستغرق عشرة أيام، حيث تظل هناك يومين، ثم تتركها بعدهما متوجهة على طريق العودة للقاهرة وكانت هذه الرحلة تستغرق في أحسن الاحوال ستة وثلاثين يوما. وماتستغرقه من وقت الرحيل عن ابواب القاهرة حتى العودة اليها كانت مائة وعشرة من الايام (59) ، ونحو أربعة شهور كما سبق القول.

النوع الثاني من الفقراء الذين لايملكون تكاليف السفر والذين يصحبون القافلة ويعيشون على هامشها وقد وصفهم صاحب «ماء الموائد» بأنهم من الذين «لاابل لهم ولاامتعة يرافقون الوفد المصري بالماء المبل في أوقات من الليل، وعند الرحيل نهارا مع ماينالهم من أهل المروءة من التصدق بفضل الاطعمة، الا أنهم يكابدون مشقة عظيمة في المشي والسهر ليلا، وفي النهار يشتغلون بالسعي على مايفوتهم فلايكادون ينامون الا قليلا» (60).

وبالرغم من أن الهدف الاساسي من خروج ركب الحج المغربي مع القافلة المصرية توفير الحماية لاعضاء هذا الركب من الهجمات التي اعتاد أن يشنها العربان المقيمون على جانبي الطريق عليه الا أن هذا الهدف كثيرا مالم يتحقق.

وتحفل حوليات المؤرخين المعاصرين بما كانت تلاقيه القافلة المصرية من متاعب كان من الطبيعي أن يصيب المغاربة بعضها.

---

(58) العياشي: مصدر سابق جا ص 156

(59) د. فؤاد محمد الماحي: مصدر سابق- هامش 3 ص 22

(60) العياشي: مصدر سابق جا ص 156-157

فقد وصل الامر في بعض السنوات الى الفتك باعداد كبيرة من الحجاج كما حدث لقافلة الحج التي ذهبت عام 1200 (1785) حين قتل من الحجاج نحو الثلث بعد حرب دامت سبعة أيام ونهب العرب غالب أحمالهم (61).
أما ماتعرض له الحجاج المغاربة على وجه الخصوص فقد جاءت الاشارة اليه في أكثر من مناسبة نختار احداها.

في عام 1199 (1784م) تقول المصادر «وقفت العربان للحجاج المغاربة في سطح العقبة وحصروهم هناك ونهبوهم وقتلوهم عن آخرهم ولم ينج منهم الا نحو عشرة أنفار» (62).

وكان تعرض العربان على هذا النحو للقافلة المصرية يحدث لسبب أساسي وهو عدم دفع ماعرف وقتذاك «بعوايد العرب»، وكان التوقف عن هذا الدفع أو عدم دفع المبلغ المعتاد يحدث لاحد سببين، فاما يحدث نتيجة لتخفيض ريع أمير الحج باقتطاع جزء منه فيحجز عن دفع ماأعتاد العرب أن يحصلوا عليه، واما أن أمير الحج نفسه كان يطمع في الاحتفاظ بالرشاوي المخصصة لقبائل العربان (63).

والواقع أن عديدا من البكوات المماليك الذين تولوا امارة الحج المصري قد رأوا في هذا المنصب، الوسيلة لزيادة ثرواتهم شأنهم في ذلك مع بقية مناصب الدولة، حتى أن بعض من تولى امارة الحج فانه بدلا من القيام بمهمة حمايته كان يتحول الى نهب الحجاج.

مثل على ذلك ماجرى من الامير خليل بك قطامش في موسم عام 1158 (1745م) حيث «منع عوائد العرب وصادر التجار في أموالهم بطريق الحج.. وكانت أولاد خزنته ومماليكه أكثرهم عبيد سود يقفون في حلزونات العقبة ويطلبون من الحجاج دراهم مثل الشحاتين» (64).

---

(61) الجبرتي: مصدر سابق ج2 ص 11

(62) المصدر السابق ج1 ص 592

(63) الماوي مصدر سابق ص 31

(64) الجبرتي: مصدر سابق ج1 ص 258

وقد أدى عدم كفالة الامن للحجاج المغاربة في اطار قافلة الحج المصرية في بعض السنوات الى أكثر من نتيجة.

I ـ تدخل السلاطين المغاربة وتراسلهم مع المسؤولين المصريين، كما حدث عندما كتب مولاي عبد الله في تلك السنة الى «علماء مصر واكابرهم» ينقم عليهم ماحدث في موكب عام 1158 ويساءلهم «كيف ياأمة محمد صلى الله عليه وسلم يهان أو يضام حجاج بيت الله الحرام وزائرو نبينا عليه الصلاة والسلام»! (65).

2ـ انقطاع الموكب الرسمي للحجاج المغاربة في بعض السنوات خاصة تلك التي تلى موسما من المواسم التي عرفت الاضطرابات «وبسببها تأخر الركب هذه السنة» (1159هـ) (66).

غير أنه في نهاية الامر كان هذا الانقطاع بمثابة استثناءات أما العادة فقد جرت على قدوم الركب المغربي كل عام وعلى مصاحبته للقافلة المصرية.

تبقى الاشارة الى أن فئة من الحجاج المغاربة لم تكن تصحب القافلة المصرية وكانت تفضل ركوب البحر من السويس الى موانيء الحجاز وعلى وجه التحديد جدة وينبع.

وكانت هذه الفئة تتكون على الاغلب اما من الحجاج الضعفاء الذين لايقدرون على مواجهة مشاق السفر عبر الصحراء، وإما الحجاج الفقراء اذ يبدو أن تكاليف السفر بحرا كانت اقل بكثير من تكاليف السفر برا . وقد لخص الزياني ذلك بقوله أن من يختار طريق البحر يفعل ذلك « لضعفه » أو قلة ذات يده (67).

ذلك أن السفر في البحر لم يكن يقتضي «السير ليلا ونهارا» كما هو الحال بالنسبة للسفر في البر، كما أن مدة الرحلة كانت أقصر كثيرا من المدة التي تستغرقها القافلة البرية حيث أن السفينة كانت تصل ميناء جدة بعد اقلاعها من السويس بعشرين يوما فقط. أي أن الرحلة عن طريق البحر تستغرق أقل من نصف مدة لرحلة بصحبة القافلة البرية.

---

(65) الجبرتي مصدر سابق جا ص 259.

(66) نفس المصدر والصفحة

(67) الزياني: مصدر سابق ص 214

أضف الى ذلك أن الرحلة البحرية كانت في أغلب الاحوال أكثر أمانا من الرحلة البرية، صحيح أنه كانت هناك المخاطر الناتجة عن الشعاب المرجانية المشهورة في البحر الاحمر (القلزم كما كان يسمى آنئذ) غير أنه كان بالامكان تجنب مثل هذه الاخطار في اغلب الاوقات.

يروي الزياني أيضا كيف كانت سفن الحجاج تتجنب مثل هذه الاخطار في بحر القلزم الذي كانت «لاتسافرفيهالمراكب الا نهارا وعند العصر ترسى بالساحل الى الصباح ثم تسافر لكثرة جزره وأحجاره تحت الماء لاتظهر فيكون في كل مركب رجل عارف وله مرآة ينظر فيها في الماء في مقدمة المركب فاذا رأى الاحجار ينادي لماسك المقود وهو للمركب كاللجام للدابة، يمينك،شمالك، أمام، وله مسمع ثاني وثالث، كل واحد ينادي الاخر وصاحب المقود يدير يمينا وشمالا، فاذا غفل صاحب المرآة وقع المركب» (68).

ولما كانت مدة الرحلة بالبحر أقل منها في البر على النحو السابق والاشارة اليه، فقد كان من الطبيعي أن يتأخر خروج حجاج البحر من القاهرة الى أوائل ذي القعدة، وكانوا ينتقلون منها الى السويس هم وأمتعتهم باكتراء عدد من الخيول والابل.

ويلاحظ أن سفن الحجاج شأنها في ذلك شأن الموكب البري كانت تخرج على هيئة قافلة بحرية يصل عدد سفنها بين الثلاثين والاربعين سفينة، منها السفن الكبيرة التي تحتوي على قمرات وسفن صغيرة كان يستغلها فقراء الحجاج أو كما ذكر الرحالة المغربي الذي سافر داخل هذه القافلة البحرية «.. فخرجنا من المرسى بخمسة وثلاثين جفنا بين كبار وأعزبة (69).

غير أنه بين الذهاب والعودة بكل مايصحبهما من مشاكل أو احتكاكات كان هناك طرف يلعب دورا هاما في تسيير أو تعسير مهمة الحجاج المغاربة، ذلكم كانوا ممثلو السلطة القائمين في القلعة!

---

(68) المصدر السابق ص 215ـ216

(69) المصدر السابق ص 215

السلطات في مصر وركب الحج المغربي:

أثرت نوعية السلطة القائمة في مصر على ركب الحج المغربي سواء في علاقتها به أو في مصير هذا الركب.

وبالامكان رصد أربع مراحل في الفترة موضع الدراسة شهدت كل مرحلة منها سلطة مختلفة في القاهرة وكان لكل منها موقفا من ركب الحج المغربي .

المرحلة الاولى تشمل اغلب الفترة موضع الدراسة التي تمتد بين عامي 1517 (الفتح العثماني للبلاد) و1798 (الغزو الفرنسي)، وهي الفترة التي اصطلح المؤرخون على تسميتها بفترة الحكم العثماني- المملوكي ذلك أنه قد اقتسم الحكم في مصر خلالها، العثمانيون يمثلهم الباشا وعدد من كبار الموظفين بالاضافة الى رجال الفرق التركية السبع والمماليك أو البكوات أو الامراء المصرلية كما كانت تسحبهم الكتابات المعاصرة تمثلهم مجموعة من البيوت الكبار والصغار.

وطالما رجحت الكفة بشكل حاسم الى جانب احدى القوتين فقد كانت قافلة الحج في أمان حيث حرص صاحب السلطة على تأكيد سلطته من خلال قدرته على كفالة مثل هذا الامان.

بدا ذلك على الجانب العثماني طوال القرن السادس عشر وأوائل القرن التالي عندما كان للباشا وأعوانه اليد العليا في ادارة البلاد.

بدا على الجانب المملوكي خلال الفترات القصيرة التي استطاع امير منهم الانفراد بالسلطة، كما حدث في فترة حكم على بك الكبير لمصر (1769-1773) والتي شهدت توجيهه ضربة قوية للعربان في الحجاز.

فيما عدا تلك الفترات، وفي اغلب سنينالحقبة الممتدة بين منتصف القرن السابع عشر وأواخر القرن التالي، فقد احتدمت الصراعات بين أطراف السلطة، سواء بين العثمانيين والمماليك، أو بين رجال الوحاقات العثمانية أو أمراء البيوت المملوكية.

وقد انعكست هذه الصراعات بالسلب على قافلة الحج وعلى الحجاج المغاربة بداخلها وقد تم استعراض بعضها في الصفحات السابقة التي تناولت الحديث عن «الحجاج المغاربة في موكب الحج المصري».

المرحلة الثانية وتشمل السنوات الثلاثة التي احتل الفرنسيون ابانها مصر (1798- 1801). وكان من الطبيعي أن تتوقف قافلة الحج المصرية خلال هذه المرحلة.

وكان من الطبيعي أن يؤدي توقف القافلة المصرية الى نتائج سلبية على ركب الحج المغربي، غير أن هذه النتائج لم تقتصر على ذلك التوقف بل امتدت تاثيراتها الى نواح عديدة تتعلق بهذا الركب.

بدت أول ناحية فيما جرى في أعقاب احداث الفرنسيين بالقاهرة في أوائل شهر صفر عام 1213 (1798)، وذلك بعد خروج قافلة الحج باكثر من شهرين، مما أدى الى هروب الكثيرين من المدينة فتلقفهم العربان والفلاحون ونهبوا مامعهم وكان منه «أمانات وودائع الحجاج من المغاربة والمسافرين فذهب ذلك جميعه» (70).

الناحية السلبية الاخرى تمثلت في احجام أمير الحج المصري عن العودة الى مصر بعد أن احتلها الفرنسيون وتقدم بالحمل الى القدس، وليس هناك مايفيد بمصير الحجاج المغاربة الذين كانوا بصحبة القافلة المصرية ويكاد يكون يقينيا انهم لم يعودوا الى بلادهم عبر الاراضي المصرية.

شهد موسم الحج التالي قدوم ركب الحج المغربي الى مصر، وهو الركب الذي وصل في شهر ذي الحجة عام 1213 (يوليوز 1799) ويطرح هذا الوصول أكثر من احتمال..

الاول: الا يكون ركب الحج المغربي قد بلغته أنباء نزول الفرنسيين بمصر لدى خروجه من فاس في شهر جمادى الاخر، أي بعد دخول الفرنسيين لمصر بنحو ثلاثة شهور- فحسب، وهي مدة غير كافية على الاطلاق في هذا الوقت لبلوغ الاخبار» والرحلة من مصر، الى المغرب ، كما سبقت الاشارة، تستغرق هذه الشهور الثلاثة في الظروف المواتية ومن تم فالحجاج المغاربة يكونون قد أتوا الى مصر دون أن يعلموا بما لحق بها أو على الاقل قطعوا مسافة طويلة من رحلتهم قبل أن يعلموا بذلك، ولما علموا كانوا على مسافة لايستطيعون معها الا اكمال رحلتهم.

---

(70) الجبرتي: المصدر السابق ج2 ص 191

الاحتمال الثاني: أن يكون المسؤولون في ركب الحج المغربي على علم بما جرى في مصر غير أنه لم يدخل في روعهم أن هذا الذي جرى بالضخامة التي تؤدي الى منع المسلمين من تأدية فريضتهم المقدسة وبالتالي ايقاف قافلة الحج المصرية.

الاحتمال الثالث: ان كان هؤلاء المسؤولون على علم وأتوا من هذه القافلة الكبيرة ليس للحج وانما للجهاد.

وقد مال المصريون وقتئذ للاحتمال الاخير كما يقول الجبرتي في يومياته بتاريخ 6 ذي القعدة عام 1213 «وفيه حضرت مغاربة حجاج الى بر الجيزة فتحدث الناس وكثر لغطهم وتقولوا بأنهم عشرون ألفا حضروا لينقذوا مصر من الفرنسيين».

غير أن هذا الاحتمال لايلبث أن يتهاوى : أمام الانكار التام لقائد الركب الذي ذكر للفرنسيين «انا لم نأت الا بقصد الحج.. ولايصح أن نقاتلكم بهذه الشرذمة القليلة وليس معنا الا نصف قنطار من البارود»، وأمام ماحدث من عبور المغاربة للنيل ثم خروجهم من القاهرة في موكبهم تحت حراسة الفرنسيين دون أي صدام بين الطرفين (71).

ولايبقى بعد هذا سوى الاحتمالان الاخران ويرجح الاحتمال الاول لسبب بسيط وهو انقطاع ركب الحج المغربي خلال السنوات الثلاث التالية (1214ـ1216) (1799ـ1801)، وليس من سبب لهذا الانقطاع سوى الاخبار التي كانت قد تأكدت في المغرب عن احتلال الفرنسيين لمصر بما حدث أعقاب خروج الفرنسيين.

ويصل هذا الترجيح الى حد اليقين ، فيما يسجله الجبرتي في يوميات شوال عام 1217 «.. وكان ركب الحجاج في هذه السنة عالما عظيما، وحضر كثير من حجاج المغاربة من البحر (72).

وكانت عودة قدوم المغاربة على هذا النحو الواسع النطاق يعني انهم علموا بخروج الفرنسيين في العام السابق (1216) وتصوروا أن الامور قد عادت الى ماكانت عليه.

---

(71) المصدر السابق ج2 ص 269ـ270

(72) المصدر السابق ج2 ص 550

غير أن هذاالتصور لم يكن صحيحا فقد شهدت الفترة التالية لهذا الخروج (1801ـ1805) اضطرابات هامة على مستوى السلطة المصرية كان من المنطقي أن تنعكس على انتظام قافلة الحج وأمن الحجاج.

تمثلت هذه الاضطرابات بالاساس في الصراعات التي تفجرت بين العثمانيين والمماليك من ناحية ثم بين الفرق العثمانية بعضها وبعض ، كما حدث بين الولاة والارناؤوط من ناحية ثانية، ثم بين البيوت المملوكية بعضها وبعض (البرديس والالفي) منناحية ، اخيرة (73) وقد زاد الأمور اضطرابا تدخل القوى الاوربية، فرنسا وانجلترا، في هذه الصراعات ونصرتها فئة على أخرى.

أما انعكاس مثل هذا الاضطراب على موكب الحج بصفة عامة والحجاج المغاربة على وجه الخصوص تسجله يوميات التاريخ المصري في تلك السنوات..

جاء في جانب من هذه الحوليات فيما يتصل بتحدي الفرق العسكرية على الحجاج مانصه «وصلت مراكب من الديار الحجازية الى السويس وفيها حجاج ومغاربة ولم يصل منهم الا القليل واكثرهم قتله العسكر (74).

جاء من جانب آخر بتاريخ 8 ربيع الثاني 1219 (يوليوز 1803) ماحدث عندما حاول أحد الاطراف المتصارعة الايهام بأنه قد أحرزنصرا على طرف اخر فدخل الى المدينة «وأمامه ثلاثة رؤوس تبين انها رؤوس مغاربة من مقاطيع الحجاج المرضى كانوا مطروحين داخل القاهرة (75) ».

شهدت نفس الفترة أيضا تغيرا على مستوى السلطة في الحجاز حيث نجح الوهابيون الذين كانوا قد هيمنوا على نجد من قبل في الوصول الى الحرمين الشريفين وفرضوا سيطرتهم عليهما.

وفيما يتصل بركب الحجاج المغاربة فالواضح انه كان لهذا التأثير مردود ايجابي.

---

(73) انظرد. محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر ج1

74) الجبرتي: مصدر سابق ج3 ص 16

(75) نفس المصدر والجزء ض 19

بدا ذلك في موسم الحج لعام 1221 (1806)، فقد جاء في يوميات الجبرتي بتاريخ 3 صفر من العام التالي «وصل الحجاج المغاربة الى مصر من طريق البر وأخبروا أنهم حجوا وقضوا مناسكهم وأن مسعود الوهابي وصل الى مكة بجيش كثيف وحج مع الناس بالامن وعدم الضرر ورخاء الاسعار (76) ولاشك أنه قد أسعد الحجاج المغاربة ماقام به الوهابيون من ابطال البدع خاصة «شرب التنباك والنارجيلة» (77).

كما بدا في موسم الحج لعام 1226 (1811)، فقد ذهب حجاج المغاربة الى الاراضي المقدسة عبر مصر في موكب كبير وقضوا مناسكهم «وحجوا وزاروا المدينة واكرمهم الوهابية اكراما زائدا وذهبوا ورجعوا من غير طريق العسكر (78) ».

ويلاحظ أن ركب الحجاج المغاربة قد عاد بعد هذه الحجة عن طريق الشام لاطريق مصر ذلك أنه في اعقاب ذهابهم لتأديتها كانت مصر قد بدأت في ارسال قواتها الى الحجاز للقضاء على الوهابيين وهومااستغرق سبع سنوات حين تم لقوات محمد على عام 1818 احراز النصر النهائي على الوهابيين والاستيلاء على عاصمتهم.

وقد غيرت هذه الاحداث بالاضافة الى ماشهدته مصر ابتداء من هذا العقد الثاني من القرن التاسع عشر من بناء الدولة الحديثة.. غيرت من طبيعة قافلة الحج المصرية وبالتالي طبيعة العلاقة بين ركب الحج المغربي والسلطة المصرية.

فقد ترتب على بناء هذه الدولة تمركز السلطة في أيدي الباشا (محمد علي) بعد ان كانت موزعة بين أطراف عدة، كما حدثت تغييرات هامة على المستوى السياسي العسكري، فمن الناحية السياسية أصبحت الحجاز واقعة بشكل مباشر تحت الحكم المصري بعد القضاء على الوهابيين، ومن الناحية العسكرية أصبح الجيش المصري الحديث، لاشراذم أجناد العثمانيين والمماليك كما كان الحال من قبل، هو المسؤول عن حماية أمن الحجاز وحراسة قافلة الحج ، وهو كان قد نجح في ضرب قوة العربان بشكل يكاد يكون نهائيا، ثم على المستوى الاقتصادي تم الغاء النظام

(76) نفس المصدر والجزء ص 189

(77) نفس المصدر والجزء والصفحة

(78) الجبرتي جـ3 ص 345

الاقطاعي المتمثل في نظام الالتزام بكل ماصحب ذلك من وقف تخصيص واقطاعات بعينها وموارد بذاتها للانفاق على قافلة الحج كما كان الحال من قبل، أهم من ذلك تحول الاقتصاد المصري الى زراعة الحاصلات الانتاجية ودخول مصر الى السوق العالمية المرتبطة بأوربا مما قلل من استمرارها كجزء من السوق العربية الاسلامية كما كان الحال من قبل.

نتج عن كل هذه المعطيات الجديدة تغيرات في العلاقة بين ركب الحج المغربي والسلطات المصرية يمكن رصدها فيما يلي:

1- أدى استقرار السلطة المركزية في القاهرة منذ عام 1805 الى بروز ظاهرة هامة في علاقة الحجاج المغاربة بالركب المصري فقد بدأ السلاطين المغاربة في الاتصال بالحكام المصريين وأخذوا في ارسال ابنائهم لقيادة ركب الحج المغربي المتوجه ضمن قافلة الحج المصرية من القاهرة الى الحرمين الشريفين.

وتتكرر عملية ارسال السلاطين المغاربة لابنائهم الى القاهرة بقصد التوجه للحج ثلاث مرات من أقل من نصف قرن. وقد أتوا جميعا من المغرب الى الاسكندرية بطريق البحر على متن سفن حربية انجليزية، كما أتى كل منهم وبصحبته حاشية كبيرة من أتباعه (79).

وصل أول الابناء وهو «مولاي ابراهيم بن مولاي سليمان» الى القاهرة في أول ذي القعدة عام 1226 (1811).

ويتأكد مدى أهمية السلطة المركزية في القاهرة مما جاء في الكتابات المعاصرة عن اهتمام محمد على «بالركب الفاسي وأميره»، اذ تقول: «اعتنى الباشا بشأنه وأرسل كتخدابك لملاقاته وقدم له تقادم وأعدوا له منزل على كاشف بالقرب من بيت المحروقي لينزل فيه وتقيد بخدمته الرئيس حسن المحروقي وحواشيهم لطبخه وكلف طعامه، فلما عدى طلع الى القلعة وقابل الباشا، ونزل الى المنزل الذي أعده له وأمامه قواسة أتراك وطرادون وأشخاص أتراك يضربون على طبلات وأمامه جميع المغاربة مشاة ويأمرون الناس الجالسين بالحوانيت بالقيام له على أقدامهم فأقام

(79) أنظر ب.ج. روجرز: تاريخ العلاقات الانجليزية- المغربية
ص 179، 209، 222

خمسة ايام حتى قضى أشغاله وفي تلك المدة تغدو اليه وتروح رسل الباشا وأرسل له هدية وذخيرة من كل صنف (80)».

المجموعة الثانية من هؤلاء الابناء ارسلها مولاي عبد الرحمن وتتكون من ابنيه سليمان والرشيد وقد وصلت الى الاسكندرية في غشت عام 1849 مع حاشيتهما التي بلغ عدد أفرادها أربعين شخصا (81).

وقد حمل الاميران هدية ثمينة الى الحاكم المصري، عباس باشا الذي كان قد تولى الحكم في نفس العام، ويقول ابن زيدان أنهما كانا «في ضيافته من يوم حلولهما في ثغر الاسكندرية الى أن رجعا اليها مقربين وقام بكل مايحتاجان اليه من زاد ومركوب حتى وصلا الى مكة ومن مكة الى الاسكندرية» (82).

المجموعة الثالثة أرسلها مولاي عبد الرحمن أيضا، عام 1858، وكان الحاكم المصري انئذ سعيد باشا الذي خلف عباس، وقد تكونت من ثلاثة من أبنائه هذه المرة. غير أن سوء الحظ لازم هذه البعثة اذ توفي أميران من الامراء الثلاثة واحد في مكة والثاني في المدينة بعد اصابتهما بالكوليرا ولم يعد منهم سوى الامير عبد الله. (83).

2- ترتب على هيمنة الدولة بنظامها الجديد وجيشها الحديث على سائر أنحاء «الديار المصرية والحجازية» توفر قدر من الامن لقافلة الحجاج لم يتوفر لها من قبل أبدا.

ولانجد في هذا الشأن شهادة أفضل من شهادة الجبرتي، فهذا المؤرخ رغم عدائه لمحمد على لم يملك سوى أن يعلق على عودة قافلة الحج عام 1234 (1818)، وهو آخر تعليقاته على هذا الموضوع، بقوله أنه قد وصلت «طائفة من

(80) الجبرتي: مصدر سابق ج3 ص 335

(81) ب-ج. روجرز: المصدر السابق ص 209

(82) عبد الرحمن بن زيدان اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس (الرباط 1933) ج5 ص 154

(83) ب-ج. روجرز: المصدر السابق ص 222

الحجاج المغاربة وصحبتهم كثير من الصعائدة وأهل القرى فدخلوا على حين غفلة.. وهذا لم يتفق نظيره فيما وعيناه وسببه أمن الطريق وانكماش العربان وقطاع الطرق». (84).

غير أنه الى جانب هذا المردود الايجابي فقد تمخض عن قيام الدولة الحديثة في مصر خلال القرن التاسع عشر مردودات سلبية على ركب الحج المغربي.

تمثل المردود الاول منها فيما نتج على الصعيد الاقتصادي من ارتباط مصر بالسوق الاقتصادي العالمي واسهامها بقدر أقل في السوق العربي الاسلامي، وقد حدث في المغرب نفس الشيء تقريبا حين دخل أو ادخل الى هذا السوق، فقد استتبع ذلك تقلص حجم التجارة بين البلدين وبالتالي لم يعد هذا العنصر من التجار الذي كان يشكل احدى المجموعات الرئيسية في ركب الحج الفاسي.. لم يعد موجودا بنفس الحجم الذي كان موجودا به من قبل بل أخذ في التقلص مع الزمن مما كان لابد أن يخلف أثرا سلبيا على حجم الركب ونوعيته.

المردود الثاني: نتج عن انقطاع الطريق البري بين مصر والحجاز وذلك بعد اتمام حفر قناة السويس وافتتاحها للملاحة عام 1869، وقد استتبع هذا توقف ذهاب قافلة الحج المصرية بالشكل الذي كانت تذهب به من قبل ولم يعد أمام الحجاج سوى طريق البحر حيث يقلعون من السويس متوجهين رأسا الى جدة. وقد تقلص بهذا دور مصر بالنسبة لركب الحج المغربي اذ تحولت الى مجرد منطقة عبور الى الاراضي المقدسة بعد أن كانت نقطة الانطلاق اليها.

(84) الجبرتي: مصدر سابق ج3 ص 581

الفصل الثالث

مصر فى كتابات الرحالة المغاربة

اشهر الرحلات المغربية لمصر في العصر الحديث
الوزان ومصر فى القرن السادس عشر
مصر في كتابات العياشى فى القرن السابع عشر
الزياني فى مصر القرن الثامن عشر

مصر فى كتابات الرحالة المغاربة

من أهم المصادر شهادة على علاقات المغرب بمصر كتب الرحلات ، فهي بمثابة الرابط الحي الذي يؤكد على ديمومة العلاقات بين البلدين.

ويلاحظ الدارس لهذا النوع من المصادر أول ما يلاحظ تعدد هذه الرحلات وتنوع اغراضها.

بيد أنه ينبغي قبل التعرض بالدراسة لهذه الرحلات الاشارة الى أنه لم يتم العثور بالمقابل على رحلات قام بها مصريون الى المغرب (1) ، وتتعدد أسباب ذلك :

فمن ناحية لم تكن هناك تلك الدوافع الملحة (الحج ـ التجارة ـ الظروف السياسية) التي دفعت المغاربة للذهاب الى المشرق والمرور بمصر او الاستقرار بها.

ومن ناحية أخرى فان المجتمع المصري الزراعي غير المجتمع المغربي الذي يغلب على بعض مناطقه الاستغال بالتجارة مما أصبح التنقل معه جزءا من تقاليده ومما كان بالامكان معه افراز مثل هذه الظاهرة .. ظاهرة الرحالة على عكس الحال بالنسبة للمجتمع الاول (المصري) .

كان السبب الأساسي لاهتمام المغاربة بالرحيل الى المشرق بعد الديار المغربية عن بيت الله الحرام وعن المشرق عموما مهد الحضارة العربية ومهبط الوحي، فكان كل من قصد البلاد الحجازية لأداء فريضة الحج يزور في طريقه عددا من البقاع والمناطق ويتوقف عند بعضها إما اضطرارا وإما رغبة في ذلك .

---

(1) أحصى المقرى زهاء ثلاثمائة من المغاربة ممن رحلوا الى المشرقولكن لم يجد أكثر من واحد وسبعين تحقق فيهم العكس

وقد كان الأدباء والعلماء المغاربة المتوجهون الى الشرق يشعرون بوجوب اطلاع مواطنيهم على ما يجري في تلك البقاع من أحداث وما يدرس من علوم . ويعرفونهم بما احتوت عليه من آثار الصحابة والعلماء والمشاهد الشهيرة ، مع وصف كامل للطرق المؤدية اليها برا وبحرا.

وإذ يجتمع رحالة المغرب الذين زاروا مصر في العصر الحديث على عدد من المعطيات والظواهر فان كلا منهم بحكم تكوينه واتجاهه العلمي أو الأدبي وبحكم سبب زيارته الديار المصرية يقدم معلومات مختلفة عن العلاقات بين البلدين.

ويعتبر التغرب من أجل طلب العلم ولقاء المشايخ الكبار وزيارة الجوامع الشهيرة سببًا لأهم الرحلات ، فعند رجوع طالب العلم وقد حصل على علم غزير يكتب في الغالب مؤلفا هو أقرب الى الفهرس منه الى الرحلة ولكن المفيد هنا هو أنه يسجل لنا أسماء الشيوخ الذين اخذ عنهم والأدباء الذين لقيهمكمايثبت في مؤلفه هذا الإجازات التي حصل عليها مدة دراسته ويصف كل ما شاهده في أسفاره من متاعب ونوادر.

وإذا كانت قائمة رجال العلم والأدب الذين رحلوا الى الشرق ونزلوا الديار المصرية في العصر الحديث للأسباب التي سبق ذكرها لاتكاد تحصى إذ قليلا ما نقف على ترجمة شهير من علماء المغرب لايشار فيها الى أن له رحلة فإنه سيقتصر الاختيار هنا على أولئك الرحالة الذين عاشوا في العصر الحديث وزاروا الديار المصرية ثم سجلوا في رحلتهم ما يمدنا بالمعلومات الضرورية عن الحياة في مصر والروابط القائمة بين البلدين خلال حقبة من حقب التاريخ الحديث .

ولابد هنا من تسجيل عدد من الملاحظات :

أولها : أن نقف بحذر كبير مما يقدمه هؤلاء الرحالة. عمومًا، لأن غالبيتهم اعتمدوا، إن لم نقل نسخوا، رحلاتهم على منوال من سبقهم منالرحالة المغاربة إلى الشرق عامة والى مصر خاصة.

وتعتبر رحلة « ابى بكر بن العربي الاشبيلي » ـ توفي 543هـ (1148) ـ من أقدم هذه الرحلات ذلك انها أصبحت مصدرا لاغلبية الرحالاتاللاحقة لها. فيرحلة الوزير ابن جبير- توفي 614هـ (1217)م- ، ورحلة عبد الله بن رشيدالنوشريسي

ورحلة ابن رشيد السبتي، ورحلة ابن جابر جاءت كلها متشابهةومتقاربة في أسلوبها ومحتواها رغم تباعد عهد أصحابها واختلاف الظروف التي كتبوا فيها رحلاتهم.

وقد نجد نفس التشابه بين رحلة « الحافظ التجيبي التلمساني » ورحلة « العبدري » دفين حاحة ورحلة « التيجاني ».

أما رحلة « ابن بطوطة » فتعتبرنموذجا في حد ذاتها حيث أخذ عنها « البلوى » في رحلته ، ومع ان هاتين الرحلتين الاخيرتين لاتدخلان في فترة الدراسة فانه ربما يكون من المفيد اعطاء نظرة سريعة على ما تقدمه كل منهما حول مصر.

وقد تمكن المقارنة بين الرحلتين من الوقوف على ما كانت عليه مصر عبر كتب الرحلات في أواخر العصور الوسطى ، وبالتالي على نمط يرجع اليه لمقارنته مع معطيات كتب الرحلات الحديثة.

ان حديث « ابن بطوطة » عن مصر اقتصر ، وهو ما فعله البلوى من بعده وكذلك العياشي والزياني فيما بعد .. اقتصر على وصف سريع لمنار الاسكندرية ولعمود سواريها ، لقد ذكر ابن بطوطة بالخراب الذي أصاب الاسكندرية عند زيارته الثانية لها (750هـ ـ 1349م) ، كما سجل أسماء العلماء الذين لقيهم مثل شمس الدين الاصبهاني..وهونفس ما فعله البلوى حيث تعرض لتسجيل أسماء كلالعلماء الذين أخذ عنهم، وقد اتفق الرجلانعلىانهما وجدا مصر « في أمن أمين ».

ولعل تسجيل المعلومات المتشابهة عند الرحاليتن تفيد في معرفة عدد من الظواهر الاجتماعية في مصر لدى زيارتهما لها.. اذا كان « ابن بطوطة » يحصي عدد السفائين بالقاهرة (12 ألفا) ويظهر بذلك أهمية هذه الفئة المهنية في فترة زيارته فان «البلوى » يقدم عددا أكبر (60 ألفا) (2) ويدخل في هذا الاحصاء القائين بالأكواب والأكواز في الطرق والأسواق. وقد اخبر البلوى « من يثق به » أنهم أحصوا

---

(2) يسجلفرنسيسكو فالدىFransico Valdiالذي زار مصر عام 1384(أي بعد نحو ستين سنة من رحلة ابن بطولة) وفرة هذه المراكب قائلا « لو جمعت المراكب التي شاهدها في جنوة والبندقية وانكونا بصرف النظر عن المراكب ذات القنطرتين لما بلغت ثلث عدد المراكب التي شاهدتها بمصر »

انظر خالد البلوى : تاج المفرق من تحلية علماء المشرق »

تحقيق الحسن السائح (فاس 1970) ص 51

المراكب المعدة لدى الزرع فألفوها تنوف على 100 ألف مركب ما عدا الزوارق الصغار التي تستعمل للصيد والركوب وغير ذلك، بينما لم يعد منها « ابن بطوطة » الا 36 الف (3).

ويظهر من كل هذا ان التشابه بين هاتين الرحلتين يظهر في اتباع نموذج واحد في الوصف وتقديم المعلومات وان لم يمس المضمون لان الارقام التي قدمها البلوي ليست هي التي ذكرها قبله ابن بطوطة.

ثاني هذه الملاحظات : أن جل الرحلات التي سيعتمد عليها من نوع «الرحلات الحجازية » وقد تفوق المغاربة في هذا النوع ، ومنها على سبيل المثال « رحلة الحسن بن حبيب » الذي تجول في أنحاء العالم الشرقي الاسلامي وقدممعلومات كثيرة حول مدن هذه المنطقة وحول الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عصره.

وقد اشتهر في هذا النوع من الرحلات « ابو الحسن الوزان » صاحب وصف افريقيا والذي عاش في بداية العصر ، اي في الربع الأول من القرن السادس عشر ويقدم هذا الكاتب معلوماتضافية عن الحياة بمصر عموما، باديتها وحاضرتها ، ويعتبر هذا الكتاب أساسًا لعدد من الدراساتالتي تتناول بالبحث افريقيا عموما، والمغرب ومصر على وجه الخصوص وسنعتمد وصفه كأساس للوقوف على الظروف التي عاشتها مصر في بداية العصر الحديث حسب المنظور المغربي.

مثل ثالث لهذا النوع من الرحلات يتجسد فيما جاء به صاحب « روضة الاس » في كتابه « نفح الطيب »، لقد عاش المقرى في مصر ، على خلاف الرحالة المغاربة، مدة طويلة وعايش ظواهر اقتصادية واجتماعية وسياسية تجعل منه شاهدا مغربيا لما عرفته مصر خلال القرن السابع عشر.

ومع ان هذا النوع من الرحلات الحجازية كتبه اصحابه للاشادة بالبيت الحرام ووصف الطرق المؤدية اليه غير انها تقدم مادة كافية للوقوف على حالة مصر في مطلع العصور الحديثة.

الملاحظة الثالثة : تكمن في ضعف عدد الرحلات الى المشرق وبالتالي قلة كتب الرحلات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بسبب دعوة العلماء الى الجهاد وايثاره على الحج (4).

---

(3) نفس المصدر والصفحة

وقد نتجت هذه الدعوة عن الوضعية التي كان يواجهها المغرب إبان هذين القرنين نتيجة لتزايد حدة الهجمة الاستعمارية عليه وانشغاله الذود عن كيانه.

ولا تعني الاشارة الى عدد محدود للرحلات ان الأمر قد اقتصر عليها عدم أهمية سائر الرحلات، فالقائمة طويلة بدءا برحلة حسن الوزان (5) وتثنية برحلة التامگروتي « النفحة المسكية في أخبار السفارة التركية » (6) بالاضافة الى رحلة القيسي السراج المراكشي ورحلة العياشي (7) المشهورة وكذلك رحلات احمد الناصري ثم الزياني الذي يليه عبد المجيد الزبادي (8) فالتاودي بن سوده (9) ثم رحلة محمد عبد الكبير الكتاني يتبعها رحلة محمد العربي المشرفي المسماة « بالرحلة العريضة لاداء الفريضة » وكذلك رحلة عبد السلام الوزاني ورحلة الطيب بنكيران وغيرها. (10)

وانطلاقا من الملاحظات الثلاثة السابقة يمكن ترتيب المعلومات التي تقدمها لنا تلك الرحلات على النحو الاتي :

1) رحلة القرن السادس عشر من توصيف الحسن الوزان.

2) ونعتمد على العياشي في توصيفه لمصر خلال القرن التالي (السابع عشر)

3) اما اوضاع مصر عند الرحالة المغاربة في القرن الثامن عشر نستمدها من رحلة الزياني .

ومن المفيد التعريف بهذه الرحلات وغيرها قبل استخدامها.

---

(4) أنظر الفصل الثاني

(5) Léon l'Africain - **Description** de l'Afrique - (Epaulard) 1956

(6) أنظر ماقاله عنه ابن عسكر في دوحة الناشر طبعة 1976 ص 28 ـ 30

(7) العياشي : مصدر سبق ذكره

(8) عنوانها « بلوغ المرام بالرحلة الى بيت الله الحرام »

(9) توفي عام 1209هـ (1795) بفاس ـ قام برحلته الى الحجاز 1777

انظر د. محمد الأخضر : الحياة الادبية في المغرب على عهد الدولة العلوية ص 322

(10) المسماة بالرحلة الفاسية ـ انظر الأخضر : مصدر سابق ص 345

أشهر الرحلات المغربية في العصر الحديث :

بالاضافة الى الرحلات الثلاثة التي سبقت الاشارة اليها فهناك رحلات اخرى شهيرة ينبغي التعريف بها قبل استعراض محتوى ما جاء في الرحلات التي تم اختيارها.

بالنسبة للقرن السادس عشر كانت اشهر الرحلات المغربية الى الشرق هما رحلة الحسن الوزان ورحلة التامگروتي .

يعتبر «الحسن بن محمد الوزان » (11) من اشهر الرحالة المغاربة الذين ارتحلوا عبر العديد من الامصار والذين دونوا ما وقعت عليه عيونهم . ويصدر الاهتمام بالوزان لسببين ...أولهما : أنه تفرد بزيارة مصر في فترة معينة لم يشاركه في زيارتها أحد من الرحالة المغاربة على حد ما هو معلوم . ثانيهما : أنه وصف مصر بكيفية ادق مما وصفها به جل الرحالة الذين جاءوا بعده.

ولم يأت كتاب الوزان « وصف افريقيا » على الشكل التقليدي للرحلات التي يصفاصحابها الطرق البحرية منها والبرية بل جاء كتابه بوصف مضبوط على نحو ما ينجزه الجغرافيون حاليا او قريبا منه ،فهو قد قسم البلد الموصوفالىمناطق حسب طبيعة كل منطقة ذلك أنه فرق بين الريف والصعيد والبحرية (12).

والحقيقة أن وصفا مثل هذا لايمكن ان يقدمه رجل زار البلاد على عجل بل هو عمل رجل زار جل المناطقعلى مهل وتحادث مع أهلها ، وربما سجل عددا من المذكرات .

لقد قام الوزان بثلاث رحلات الى مصر واستطاع بذلك أن يقدم للباحثين وصفا دقيقا للاوضاع السياسية بها في ظل حكم المماليك . وهو يذكر أنه زارها عند فتح السلطان سليم لها وأن زيارته تلكصادفتخروجهذاالسلطانمنالاسكندرية ولعل فترة زيارته تلك كانت بين عامى 1515 و 1517. كما يظهر انه زار مصر على اثر عودتهاوفي طريقه الى استنبول (13).

---

(11) د. شوقي عطا الله الجمل : الحسن بن محمد الوزان ــ مجلة المناهل عدد 2 ص 236 ــ 286

(12) Description de l'Afrique op. cit. p. 490

(13) د. شوقي الجمل : المرجع السابق . ص 246

اما « على بن محمد التامگروتي » (14) (توفي عام 1003 هـ ـ 1595 م) . فتفيد رحلته من حيث الملابسات والظروف التي أحاطت بالسفارة التي شارك فيها والتي قصدت الشرق في عهد المنصور الذهبي . وتعطي هذه الرحلة معلومات عن أحوال البلاد التي زارها.

والحقيقة ان التامكروتي لم يزر مصر ولكنه مر بالبلاد المجاورة وهو يقدم بذلك ايضاحات هامة عن الاوضاع السياسية في البلاد المجاورة لمصر وكيف كان العثمانيون يواجهون الاضطرابات في ولاياتهم وهو يمكن القارئ بذلك من قياس ما كان يقع بمصر مع ما كان يقع في تلك الايالات وهو يقدم كل ذلك يفعله من منظور مغربي .

وفيما يتصل برحالة القرن السابع عشر يعتبر المقرى والعياشي، الممثلان الأساسيان لهؤلاء..

أما « شهاب الذين أحمد المقرى » في كتابه « نفح الطيب » ، يقدم اشارات هامة عن المجتمع المصري في بداية القرن السابع عشر.

وقد دخل « ابو العباس المقري » (15) القاهرة عام 1027 (1617) بعد رحيله من المغرب وقضى بمصر أربع عشرة سنة ، ويعتبر كتابه من أوثق المصادر التي اعتمد عليها المشارقة للتعرف على المغرب وخاصة على الاندلس .

غير أنه لايجب أن ينظر « لنفح الطيب » باعتباره من كتب الرحلات التقليدية ذلك أنه اقرب الى تعريف بعلماء الغرب (الاندلس) للاوساط العلمية المصرية.

ويختلف الأمر بالنسبة « لابى سالم العياشي » (16) صاحب «الرحلةالكبرى » أو « ماء الموائد » حيث أنها عبارة عن وصف دقيق للطريق الذي يسلكه موكب الحج والذي كان العياشي ضمنه .

وقد عمد صاحب « ماء الموائد » الى تقديم استطرادات طويلة ومتنوعة تمكن القارئ من الوقوف على الواقع الاجتماعي والاقتصادي والعلمي لمصر خلال الفترة التي قام فيها برحلته.

---

(14) رحلته هي « النفحة المسكية في أخبار السفار التركية
انظر محمد حجي : مصدر سابق جـ 2 ص 548

(15) محمد عبد الغني حسن : المقرى صاحب نفح الطيب اعلام العرب القاهرة غير مؤرخة

(16) ابو سالم العياشي : الرحلة الكبرى (عاش بين 1037 و 1090هـ 1628 ـ 1629)

أما فيما يتعلق بالقرنين الثامن عشر والتاسع عشر فمن بين الرحلات التي قام بها مغاربة الى مصر نختار ثلاثة ..هي على تواليها رحلة محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي ورحلة التاودي بن سودة ورحلة الزياني.

الرحلة الاولى (17) تتميز بأنها لاتنقل عن باقي الرحلات بل انها في بعض الاحيان تنقدها (18) فقد نقد صاحبها ما جاء به العبدرى حول أهل مصر من أوصاف وصحح مقولته.

والمعروف عن الدرعي أنه توجه الى الحج ومر على مصر مرتين .. أولاهما عام 1196هـ (1781م) وكتب على اثرها رحلة اسماها « الرحلةالكبرى » (19) والثانية عام 1211 (1791م) وكتب عند رجوعه منها « الرحلة الصغرى » وقد عهد اليه المولى سليمان (20) في السفرتين بمبالغ مالية طائلة يوزعها على العلماء والشرفاء بمصر والحرمين الشريفين وقد فصل في الحديث عن رحلته القول عن علماء مصر (21).

أما الرحلة الثانية (22) التي كتبها « التاودى بن سودة (23) فهي معاصرة للرحلة السابقة وتكمن فائدتها في أن صاحبها جالس عددا من العلماء بمصر وناقشهم في الحديث والمذاهب حيث يقول (24) .

« لما من الله على العبد بالرحلة لأرض الحجاز ، ... ونزل أرض مصر لقي من علمائها وفقهائها من يشار اليه بالنبل في العصر ، فطفحت نفوس طائفة لها بالعلم

---

(17) توفي صاحبها عام 1239 هـ (1824)

(18) انظر ماقاله عن العياشي خاصة في موضوع بسكرة
الاخضر : مرجع سابق ص 373

(19) وهي مخطوطة بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 5658 بخط المؤلف

(20) المولى سليمان 1206 ـ 1238هـ (1792 ـ 1823)

(21) انظر محمد الاخضر مرجع سابق ص 375

(22) الرحلة مفقودة ولا يوجد سوى فقرات منها في كتب معاصرة مثل فهرس الفهارس لعبد الله الكتاني

(23) انظر ليفي بروفنسال : مورخو الشرفاء ص 332 ـ 334

(24) الكتاني : فهرس الفهارس ج 1 ص 188

اعتناء ، في الاخذ عنمشايخالغرب رغباء أن أقرأ لهم من كتب الحديث ما يثير، وان كنت في الحقيقة على جناح سفر، فأجمع الامر على قراءة الموطأ بالجامع الازهر،ولما فتحناه وجرى في الدرس ذكر من اخذناه عنه أو رويناه، وقع ذلك من السامعين موقعا وكأنهم يقولون لانجد لهم سمعا ولا مرجعا. فطلبوا منى ان اقيد لهم سندى في ذلك وأن أصل حبلهم ورابطتهم من جهتي بالإمام مالك مع سندى الصحيحين وذكر نبذة من مشايخي ممن شهد له او اشتهر وعلم ...»

الرحلة الثالثة التي كتبها الزيانى (25) هي خلاصة رحلات ثلاثة قام بها ابو القاسم الى بلدان بعيدة ...كانت الأولى لأداء فريضة الحج مع والديه عام 1169هـ (1755م) على عهد مولاي عبد الله، وقام بالثانية عام 1200هـ (1785م) على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله في سفارة ارسلها الاخير الى السلطان العثماني عبد الحميد الأول في اسنبول ، وكانت اخر الرحلات عام 1206 هـ (1791) في عهد السلطان مولاى سليمان.

وقد عنى صاحب الرحلة من بين ما عنى به في كتابه «الترجمانةالكبرى»بما شاهده في مصر وهو كثير من آثار مدنية ومن علماء وفقهاء ومساجد وأضرحة ومن حياة اجتماعية واقتصادية.

ولاغرابة في ان يعرف الزياني الكثير عن مصر والمصريين فهو قد عايشهم بحكم زياراته المتعددة الى مصر وممارسته فيهاالتجارة (26) وقد تعرف فيها ببعض المغاربة.

ويحمل كتابه المطبوع عنوان « الترجمانة الكبرى »(27) وان كان ذلك لايعني انه كتابه الوحيد اذ لديه كتب اخرى منها «الترجمانالمعرب» (28) ومنها « اباحه الأدباء والنحاة للجمع بين الاخوات الثلاث » وقد جمع في هذا الكتاب الاخير ما عاينه في رحلته الثالثة.

---

(25) ولد ابو القاسم الزياني عام 1147هـ (1734) بمدينة فاس توفي 1249 (1833)

(26) الترجمانه الكبرى ص 59

(27) حققه وعلق عليه عبد الكريم الفيلالي ؛ المحمدية 1967)

(28) يوجد مخطوطا بالخزانة العامة بالرباط - دار الوثائق تحت رقم 53252

ويستطيع المتتبع لأخبار مصر في كتب الرحلات المغربية الوقوف على صورة الحياة المصرية في العصر الحديث، وبالرغم من قلة المعلومات السياسية التي تضمنتها هذه الكتب غير انها بالمقابل تقدم معطيات اقتصادية واجتماعية عن بلاد مصر قلما توجد حتى في المصادر المصرية المعاصرة للفترة.

ولعل ما يقدمه ابو الحسن الوزان عن مصر في بداية العصر الحديث يغنينا عما تقدمه مصادر اخرى معاصرة لنفس هذا الرحالة.

الوزان ومصر القرن السادس عشر :

يعرفنا الوزان بمصر مفصلا الحديث في كل المواضيع، ففي المقدمة يقسم اقليم مصر الى ثلاثة اقسام الريف والصعيد والبحرية كما سبق الذكر.

ويلخص الرجل امكانيات مصر الاقتصادية بأن البلاد عبارة عن سهل خصب يصلح لزراعة الحبوب والخضروات وهي تتوفر على مراع جيدة للمواشي وكميات لا تحصى من الدجاج والوز.

والصعيد فيما سجله الوزان ينتج الحبوب والخضروات والمواشي والدواجن والصوف أما الريف فهو غنى بالفواكه والأرز، والبحرية غنية بالقطن والسكر وبعض الفواكه (29).

وقد أشار الوزان في نفس المقدمة الى اللون الاسمر لبشرة سكان الارياف وان كان قد لاحظ ان سكان المدن أقل سمرة.

أما لباس سكان مصر فيما لاحظه أبو الحسن فهو لباس ضيق ومخيط عند الصدر ومنفتح حتى الرجلين واكمامه ضيقة وهم يضعون على رؤوسهم عمامة كبيرة كثيرة الثنايا، أما احديتهم فهي عبارة عن نعال قديمة وقليل منهم الذين يلبسون الحذاء (30) وهم يلبسون في الصيف قماشا من القطن مخطط وملون أما في فصل الشتاء فيلبسون قماشا محشوا بالقطن ، اما التجار والاغنياء فهم يلبسون اقمشة مستوردة من أوربا.

---

(29) Léon - op. cit T.I. p. 490

(30) Ibid p. 490

ويضيف الوزان ..« إن المصريين أناس صالحون ولطفاء أو على الأصح كرماء، أنهم يستعملون كثيرا من الحليب والجبن الطرى في تغذيتهم وقد يستهلكون كثيرا من الجبن المحمض ويكثرون من الملح في جبنهم وان الزائر غير المعتاد على هذاالنوع من الطعام لايجدد مستساغا » (31) .

وفي نفس المقدمة يشير الرحالة المغربي الى ان سكان الريف والبحرية اكثر تحضرا من سكان الصعيد بحكم موقعها القريب من البحر ولأن الكثير من الآجانب القادمين من بلاد البربر وأوربا وسوريا يترددون كثيرا على هذين الاقليمين.

وفيما نلاحظ فان جميع الرحالة المغاربة الذين اتجهوا الى مصر قد مروا على تلك الاقاليم وسجلوا اوصافها.

ويبدو في استعراض الوزان للمدن المصرية جانبان :

الأول :اقتصار وصفه على مجموعة محدودة من المدن مثل:

- مدينة أبو صير وهي كما أشار مدينة مهجورة يعتريها الخراب تقع على بعد 20 ميلا غرب الاسكندرية.

- مدينة الاسكندرية ويخصص لها حيزا ملحوظا في كتابه يقدم فيه معلومات متنوعة يمكن تصنيفها الى معلومات اجتماعية واخرى اقتصادية.

ويمكن تلخيص ما جاء في وصف الوزان للاسكندرية من مظاهر اجتماعية في الظواهر التالية ..

فهو يذكر الديانات التي يعتنقها سكان هذه المدينة ويتطرق الى وصف البنايات الدينية ، فالى جانب الاسلام لازال يوجد بهذه المدينة، على حد قوله عدد كبير من المسحيين من أصحاب المذهب اليعقوبي ولهم كنيسة خاصة بهم اعيد بناؤها في عدد من المناسبات،وقد وجدها الوزان عند زيارته وقدم وصفا لها.

ويسجل ابو الحسن أن دفين تلك الكنيسة هو مرقص الانجيلي وكانت جثته قد نقلتها خفية عام 829هـ (1425) مجموعة من التجار البنادقة الى مدينتهم ، وأشار الوزان ايضا الى « منزل صغير وسط المدينة يحتوى على قبر مقدس» (32)

---

(31) Ibid p. 490

(32) Ibid p. 498

يحترمه المسلمون وهو مضاء ليلا ونهارا ويشاع انه قبر الاسكندر الاكبر ، وقد ذكر الرحالة المغربي ان زواره كثيرون وهم من السكان المحليين ومن الاجانب الذين كانوا يتركون به مبالغ كبيرة على شكل صدقات .

وتدور المعلومات الاقتصادية الخاصة بالاسكندرية التي قدمها ابوالحسن حول نقطة واحدة، وهي حاجة المدينة الى اقامة علاقات تجارية مع غيرها من المدن والبقاع لانها « تقع في وسط صحراء من الرمال وهي لاتتوفر على اراضي زراعية ولا على كروم او حدائق، ويجلب اليها القمح من مناطق على بعد اربعين ميلا » (33) .

غير ان الوزان يشير الى وجود قناة تأتي بمياه النيل لبعض البساتين صغيرة الحجم، وقد لاحظ ان انتاج هذه البساتين غير صحي لما يسببه من أمراض لآكليها.

ولعل هذا يفسر اهتمام سكان الاسكندرية بالتجارة اكثر من غيرها ومن بينهم اليعقوبيين الذين يمارسون التجارة والحرف ويدفعون لحاكم القاهرة جزية سنوية .

والحقيقة ان شكل المدينة المربع ، كما لاحظه الوزان ، قد فرضته وضعيتها الاقتصادية والطبيعية فهي مفتوحة على أربع جهات ، باب على كل جهة، الاول الى الشرق في اتجاه النيل والثاني الى الجنوب في اتجاه البحيرة والثالث الى الغرب في اتجاه صحراء برقة والاخير الى الشمال في اتجاه البحر وفيه يوجد الميناء.

ويضيف الوزان أن هذه الأبواب محروسة ليل نهار ومراقبة من طرف رجال الجمارك « الذين يفتشون الناس بطريقة دقيقة لأن ادارة الجمارك في الاسكندرية تعتبر الدنانير بمثابة سلعة » (34) .

وفي نطاق التعريف بالدور التجاري للاسكندرية يقدم ابو الحسن للقارئ معلومات هامة حول موانئ المدينة ، ويذكر ان لها ميناءين .. الأول هو ميناء الشمال باتجاه البحر وهو محدود الاهمية ، والثاني يدعى مرسى البرج وترسو به احسن السفن وأكثرها أهمية، على حد تعبير الوزان، ومنها سفن تجار البندقية وجنوة وسفن اوربية اخرى مثل سفن انجلترا والبرتغال « ومن مختلف مواطن اوربا » (35)

(33) Ibid p. 497
(34) Ibid p. 498
(35) Ibid p. 497

وقد لاحظ الرحالة المغربي اثناء تواجده أنأكثرالسفنزيارةللاسكندرية كانت سفن المدن الايطالية وسفن صقلية على وجه الخصوص بالاضافة الى السفن اليونانية.
ويرجع ابو الحسن استخدام تلك السفن لميناء الاسكندريةالأحتماءمن القراصنة
أما الميناء الثالث ويدعى ميناء السلسلة فترسو فيه السفن القادمة من بلاد البربر وجربة ومن أماكن اخرى.

وتظهر الأهمية التي تعطيها سلطات الاسكندرية لهذه الموانئ من بنائها لبرج لمراقبة السفن التي تمر على ساحلها وكان الموظف الذي يتولى هذه المراقبة يحصل علىمكافأة معينةعلى كل سفينة يبلغ بها الى موظفي الجمارك « واذا ترك عمله أو نام او ذهب ليتجول وحدث في هذا الوقت أنوصلت بعض السفن الى الميناء بدون ان يبلغ ذلك الى موظفى الجمارك فإنه يعاقب بدفع غرامة تصل الى ضعف المكافأةوهي غرامة تدفع الى بيت مال السلطان » (36).

مدينة ابو قير (37) وعمارة هذه المدينة ، كما شاهدها ابو الحسن ، قليلة وسكانها فقراء.ومعنى تسجيل الوزان لخبر ابو قير دون غيرها من مدن اكبر منها انها قد وقعت في طريق رحلته.

مدينة رشيد (38) ، وهي قريبة من الاسكندرية ، وقد اعتبرها صاحب الرحلة ضاحية من ضواحي هذه المدينة حتى لاحظ ان كراء الدواب للذهاب الى الاسكندرية كان شيئا شائعا بها.

وكعادة الوزان فهو يقدم معلومات عن هذه الدواب قائلا « هذه الحيوانات سريعة الى درجة انها تقطع مسافة اربعين ميلا ما بين الصباح وصلاة العصر باتباعها شاطيء البحر » كما يقدم معلومات اخرى عما يتوافر في هذه المدينة من أسواق مكتظة بالصناع والتجار وميناء «أمام الضريح وكثير من المعامل التيكانت تقوم بضرب الارز بادوات من الخشب ».

---

(36) Ibid p. 497

(37) Ibid p. 498

(38) Ibid pp. 498-99

ويسجل الوزان كعادته أيضا وصفا للاضرحة في المدينة فيتحدث عن ضريح جميلحسنالمظهر تطل بعض ابوابه على السوق والبعض الآخر على النهر ، ويظهر هنا الطابع المغربي للرحالة الذي لاينسى ابدا ذكر الاضرحة والمشايخ لانه تركها في المغرب تلعب دورا هاما في الحياة الدينية والسياسية.

وقبل ان يتطرق ابو الحسن الى وصفشاملوكامل لمدينة القاهرة يقدم للقارئ بعض المعلومات حول مدن تبقى اهميتها مرتبطة بالعاصمة لمابينها وبين تلك المدن من علاقة اقتصادية وثيقة.

فهناك مدينة برنبال (39) وقد اشتهر سكانها بضرب الارز ويقول الوزان ان لابناء هذه المدنية أصولا بربرية.

وهناك مدينة فوة (40) التي لاحظ اكتظاظها السكاني واعتمادها على الفلاحة وشهرتها في زراعة قصب السكر والقمح والنخيل، وهي ترتبط بباقي الاقاليم المصرية لشهرتها ببيع العسل.

أما المحلة (41) فهو اسم لاحظ الوزان اطلاقه على كثير من القرى او المدن المصريةويرتبط معناه بمفهوم عسكري.

وتبقى مدينة ديروط (42) التي اشتهرت بصناعة السكر . ويذكر الوزان ان عددا كبيرا من العمال يشتغلوم بهذه الصناعة، ويعود من جديد ليذكر «بالضريح الجميل » الموجود في المدينة.

وترتبط كل هذه المدن الصغيرة باحدى المدينتين الكبيرتين القاهرة او الاسكندرية ، ويظهر ذلك من وصف « ابي الحسن » عند تعرضه لامكانياتها الاقتصادية والبشرية.

أما ما سجله الوزان عن « القاهرة » بالامكان ترتيبه على النحو التالي

---

(39) Ibid p. 500

(40) Ibid p. 501

(41) Ibid pp. 501-502

(42) Ibid p. 502

أولا : معلومات عامة، اقتصادية واجتماعية.

ثانيا : معلومات مختلفة عن كل حي من أحيائها ، باب زويله، باب اللوق، بولاق ومصر العتيقة.

فيما يرجع للمعلومات العامة يمكن تفصيلها على الوجه الآتى : معلومات حول أصل السكان وعددهم، معلومات حول المساجد والمستشفيات، معلومات حول الاسواق، واخيرا معلومات حول عادات سكان القاهرة

ويظهر أن ما يقدمه الوزان حول العادات اغزر مما يسجله حول الموضوعات الاخرى مما يدل على استقرار صاحب الرحلة لمدة سمحت له بملاحظة هذه العادات

غير ان ما يقدمه « ابو الحسن » في موضوع السكان (أصلهم وعددهم) قليل حيث اقتصر على الاشارة الى عدد هؤلاء البالغ ثمانية آلاف عائلة وان اصلهم متنوع ومختلف (43).

أما ما يسجله حول المساجد فقد جاء فيه ذكر للجامع الازهر (44) ونعدد من المدارس التي تقع على الطريق المؤدية من باب النصر الى باب زويلة ويشير إلى اتساعها وزخرفتها ، كما توجد في نفس المنطقة مساجد « فسيحة وجميلة » (45) ومن بينها جامع الحسين وجوامع أخرى.

وقد يرجع الوزان الى ذكر مساجد اخرى عند وصفه للقاهرة العتيقة (46) مثل جامع عمرو.

اما ما يسجله عن المستشفيات في القاهرة فيمكن تلخيصه من اشارته للمستشفى الذي قام ببنائه السلطان المملوكي بيبرس (47) ، وكان يستقبل كل من وفد عليه للمساعدة والعلاج ، واذا توفي المريض يرث المستشفى ثروته.

وينتقل الوزان الى أسواق القاهرة، ذلك انه يحدد المنطقة التجارية أولا في الطريق المؤدية من باب النصر الى باب زويلة ، وثانيا في حي بين القصرين، ففي

---

(43) Ibid p. 503

(44) Ibid p. 504

(45) Ibid p. 503

(46) Ibid pp. 509-510

(47) انتهى بناء هذا المسجد عام 1293م

هذا الحي الاخير عدد من الحوانيت يباع فيها اللحم المطبوخ (حوالى 60 حانوتا) وحوانيت تباع فيها العطور المستخلصة من الورود وتوضع في قوارير من الزجاج الجميل أو من القصدير المصنوع بطريقة دقيقة.

وبنفس السوق مجموعة اخرى من الحوانيت تباع فيها اصناف الحلوى المصنوعة بالعسل او السكر ، بالاضافة الى ذلك وجدت دكاكين باعة الفواكه المستوردة من سوريا كالكمثرى والفرجل والرمان، وهي فواكه لا تنبت في مصر.

وبين هذه الدكاكين تتناثر حوانيت اخرى يباع فيها الفطير والبيض المقلي بالبطاطس..

ويستطرد الوزان مشيرا الى وجود مستودعات تضم عددا من الحوانيت ، ففي المستودع الأول حوانيت تبيع اقمشة مستوردة من النوع الجيد مثل نسيج كتان بعلبك ، وهو قماش من النوع الجيد يشتهر بنعومته، ونسيج كتان الموصلين الذي يمتاز بمتانته.

ولا يشترى هذه الاثواب الا الاعيان الذين يستخدمونها قمصانا لهم.

أما في المستودع الثاني فتوجد اقمشة ايطالية من الدمقس والقطيفة ونسيج الحرير والديباج، ويظهر ان هذه الاقمشة كانت تباع بمناطق أخرى من المدينة وخاصة المنسوجات الصوفية المستوردة من البلدان الاوربية كاغطية البندقية وميوركا وغيرهما ..كما شاهد عددا من الحوانيت تبيع الشيلان.

ويذكر صاحب « وصف افريقيا» ماشاهده في هذه الأسواق من حوانيت الحرفيين خاصة قرب الطريق المؤدية إلى باب زويلة حيث توجد وكالات يحتوى بعضها على ثلاثة طوابق. يتكون طابقها الأرضى من غرف يستقبل فيها التجار زبائنهم ويقومون بتبادل السلع الغالية الثمن. ويستخدم الطابقان التاليان لخزن السلع، ولايملك مخزنا في هذين الطابقين سوى كبار التجار. وتختلف نوعية السلع التى تباع في تلك الوكالات من توابل إلى احجار كريمة الى اثواب هندية .. الخ... (48).

(48) Ibid p. 505

ويزيد « أبو الحسن» في هذا الوصف لأسواق القاهرة مشيرا إلى بائعى وصانعى العطور مثل الطيب والمسك والعنبر. كما يذكر في جانب آخر من هذا السوق باعة الورق المصقول ويضيف أن تجار هذا الورق يبيعون كذلك الاحجار الكريمة التى يحملها دلال من دكان إلى آخر معلنا بداية المزاد العلني. وإلى جانب هؤلاء توجد دكاكين الصائغين اليهود ثم الباعة بالتقسيط الذين يبيعون كميات كبيرة من الأثواب الجيدة.

والحقيقة ان مايذكره الوزان عن الأسواق والباعة والدكاكين كثير بحيث انه يضيف الى كل ماسبق وصفا لأسواق الاحياء الأخرى ولأسواق المدينة العتيقة. وتدل كل هذه المعلومات على احاطته الكاملة بأسواق القاهرة وصناعها.

ويعنى صاحب «وصف افريقيا» عناية ملحوظة بالجانب الاجتماعي وان كان قد انصب اهتمامه في هذا الجانب على طباع وعادات أهل القاهرة ثم على لباسهم.

فيما يتصل بطباع القاهريين فقد رآهم الوزان أناس لطفاء يتميزون بالبشاشة والافراط في كلمات المجاملة غير أنهم ـ في رأيه ـ لايعملون كثيرا « كما هي العادة عند سكان كل المدن الكبيرة » (49).

وهم يمارسون الصناعة والتجارة لكن، قلما ترك أحد منهم بلده، إما المتعلمون منهم فأكثرهم يتعاطى دراسة الشريعة ويتخصص عدد أقل في دراسة الأدب «وبالرغم من أن المدارس مليئة بالطلاب فقليل منهم يستفيد من دراسته» (50).

أما فيما يتعلق بلباس ابناء القاهرة فقد لاحظ الرحالة المغربي أنه انيق على العموم وتطرق من هذه الملاحظة الى وصف ثياب الرجال ثم ثياب النساء في كل فصل من السنة.

وعلى وجه التلخيص فإن سكان القاهرة يلبسون في فصل الشتاء قماشا صوفيا وبعض الثياب المحشوة قطنا، ويرتدون في فصل الصيف قمصان فضفاضة من نسيج الكتان الخفيف، وتحت هذا القميص ثياب أخرى منسوجة بالحرير المزخرف بخطوط

(49) Ibid p. 514
(50) Ibid p. 514

مختلفة الألوان . ويضع الرجال على رؤوسهم عمامات كبيرة من نسيج الكريب المستورد من الهند.

أما نساء المدينة فقد كان بعضهم يرتدى فساتين من الصوف ذات أكمام ضيقة وقد لاحظ الوزان دقة انجاز مثل هذه الفساتين وتزيينها بألوان من الزركشة الجميلة بينما ارتدى البعض الآخر غطاء من نسيج القطن الرفيع المستورد من الهند.

وعلى العموم فان نساء القاهرة كن حريصات على تزيين انفسهن بالحلي والجواهر على جباههن واعناقهن على شكل اكليل وشريط مزخرف كما كن يضعن على رؤوسهن رأسية ثمينة ضيقة على شكل أنبوب مزين وعلى وجوههن نقابا أسودا رشيقا مصنوع من الستار ، وكان مثل هذا النقاب يمكنهن من رؤية الرجال دون أن يتعرف هؤلاء عليهن ، وتبقى أخيرا الاحذية الجميلة التي كن يرتدينها على الطريقة التركية.

على نفس الصعيد الاجتماعي سجل صاحب وصف افريقيا ملاحظة طريفة وهي أن قليلا من سكان القاهرة من يطبخ في منزله ، فلا يحدث هذا سوى في العائلات المتعددة الأفراد ، وقد ترتب على هذا فراغ وقت النساء بحيث ما ان يتوجه الأزواج الى اعمالهم حتى « يلبسن ثيابهن ويضعن عطورهن ويأخذن حميرهن يتجولن في المدينة ويزرن الأقارب والأصدقاء » (51).

وبهذه المناسبة يقدم الوزان معلومات ضافية عن هذه الحيوانات باعتبارها وسيلة المواصلات الاساسية في هذا العصر ، وقد ذكر انه يوجد بالقاهرة من يعيش على مهنة كراء الحمير وأن هؤلاء المكاريين يهيئون دوابهم بتزويدها بأغطية جميلة وكيف ان كل حمار يصحبه صبي مسؤول عنه.

وقد لاحظ الرحالة المغربي انه يوجد في القاهرة من لايستطيعون المشي « ولو لربع ميل » (52) لكثرة استخدامهم للدواب في التنقل.

على نفس الصعيد الاجتماعي ايضا استلفت نظر الوزان هذا العدد الكبير من الرجال الذين يحملون على الجمال كمية كبيرة من القرب المملوءة بالماء ، ذلك انه

---

(51) Ibid p. 514

(52) Ibid p. 514

لما كانت المدينة تقع على بعد ميلين من النيل فقد كان هؤلاء يحملون القرب الى بيوت الناس ،كما كان هناك نوعآخرمنالسقائين يضعون قربا معلقة في اعناقهم ، وكانت هذه القرب مزينة وعلى فوهتها صنبور أصفر وبأيديهم آنية دمشقية منقوشة بشكل فني وينادون بصوت مرتفع : الماء .. الماء ! ، ويقدم الزبون عامة عند تناوله آنية من المـاء نصف كاترينو (53) .

وفيما يتصل باحتفالات المصريين فقد جاء في « وصف افريقيا » تفصيل عن الاحتفال المصري المعرف بحفل « وفاء النيل » ، وكيف انه يصحب هذا الحفل ضجة وصراخ وموسيقى وتنقلب المدينة رأسا على عقب ، فتأخذ كل أسرة قاربا تزينه بارق نسيج وباحسن المفروشات وتتزود بألذ الطعام والحلويات واحسن الشموع ... ويحتفل كل السكان في قواربهم كل حسب امكانياته ويشاركهم الباشا نفسه مرفوقا بحاشيته وقواده، ويتجه الى قناة تدعى القناة الكبيرة،وهي سورة، فيأخذ الفاس ويحطم السور ويتبعه رجال الحاشية في نفس العمل حتى يتم هدم جزء يسمح بتسرب ماء النيل الى تلك القناة ثم تدفقه عليها.

ومن هنا تنتشر المياه في قنوات متفرعة في سائر انحاء المدينة حتى تصبح القاهرة في هذا اليوم أقرب الى مدينة البندقية (54) ينتقل الناس فيها بواسطة القارب.

وكان هذا الحفل يستمر لسبعة أيام وليالي بحيث ان ما كان يربحه تاجر او صانع في سنة كاملة ينفقه في هذا الاسبوع في الأكل والحلويات والمشاعل والعطور ، كذا على أرباب الموسيقى ويعلق الوزان بأن « هذا الحفل من بقايا حضارة قدماء المصريين » (55)

ويستطرد صاحب « وصف افريقيا » على نفس الموضوع بانه توجد جزيرة تدعى بجزيرة المقياس (الروضة) في وسط النيل ، وتوجد في هذه الجزيرة آلة يقاس بها الفيضان ،وكان رخاء مصر او غلاء المعيشة مرتبط بارتفاع الفيضان او انخفاضه ، وقد أعد فيالجزيرة بناء صغير منعزل ومغلق توجد في وسطه حفرة

---

(53) « يعني 1,5 سنتم ذهبي بالعملة المحلية هكذا علق Epaulard، عليها

(54) Ibid p. 513

(55) Idem

مربعة يصل عمقها ثمانية عشر ذراعا (56) وعلى جدار هذه الحفرة فتحت قناة متصلة بالنيل وفي وسطها نصب عمود مرقم ومقسم الى عدد كبير من الادرع على مدى عمق الحفرة ، ويبلغ عمقها 18 ذراعا وعندما تبدأ مياه النيل في الارتفاع تدخل في هذه القناة وتصل الى الحفرة ويرتفع مستوى المياه بارتفاع اصبعين او ثلاثة او حتى نصف ذراع يوميا تبعا لأهمية الفيضان.

وكان هناك موظفون مسؤولون عن مراقبة ارتفاع الماء على العمود ويقومون بابلاغ صبية تابعين لهم بمدى هذا الارتفاع وكانت مهمه هؤلاء الصبية الذين تميزوا بشعرهم المرتب وبمنديل أصفر حول رقبة كل منهم القيام بنقل الخبر الى سكان القاهرة وضواحيها وكانوا يحصلون مقابل ذلك على هدايا يقدمها لهم الصناع والتجار والنساء الى نهاية الفيضان.

وقد اثبتت التجربة انه عندما يصل الفيضان الى 15 ذراعا على العمود المرقم تكون السنة جيدة واذا وصل مستوى الماء الى اقل من ذلك (بين 12 و 15ذراعا) يكون مدخول السنة قليلا ، أما اذا لم يتعد هذا الفيض ذلك (بين 10 و 12 ذراعا) فيرتفع ثمن القمح وبنفس الدرجة كان يتخوف المصريون من تجاوز الفيضان لاكثر من 18 ذراعا حيث كانت كل مناطق المسكونة تتعرض لخطر الغرق.

وتقوم عندئذ ادارة المقياس بتنبيه السكان بواسطة الصبيان الذين يصيحون في الطرقات « ايها الناس خافوا الله من جبل الى آخر » (57) ، وهذا يعني أن الماء وصل من ضفة (جبل) الى ضفة أخرى ، ويقول الوزان « وفي هذه الظروف يدب الخوف في قلوب الناس فيقيمون الصلوات ويوزعون الصدقات » (58).

ولاتتعدى مدة ارتفاع مياه النيل اربعين يوما ثم تشرع في الانخفاض وطيلة هذه المدة تقل المواد الغذائية المعروضة بالأسواق الأمر الذي يجعل التجار يبيعون الخبز بالسعر الذي يريدونه وان كان ذلك يتم خفية (59)

---

(56) والذراع حوالى 54 سنتم

(57) Ibd p. 513

(58) Idem

(59) Idem

وعند نهاية الفيضان يقرر المحتسب أسعار المواد الغذائية وخاصة اثمان الخبز ، ويحدد هذا السعر مرة واحدة في السنة ويتم تبعا لما يقرره موظفو مصلحة المياه الذين يعرفون المناطق المسقية بصورة دقيقة.

وينتقل الوزان على نفس التفصيلات الاجتماعية التي يقدمها بتناول موضوع غذاء المصريين وقد رآهم يعتمدون أساسا على الخبز والجبن، ولحم الجاموس اكثر انواع اللحوم انتشارا لدى المصريين رغم ان بعضهم كان يأكل ـ كما روى صاحبنا ـ لحوم الخيل « فعندما يصاب فرس ما يتسابق الجزارون التابعون لهذا المذهب الى شرائه ثم يعلفونه وبعد ذلك يذبحونه و يبيعون لحمه لأتباع مذهبهم (الحنفيين) (60) وكانوا في الغالب من الاتراك والمماليك ومن مسلمي آسيا القاطنين بمصر.

ويتطرق أبو الحسن في هذه المناسبة الى ناحية دينية وهي تسجيل المذاهب التي كانت منتشرة وقتئذ في مصر، وهي الأربعة مذاهب تختلف في موضوع الاحتفالات الدينية ومواعيدها، وفي تطبيق الشريعة ، والشعائر الدينية.

وترتبط الملاحظة السابقة بملاحظة اخرى قدمها الوزان عن القضاء وهي وجود أربع شخصيات هم رؤساء قضاة كل مذهب، أو قاضي القضاة، ومهمة هؤلاء النظر في القضايا المستعصية ، ويوجد تحت إمرة كل منهم عدد كبير من القضاة، قاضيين او ثلاث في كل من ينظرون فيالقضايا اليومية.

وإذا وقع خلاف بين شخصين من مذهبين مختلفين فعلى المدعى أن يذكر ذلك امام القاضي الذي ينظر في قضيته، أما اذا ارتكب شخص عملا مخالفا لمذهبه فان قاضي هذا المذهب ينزل به العقوبة المناسبة.

ويلاحظ « أبو الحسن » أنه رغم اختلاف المذاهب فليست هناك عداوات بين اتباعها خاصة في الاوساط الشعبية ، أما عند المثقفين يتخذ الاختلاف شكل المناقشات الحادة في بعض الموضوعات ويدافع كل عن رأيه مقدما براهينه المستقاة من القرآن والسنة ، هذا وقد كان المذهب الحنفي ، كما أشار، أكثر المذاهب انتشارا فيالبلاد وقتئذ وكان للمذاهب الثلاثة الأخرى عدد أقل من الأتباع.

---

(60) Ibid p. 514

واستطرادا لنفس الحديث يذكر الوزان طبيعة العقوبات التي كان يحكم بها القضاة ويصفها بشكل اقل ما يقال عنها انها قاسية (61) ويسجل ملاحظة طريفة عن عقوبة المدين الذي لايوفى دينه فقد كان يودع السجن بعد ان يحصل الدائن على حقوقه من قبطان السجن الذي يرسل سجنائه من هذا النوع يوميا الى المدينة مكبلين من أعناقهم لطلب الصدقة ، وعند عودتهم يؤخذ منهم ما جمعوه ولايترك لهم الا الضروري الذي يكفي قوتهم !

يتناول الوزان بعد ذلك بالوصف ضواحي قاهرة القرن السادس عشر ويذكر منها باب زويلة وباب اللوق بولاق والقرافة ويخصص لكل منها حيزا لابأس به في رحلته.

غير أنه قبل تناول كل ضاحية من هؤلاء بالتفصيل قدم وصفا ضافيا لمصر العتيقة يستحق العرض.

من هذا الوصف ما لاحظه من كثرة اصحاب الحرف في هذه الجهة وقد لفت نظره منهم باعة الكتاكيت المتجولين وذكر أن لهم طريقة عجيبة في توليدها « فهم يأخذون ألف بيضة او اكثر ويضعونها في نوع من الافران يحتوي كل منها على عدد من الطبقات مثقب اعلاها.ويوقدوننارا خفيفةتحت هذه الآلات ولا تمر سوى سبعة أيام حتى يفقس البيض وتوضع الكتاكيت في وعاء وتعرض للبيع ..» (62)

وفي موضوع الصناعة والصناع يشير الوزان الى انه من عادات سكان المدينة القديمة عندما يتقن عامل صنعة شيء ما أن يحملوه ويتجولوا به من دكان الى آخر مصحوبا بالموسيقيين (63).

أما عما سجله أبو الحسن عن ضواحي القاهرة فقد كان أكبرها من حيث عدد السكان « باب زويلة » التي بلغ عدد سكانها 12 ألف أسرة (نحو 60 ألف نسمة على اعتبار ان متوسط عدد افراد كل أسرة خمسة افراد)، زد على هذا العدد السكان غير المقيمين اي اولئك الذين يملكون دكاكين بها ويقطنون في المدينة.

---

(61) Ibid p. 518

(62) Ibid p. 515

(63) Ibid p. 516.

ويفصل الوزان الحديث عن هذه الضاحية فيشير الى كثرة ما تحتوي عليه من مساجد ومرستانات ومدارس خاصة المدرسة المشهورة التي بناها السلطان حسن (64)

الضاحية الثانية هي باب اللوق ولايزيد عدد سكانها عن ثلاث آلاف اسرة جل أبنائها من الصناع والتجار على اختلاف انواعهم، وقد ساء الرحالة المغربي ما لاحظه فما يجري كل يوم جمعة في هذه الناحية.(65) من تسليات غير شريفة مثل الجلوس في الحانات ومصاحبة المومسات واجتماع عدد كبير من المشعوذين والبهلوانات الذين يقومون بترقيص الحمير والكلاب، وان كان قد اعجب بهذا الشكل الاخير من التسليات .

أشار صاحبنا أيضا الى أنواع أخرى من المشعوذين الذين معهم طيور صغيرة تكشف مستقبل من يريد ، وكان ذلك يتم بان يرمي لها الراغب قطعة نقدية فيحملها الطير بمنقاره الى صندوق يضعها فيه ويتناول ورقة عليها الجواب !.. اضف الى كل ذلك ما شاهده من المغنين الشعبيين الذين كانوا يجلسون في الاسواق ويتغنون ببعض الاساطير (66).

وكانت بولاق ثالث النواحي التي ذكرها الوزان، وكان عدد سكانها اربعة آلاف اسرة ، وقد نبعت اهميتها من وجود ميناء القاهرة بها وكان يدخله ما يزيد عن الالف قارب وبه مستخدموالضرائب الذين يراقبون السلع القادمة من الاسكندرية او دمياط.

وكانت توجد بهذه الناحية مطاحن عديدة تـــدور فيهـــا الحيوانات، كما اشتهرت بانها حي صناعي يتجمع فيه العديد من الصناع والتجار خصوصا تجار الحبوب والزيت والسكر (67) ، غير ان ذلك لم يمنع منوجود المساجد والمنازل الواسعة والمدارس التي تضم طلابا عديدين (68).

---

(64) Ibid p. 506

(65) Ibid p. 507

(66) Ibid p. 508

(67) Ibid pp. 508-509

(68) Ibid p. 508

آخر ما وصفه الوزان « حي القرافة »، وهي الناحيةالمشهورة باضرحتها المدفون فيها الاولياء،وقد كان عدد كبير من سكان القاهرة وضواحيها يذهبون كل يوم لزيارة تلك الاضرحة وهم في حالة من التهدج والتقوى والرغبة في اكرام المحتاجين والمعوزين.

ويثير الوصف المطول لمصر الذي أورده الوزان عددا من الملاحظات :

(1) تعدد الجوانب التي تناولتها المعلومات التي اتى بها الرجل ، اقتصادية واجتماعية ودينية بحيث يمكن القول انها كانت أقرب الى عملية مسح شامل لمصر من عين مغربية.

(2) دقة هذه المعلومات فيما لاحظناه لدى وصفه لمقياس النيل او التجارة او الموانى، فهو يصفها كأنه لازال مقيما بها.

3) وان كنا نلاحظ انه قليلا ما أشار الى علاقات محددة بين مصر والمغرب (بلاد البربر) غير ان ذلك لايقلل من قيمة ملاحظاته.

4) أخيرا فان كتاب الوزان طبع بالايطالية (69) عام 1556، ثم ترجم الى الفرنسية (70) واللاتينية (71) بعد ذلك بست سنوات،ونقل الى الانجليزية في اواخر القرن السادس عشر (72)

وقد استمر هذا الكتاب نتيجة لما احتواه من معلومات مقياسا لمن أراد ان يتحققمن صحة معلومات الرحالة الذين اعقبوه.

مصر في كتابات العياشي في القرن السابع عشر :

بينما شملت كتابات الوزان عن مصر وصفا لعديد من مناطقها فان اول ملاحظة يمكن تسجيلها على الرحلة العياشية ان صاحبها قد اقتصر في وصفه على المناطق التي اجتازها ابان مصاحبته لركب الحج.

---

(69) نشره Ramusio

(70) ترجمه ونشره Temporal

(71) نشره Joanes Florianus

(72) ترجمه John Pory ونشرته مؤسسة Haklupt وفي عام 1665 ظهرت ترجمة هولندية، وعام 1805 ترجمة المانية

ومن تلك المناطق اهتم العياشي على وجه الخصوص بذكر المدن الأربعة الرئيسيةالتيمربها ونسوق هنا رؤيته لها تبعا لترتيب هذا المرور.

(1) كانت الاسكندرية اولى المدن التي وصفها العياشي ، وقد بدأ وصفه لها بمقدمة تاريخية عن المدينة ، انثنى منها الى الحديث عن عجائبها مثل المنارة المشهورة « الا أنها الآن دائرة لم يبق منها شيء »، كذا عمود السوارى الذي قال عنه « ما رأينا أعجب من طول العمود وفخامته .. وبالجملة فهو منمباني الدنيا الغريبة ومن مآذن هذه المدينةالعجيبة» (73)

ويعزو أبو سالم أسباب عمران الاسكندرية لموقعها « بين الأسباب البرية والبحرية والاجناس البدوية والحضرية فبابها الشرقي متصل بأرياف مصر التي هي مزرعة الدنيا التي لانظير لها وبابها الغربي متصل ببادية برقة ..وبابها البحري مقابل لأرض الروم التي منها تجلب البضائع النفيسة » (74)

ولم يغفل العياشي الاشارة الى المزارات الدينية بالمدينة مثل مشهد سيدي على البدوي وقبر الخزرجي ومشهد الشيخ ابو العباس المرسى وزاوية ابى محمد صالح التي ينزلها المغاربة « ولهم فيها أوقاف » (75) وكان من الطبيعي ان يهتم بتلك المعالم الدينية بحكم الطابع الديني لرحلته.

2 ـ ومن الاسكندرية الى القاهرة التى أقام فيها صاحب الرحلة لفترة غير قصيرة احصى خلالها كل كبيرة وصغيرة في المدينة مما أدىالى ان يقدم الرجل صورة تكاد تكون متكاملة ، وهي بالتأكيد ممتعة ، عن حياة قاهرة القرنالسابع عشر ، وهو ما نستعرضه لدى تناول جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في المدينة.

3 ـ وقبل ان ينطلق موكب الحجيج، الذي كان العياشي احد رجاله ، الى الاراضي الحجازية وصل أولا الى السويس وقد رآها ابو سالم « مدينة صغيرة ذات أسواق ومساجد ووكالات مستطيلة على شاطيء البحر المالح الذي يأتي من الهند

---

(73) ابو سالمالعياشي : مصدر سابق جـ 2 ص 362 ـ 368

(74) نفس المصدر جـ 2 ص 363

(75) نفس المصدر والجزء ص 367

وهناك يقف بين جبال شامخة وبينه وبين البحر الرومي نحوامنمرحلتين (76)
ويشير العياشي الى أن ميناء السويس كان يستقبل « السفن التي تأتي من جدة ومكة واليمن فيها السلع التي لاتحصى والبضائع التي تستقصى ومن هناك تحمل الى مصر (77) في البر ». (78).

4 ـ ولما كان العياشي قد عاد من الحجاز عن طريق الشام فهو قد وصل الى غزة ومنها الى دمياط وكانت المدينةالمصريةالرابعة التي خظيت بنصيب من اهتمامه . وصفها فقال « هي مدينة كبيرة ممتدة على ساحل النيل ذات مساجد كبيرة واسواق حافلة وخانات عامرة ومرسى عجيبة غصت بها السفن الكبار والقوارب الصغار فيها من أنواع الفواكه والثمار وصنوف الاطعمة ما لايكاد يوجد في غيرها » (79).

ونعثر في كتابات العياشي على ما لم نعثر عليه عند غيره من رصد للحياة الاقتصادية في المدن المصرية ، فهو قدعاش وتعامل مع الناس ورأى أسواقهم وسجل ما رآه.

وكان اول ما استلفت نظر الرجل تلك الكثافة البشرية التي تمتعت بها العاصمة المصرية وتعدد انشطة ، القاطنينبهاواختلافاجناسهمفهويقول«وبالجملة فمصر أم البلاد شرقا وغربا .. لكثرة اجناس الناس فيها فمن طلب جنسا وجد منه فوق ما يظن فيظن ان غالب أهل البلد كذلك 2 (79) ويسوق قولة ابن خلدون « ... ومصر بخلاف ذلك كلما تخيلت فيها فاذا دخلتها وجدتها اكثر من ذلك » ... 3 (79) ويسجل طبيعة الحياة المدينية لسكان القاهرة مما يعهد في غيرها فيقول

---

(76) المصدر السابق ج 1 ص 162
(77) يقصد القاهرة
(78) العياشي : نفس المصدر ج 1 ص 162
(79) المصدر السابق ج 2 ص 356
نفس المصدر ج 1 ص 122 ـ 123
نفس المصدر والجزء والصفحة
المصدر نفسه ج 1 ص 123
نفس المصدر والجزء والصفحة

« كأن الناس فيها قد حشروا الى المحشر لاترى أحد يسأل عن أحد كل واحد ساع فيما يرى فيه خلاص نفسه 4 (79) ثم يستطرد مؤكدا على هذه الطبيعة مشيرا الى انه « لو توانى الانسان في مشيه لفاته غرض مع كثرة الاغراض وتزاحم الاشغال » 5 (79)

وقد تعددت مواقع حديثه عن الاسواق، والواضح انه كان منبهرا مما يجري فيها « فكل سوق دخلته تقول هذا اكثرها زحاما فاذا خرجت منه لآخر وجدته مثله او أشد ،وقد شاهدنا الناس في بعض الاسواق تارة يقفون هنيهة لايقدر أحد على أن يتحرك يمينا ولا شمالا من غير ان يكون هناك حاصر لهم من أمام الا الزحاموربما رفع بعضهم صوته بالتكبير فيكبرون حتى يظهر لهمبعض تحرك فيندفعون مثل السيل اذا اجتمع في مكان ضيق » (80).

وكان للعياشي مجموعة منالملاحظات البالغة الفائدة عن الحياة الاجتماعية من القاهرة خلال القرن السابع عشر.

تتمثل اولى ملاحظاته فيما سجله من تقسيم أحياء القاهرة الى:تلك التي يقطنها الفقراء مثل « حارةالمجاورين » القريبة من الجامع الأزهر « لايسكنها في الغالب الا العلماء والغرباء والفقراء وقل أن تجد بأزائه دار متجر أو أحد أرباب الدولة لضيق المحل » ثمالأخرى التي يقطنها هؤلاء الاخيرون الذين يريدون « السعة والقرب منالقلعة التي هي محل الباشا وأكابر دولته ».

الملاحظة الثانية : تتمثل فيما رصده العياشي من بعض عاداتالمصريين الاجتماعية التي لفتت نظره.

من هذه العادات ما اتصل بأمور لم يألفها المغاربة مثل شرب القهوة ، ويفرد أبو سالم هذا الامر حيزا غير صغير،فيتحدث عن تاريخ دخول المشروب الى مصر واستخدامه للضيافة ،ويتطرق الى أحكام الشريعة في هذه العادة (81)

منها أيضا عادة شرب الدخان وموقف رجال السلطة من اباحة التدخين او منعه (82).

---

(80) نفس المصدر والجزء والصفحة

(81) نفس المصدر جا ص 131

(82) نفس المصدر جا ص 134 ـ 135

غير أن أهم ما لفت نظر الرحالة المغربي كان ما اتصل بأمور الدين ، وهذا امر طبيعي بحكم ما سبقت اليه الاشارة من الطابع الديني لرحلته الى مصر.

فهو قد عنى بالاحتفالات الدينية حيث يسجل الجو الاجتماعي الذي يرافق رؤية هلال رمضان (83) ويدلف من ذلك الى وصف بعض العادات الاجتماعية التي درج الناس على اتباعها يوم العيد فيتحدث عن « عادة النساء في مصر أن يخرجن ليلة العيد ويومه الى المقابر ويبقين هنالك برهة من الزمن » ثم يضيف « ولما فرغ الناس من الصلاة جعلوا يتزاورون ووقف المشايخ لزيارة الناس» (84).

ورصد أيضا ظاهرة كثرة المشايخ والأولياء في القرى والمدن ومدى ما تمتعوا به من مكانة في نفوس الناس ، كما رصد أيضا وجود طوائف المجاذيب (الدراويش) (85).

ويشير أخيرا في نفس الاطار الديني الى أسر تمتعت بمكانة دينية خاصة مثل أسرة إبن عنان « ولهم ولاية جامع القسم وبه مجتمع اتباعهم للذكر وقراءة وظائفهم وهم من الطوائف المشهورة في مصر » (86).

وقد انفرد العياشي بنقد مرير لنظام الحكم العثماني لمصر مما يستحق وقفة لمتابعة هذا النقد.

فهو يتحدث عن استبداد الحكام العثمانيين الذين « لايرحمون ضعيفا ولا يوقرون كبيرا اينما تبدو لهم صبابة من الدنيا وثبوا عليها ان كان صاحبها حيا تسببوا له بأدنى سبب حتى يأخذوا ماله إما مع رقبته أو بدونها إن كان في العمر فسحة وان كان ميتا ورثوه دون بنيه وبناته ».

كما يتناول ما أسماه « بظلم العساكر » فيقول « أما رعيتها وفلاحتها فلا تسأل عما يلاقون من الجند من الظلم وما هم فيه من الاهانة والاحتقار تضرب ظهورهم وتؤخذ اموالهم ولا مشتكي لهم الا الله ومن تجاسر منهم واشتكى ضوعف عليه

---

(83) نفسه ج 1 ص 130

(84) نفسه ج 1 ص 132

(85) نفسه ج1 ص 129 و 144

(86) نفسه ج 1 ص 149

العذاب الأليم » (87).

ولعل ما رصده العياشي في هذا الشأن يفسر ما سجله المؤرخون من ظاهرة هجرةالفلاحين لقراهم، (88) وهو ما لاحظه الرحالة المغربي نفسه حين تحدث عن متابعة رجال السلطة في مصر للفلاحين الذين يفرون من اراضيهم « فلا هم ينصفونهم ويخففون عنهم من المظالم ولا هم يتركونهم يذهبون حيث شاءوا يسيحون في الارض يرزقون كما ترزق الطير » (89).

والعياشي بكل ما قدمه انما يبدد بعض أسباب الظلام التي أحاطت بوضعية مصر خلال القرن الذي زارها فيه .. القرن السابع عشر !

الزياني في مصر القرن الثامن عشر :

سبقت الإشار الى أن كتاب « الترجمانة » للزياني عبارة عن خلاصة ثلاث رحلات قام بها ابو القاسم الى بلدان الشرق .

الاولى كانت لأداء فريضة الحج والثانية ضمن سفارة مغربية أرسلها مولاي محمد بن عبد الله الى اسطنبول عام 1785 ثم كانت الاخيرة على عهد مولاي سليمان (1791).

وقد ارتبطت نظرة الزياني الى مصر واقتصادها بحاجته اثناء سفره للمؤونة والمواصلات والاسواق والباعة ،ومن ثم فان كتابه كان وفير الفائدة للحجاج المغاربة المارين بمصر.

وعندما كان ابوالقاسم يبدأ فصلا بعينه او يتحدث عن طريق برقة الاسكندرية أوالقاهرة الاسكندرية كان دائم الاشارة الى المواصلات وكيفية استخدامها مما يمكن العثور عليه في اكثر من مكان من رحلته.

(87) نفس المصدر ج 1 ص 122

(88) انظر د. عبد الرحيم عبد الرحمن : الريف المصري ص 145 ـ 148

(89) العياشي : ج1 ص 121

فمثلا في أثناء رحلته الثانية الى اسطنبول وعندما أراد العودة لم يجد بغالا يحمل عليها متاعه مما دعاه الى التذكير بوفرة دواب الجمل في مصر (90) .

غير انه لايضيف شيئا في هذا الموضوع لما ذكره كل من الوزان والعياشي خاصة بشأن مراكب النيل،ومن ان استخدامها كان اساسيا من جانب السكان والغرباء ، اللهم الا قولته بزيادة أهمية هذه المراكب مع فيضان النيل (91) .

وفي هذه المناسبة لايفوت الزياني الاشارة الى اشتغال بعض المغاربة كبحارة في هذه السفن (92) .

لم يمنع ذلك من العثور على بعض الاضافات في الترجمانة الكبرى تعبر عن روح القرن الذي كتبت فيه فيما يتصل بهذا الجانب الخاص بالمواصلات .

فهو قد اشار من جانب الى ارتفاع اسعارها وهو يعزو ذلك الى زيادة اثمان العلف والابل والدواب، ولاشك ان هذا الشعور بارتفاع السعر ناتج عن قياسه بما جاء عن تلك الاسعار في رحلات المغاربة السابقين (93) .

وهو يشير على الجانب الآخر الى ازدحامها ويعزو ذلك الى قلة عددالسفن بالقياس لزيادة احتياجات الناس خاصة في موسم الحج .

وتحت نفس النظرة، نظرة الحاج المغربي، جاء تقييم الزياني للاوضاع الاقتصادية في البلاد خلال فترة زيارته لها.

ففيحديثهعنالاسواق يعبر مرة اخرى عن شكواه من غلاء الاثمان فيها خاصة ماكان متصلا منها بعلف الدواب وغذاء البشر (94) ويعرب عن استنكاره مثلا من ارتفاع ثمن الفول رغم وفرته (95) .

كما يعبر علىالجانب الآخر عن نفس الشكوى من شدة ازدحام هذه الاسواق في موسم الحج وظهور فئات من المنتفعين من الحجاج حيث لاحظ وجود طبقة من

---

(90) ابو القاسم الزياني : الترجمانة الكبرى ص 171 ـ 172

(91) نفس المصدر ص 263

(92) نفس المصدر ص 201

(93) نفسه ص 209

(94) نفس المصدر والصفحة

(95) نفسه ص 210

الفلاحين المصريين يبيعون للحجاج كل ما يحتاجونه (96).

غير ان الزياني رغم شكواه يقر بحالة الرواج الاقتصادي التي شاهدها في مصر في موسم الحج وهي حالة لاتنتهي الا مع خروج قافلة الحجاج وبعد الحفلة الكبرى التي تقام بهذه المناسبة ، وعندئذ فقط تقفل الدكاكين وتعطل كثير من الأسواق.

ولم يفت ابو القاسم الاشارة إلى دور بعض المغاربة في هذا الرواج من فئات مختلفة اشتغلت بكراء الدور او طبخ الاطعمة المغربية أو أعمال التجارة عموما (97).

ويفهم من كلام الزياني عن وضعية مصر الاقتصادية ، او بالاحرى وضعية المناطق التي زارها ، ارتباط ازدهار التجارة بمرور موكب الحج ذلك بسبب توفر فرصة تسويق منتوجات هذه المناطق سواء كانت منتوجات فلاحية، كالفول والعلف، أو صناعية كالأثواب وغيرها.

أما ما جاء في « الترجمانة » عن المجتمع المصري الذي احتك به مؤلفنا فبالامكان تلخيصه فيما يلي :

1) ما لاحظه من تفاوت طبقي واضح ، فهناك الفئات الشديدة الثراء التي يصل الأمر ببعضها الى كراء بيوت في طريق خروج المحمل النبوي لاتستخدم طول العام الا في هذه المناسبة ، ويعرب الزياني عن تعجبه من ذلك (98).

وبالمقابل يتحدث عن طبقة شديدة الفقر حتى ان ابناءها يقطنون على مقربة من قبور الأولياء والصالحين ويرتزقون من الهبات التي يقدمها زائرو تلك الأماكن (99).

2) بعض اشارات عن عادات المصريين وتقاليدهم فمثلا عادة التبرك بالأولياء والسكنى قربهم ويتحدث في هذه المناسبة عن المولد الذي ينعقد في قبر الامام الشافعي كل يوم سبت « يجتمع فيه ناس كثيرون يضيق بهم المسجد وغرفاته ما بين فقراء وأمراء ورجال ونساء يبيتون طول الليل بين ذكر لجماعة وقراءة قرآن

(96) نفسه ص 213

(97) انظر الفصل الخامس

(98) الزياني : المصدر السابق ص 209 ـ 211

(99) مصد سابق ص205

وصلاة لايفترقون الى طلوع الفجر وذلك دأبهم أبدا في كل ليلة سبت » (100) .

وتحدث في هذه المناسبة ، كما فعل الوزان، عن لباس المصريين واتفق مع صاحب « وصف افريقيا » في تقريظ هذا اللباس .

ثم انه على الجانب الآخر كرر ما قاله العياشي في موضوع الحلق والمسليات التي وقف عليها بضاحية الرميلة (101) وهو لم ينكر ذلك اذ قال « وكنت وقفت على هذا في رحلة الشيخ العلامة أبي سالم سيدي عبد الله العياشي وكانت معي » (102) .

3) وتأتي الصورة التي قدمها الزياني عن الحياة الفكرية لتبين مدى اهتمام المصريين بالمشتغلين بالفكر سواء من أبناء مصر أو من أبناء العالم الاسلامي الذين يفدون اليها.

جانب من هذه الصورة جاء ذكرها عندما كان « صاحب الترجمانة » في الأسكندرية واجتمع ببعض علمائها (103) فقد لاحظ ما لهؤلاء العلماء من تأثير في البلاد او على حد توصيفه لأحدهم « اليه المرجع في أمور البلد وله اليد الطولى مع الحكام والمنزلة العليا عند الأمراء يرجعون الى رأيه ومشورته ..» .

جانب آخر من نفس الصورة ابرزها لدى مقامه عند صديق لابيه في القاهرة حيث كان يلتقى بكثير من العلماء ويتزاور معهم ،وكان ممن رآهم المؤرخ المصري الشهير « الشيخ عبد الرحمن الجبرتي » الذي « عزمني لبيته يوما، وكان يأتيني كل يوم » ، ثم الشيخ سليمان الفيومي الذي وصفه بانه « كبير علماء وقته وعزمني لبيته وأتى بيتي مرارا » ، ويتحدث الزيانى عن ذهابه مع الجبرتي الى « خزانة الكتب بمسجد محمد باي ابو الذهب بما فيها من غريب الكتب،وخصوصا كتب التاريخ ،وكنت اطالع بها أولا ثم تمكنت الصحبة مع قيمها فكان يعيرني ما اطلب منه ، فطالعت تاريخ الكرماني وتاريخ النووي وتاريخ الخلفاء للاسيوطي والورقات له

---

(100) نفسه ص 206

(101) نفسه ص 211

(102) نفسه ص 214

(103) مثل الشيخ محمد المسيرى

والثلباني والخطط للمقريزي وبحر الانساب للشيخ المرتضي ، وغير ما ذكر » (104)

وكالعادة عند سائر الرحالة المغاربة يحرض صاحب « الترجمانة الكبرى » على تقديم بعض المعلومات الجغرافية خاصة ما اتصل منها بوصف اشهر المدن.

غير أننا نلاحظ ان «ابا القاسم» قد نقل كثيرا في هذا الصدد عما سبقوه مما يدعو الى الاقتصار على ما شاهده.

عن الاسكندرية التي قضى فيها شهرين كاملين « لقلة المراكب المتوجهة للغرب بسبب الوباء الذي بافريقيا » قال انه « لم ير مدينة أحسن منها »، وقد وصف كلا من المنار وعمود السوارى كما تعرض لكل من الاسكندرية القديمة والاسكندرية الجديدة (105)

اما بالنسبة للقاهرة فقد قدم وصفا تفصيليا للأضرحة التي زارها فتحدث عن المشهد العظيم « المحتوى على جماعة من أهل البيت رجالا ونساء » وجامع ابن طولون الذي اعتبره « من أقدم مساجد القاهرة »ومسجد السلطان حسن الذي « لاثاني له في مصر ولا في غيرها ».

ولا يفوت الزياني في هذه المناسبة عقد المقارنة مع المغرب لانه ، في رأيه ، « لم يعتن باقامة معالم الدين الا امير المؤمنين مولانا سليمان بن سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله فقد شيد بمدنه مساجد ومدارس ورباطات » (106)

ولا يبقى القول سوى ان « ابو القاسم » رغم التواء طرق تقديمه للمعلومات فانه يقدم اضافات هامة لما كتبه الرحالة المغاربة السابقون عليه خاصة العياشي ، وهم في مجموعهم انما يقدمون ، من وجهة نظر مغربية صورة للحياة المصرية بكل جوانبها سلبية كانت او ايجابية !

---

(104) الزياني ص 194

(105) نفس المصدر ص 195 ـ 198

(106) نفسه ص 205 ـ 206

صفحة خاصة بمحتوى الفصل

الفصل الرابع

العلاقات الثقافية

العلماء المغاربة فى مصر في العصر العثماني
الحكومة المغربية والعلاقات الثقافية مع مصر
التواصل الثقافي
العلاقات الثقافية خلال القرن التاسع عشر

العلاقات الثقافية

ظلت الصلات الثقافية بين مصر والمغرب على امتداد الفترة موضع الدراسة تشكل ركنا أساسيا من اركان العلاقات بين البلدين.

وقد نبعت هذه الأهمية من ثلاثة روافد.

() المكانة المتميزة التي حظيت بها القاهرة باعتبارها المركز الثقافي الاساسي

في المشرق العربي خلال العصر العثماني.

ومثل هذه المكانة قد صدرت، في تقديرنا، عن اكثر من سبب..

فالمنافسة القديمة بين القاهرة وبغداد كانت قد حسمت منذ اوائل العصر المملوكي بعد أن أصاب عاصمة العباسيين، نتيجة للغزوات المغولية، ما أصابها من اضطراب، ومن تدمير للمؤسسات العلمية ومن سيادة مناخ من عدم الاستقرار لايشجع على عودة هذه المؤسسات ناهيک عن قدوم الوافدين لتلقى العلم فيها.

حسمت لصالح القاهرة ايضا المنافسة العلمية بينها وبين دمشق بعد الغزوة الصليبية للشام خلال العصور الوسطى ، ثم انه حتى بعد تحرير الاراضي الشامية خلال عهود الايوبيين والمماليک اصبحت قسما من دولة مركزها القاهرة،وبالتالي ظلت العاصمة فيمركز الصدارة، ليس فقط كمركز للسلطة وانما أيضا كملتقى للعلماء من كل مكان.

وعندما سيطر العثمانيون لم يكن من مقدورهم تغيير الوضعية القائمة لان التغيير لم يكن من حسبانهم، والأهم من ذلك انه بينما بقيت مصر كبرى الولايات العثمانية بكل ما يترتب على ذلك من استمرار اهميتها فان بغداد تحولت الى مجرد ولاية من ثلاث أو أربع ولايات في العراق، وحدث نفس الشيء بالنسبة لدمشق.

وتبقى بعد كل من العراق والشام الحجاز كمنطقة جذب ثقافي للمسلمين عموما وللمغاربة الذين ذهبوا الى المشرق أساسا قصد تأدية الحج والمجاورة

ويفسر العالم المغربي « ابو العباس المقري » الذي استقر في مصر لأربعة عشر عاما اسباب اختيار مصر دون الشام مقرا ..يقول.

« ولسيدى أن يقول ما بال فلان يجاور بالمدينة ويكمل بالحلول فيها دينه ؟ وماله من أرب بمصر والشام وهل يقاس الحنظل بالبشام ؟ فأقول في جوابه مهتديا بصوابه هذا مقام قد رمته وبعث له ما اشتريته بعدما سمته فاذا به متعذر متعسر ومالايعمل فيما بعده لايفسر.وذلك انه يحتاج الى مؤن كثيرة وما كان يأتى من مصر الى طيبة المشرفة الاثيرة قد منع اكثره وجله اوجميعه وكله والاعراب تنتهب ما في ذلك المقام جهرا وتأتي الى الباب غلبة واستظهارا والناس يشاهدون هذا متحيرين وليسوا له بمغيرين ..وأيضا هناك مانع عظيم وهو انهم يتحققون ان المغربي المجاور هنالك يصب عليه المال مطرا ولو فرض انه اعطاهم الالوف لما قنعوا بذلك ولا رأوه وطرا » (1)

وتتأكد مكانة القاهرة الخاصة فيما يتصل بالعلاقات الثقافية المصرية المغربية انه قلما يعثر الباحث على واحد من عشرات العلماء او طلاب العلم المغاربة الذين اتو الى المشرق من ذهب الى غير مصر ليلقى او يتلقى الدروس .

واذا اخترنا « ابا العباس المقرى » العالم المغربي المشهور كاستثناء من هذه القاعدة نجده يؤكدها اكثر مما ينفيها ، فهو قد زار المشرق واستقر فيه منذ أن وصل

---

(1) الرسالة موجهة الى محمد بن أبى بكر الدلائى عام 1041 ونصها في القادرى: نشر المتانى جـ (الرباط 1980 ؛ ص 300 ـ 301.

الى القاهرة عام 1027هـ (1617) حتى توفى فيها عام 1041هـ(1631)، وقد خرج خلال هذه الاعوام الاربعة عشر مرة واحدة الى دمشق غير انه لم يقض فيها اكثر من شهرين (شعبان ـ شوال 1037هـ) بالرغم من أنهاحبها ، كما أشار في كتاباته (2).

يؤكد هذا النموذج كيف ان العلماء المغاربة نظروا الى القاهرة باعتبارها مقرهم ، وهم حتى لو غادروها لغيرها من مراكز الثقافة المشرقية فهم يغادرونها لبعض الوقت يعودون بعده الى هذا المقر الدائم.

(2) رسوخ الازهر كمؤسسة علمية من أهم المؤسسات المتواجدة في المشرق ، بل اهمها على الاطلاق في ذلك العصر.

وقد صدرت هذه الاهمية في جانبها الأول من حالة الاستقرار النسبي التي عرفتها مصر عن غيرها من الولايات العربية الواقعة تحت الحكم العثماني، ثم انها صدرت في جانبها الثاني من النظام الاقطاعي الذي شاع في مصر (نظام الالتزام) وهو نظام لم تحكمه الاعتبارات العسكرية كما حدث في شمال سوريا ، او الاعتبارات القبلية كما كان الحال في فلسطين وبعض نواحى العراق، أو الاعتبارات العنصرية شأن النظام الذي كان معروفا في مناطق الاكراد ، او الاعتبارات الأسرية كما حدث في جبل لبنان (3).

وقد سمح هذا النظام بالتوسع من وقف الاراضي او حبسها فيما عرف باسم اراضي «الرزق الاحباسية» التي كانت تمثل مساحات واسعة من الاراضي من جهات عديدة من البلاد (4) وكان القسم الأكبر من هذه الاراضي يحبس لأغراض التعليم وقد تمتع الازهر بجانب هام من ريع تلك الاحباسيات مما وفر له موردا ماليا لايتوقف.

وقد ساعدت هذه الوضعية السياسية والمالية التى تتسم بقدر معقول من الاستقرار والدوام على تفريغ الأجيال المتعاقبة من العلماء مما أكسب هذه المؤسسة

---

2) انظر: محمد عبد الغنى حسن: المقرى ـ صاحب نفح الطيب (القاهرة 1966)

3) انظر: جب وبوون . : المجتمع الاسلامى والغرب ج2

4) د. عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصرى في القرن الثامن عشر ص 69

سمعتها، ليس في العالم العثماني فقط بل في العالم العربي الاسلامي، ثم أنها من ناحية أخرى قد سمحت باستقبال الوافدين بعد أن كفلت لهم أسباب الأمان، وكانت قليلة في ذلك العصر ، كما كفلت لهم في نفس الوقت أسباب العيش ممثلا في نظام « الجراية» التى كانت تصرف لكل من يعلم أو يتعلم في الجامعة الاسلامية مما كان يشكل نوعًا من المنح الدراسية، أضف إلى كل ذلك توفير السكن من خلال نظام الاروقة والتي بلغ عددها 27 رواقًا (5) ولاشك أن كل تلك التيسيرات قد مكنت المنتمين للأزهر من التفرغ تمامًا لرسالتهم العلمية، وبالتالى جعلته مركزا من مراكز الجذب العلمى.

واذا اضفنا إلى ذلك على الجانب المغربي وجود «القرويين» في فاس التى تمتعت بمزايا قريبة من المزايا التى تمتع بها الأزهر، فقد كان من الطبيعي نشوء «علاقة خاصة» بين الجامعتين الاسلاميتين.

ويسجل الدكتور عبد الهادى التازى في دراسته الموسوعية عن « جامع القرويين» هذه الحقيقة بقوله « لقد ظلت صلة علماء القرويين برجال الأزهر جد متينة كما تدل على ذلك الاستفتاءات التي كانت ترحل وترد إلى رحاب القاهرة فيما يتعلق بأمر القبلة بفاس على سبيل المثال»، كما يلاحظ ان معظم الذين رحلوا من المشرق كانوا من مدينة فاس أو ممن درسوا في القرويين (6).

مثل آخر لهذه العلاقة الخاصة فيما جرى عام 1203هـ (1788) حين قرر السلطان محمد بن عبد الله اعادة تنظيم القرويين وأصدر قراره لهذا التنظيم، وما أن بدأ بتنفيذ القرار حتى ارسل إلى علماء الأزهر نسخة منه يطلب منهم أعمال النظر في الأمور التي قررها « فما كان منها على صواب اثبتوه واكتبوا عليه بخطوط ايديكم وما كان منها على خطأ فاكتبوا عليه أيضًا بخطوط ايديكم في الدفتر المذكور لنرجع عنه (7).»

مثل ثالث ان كثيرا من التعبيرات التي كانت مستخدمة في الأزهر شاع

---

(5) عبد الحميد يونس، عثمان توفيق: الأزهر ص 52

(6) د. عبد الهادى التازى: مصدر سابق ج2 ص 446

(7) ابن زيدان: مصدر سابق ج3 ص 214

استخدامها في القرويين، فكما أشارت المصادر أن العلماء في هذا الجامع الأخير اعتمدوا في حياتهم على « الجامكية» (8)، وهي كلمة فارسية تعنى أجرة مرتبة على رأس كل مدة محددة وكانت تستخدم في مصر في العصر التركى (9).

3) اما الرافد الأخير فيتمثل فيما نتج عن انضمام المغاربة لقافلة الحج المصرية ،فالمعلوم أنه بين قوافل الحج الأربعة التى كانت تتجه نحو الحجاز من شتى أنحاء الدولة العثمانية، وهي قوافل الشام والعراق واليمن ومصر، كان المغاربة ولأسباب جغرافية بالأساس يشكلون عنصرا من القافلة الأخيرة.

وقد استتبع هذا الارتباط نتائج هامة على الصعيد الثقافي، إذ لما كانت طبيعة الثقافة السائدة دينية بالأساس فقد امتزج الهدفان، الحج والأخذ بأسباب الثقافة السائدة، وأصبح من تقاليد الحجاج المغاربة الاتصال بالمراكز الثقافية في مصر، سواء في الأزهر أو في غيره والاحتكاك بها.

وكانت الظروف العامة تسمح بمثل هذا الاحتكاك..

فمن ناحية كان الحجاج يقضون وقتًا طويلا بعد وصولهم إلى مصر وقبل خروجهم في قافلة الحج، كذا بعد إيابهم من الحجاز وقبل رحلة العودة إلى بلادهم مما كان يتيح فرصة الاحتكاك.

ومن ناحية ثانية كان النظام التعليمى المعروف بنظام الأعمدة يسمح لمن يشاء بالتحلق حول استاذ العمود يتعلم منه ويناقشه حتى إذا ما أثبت جدارته اجازه الاستاذ.

يتضح ذلك من قراءة رحلة العياشي، فهو لم ينقطع خلال فترة تواجده في القاهرة عن حضور دروس علماء الأزهر والمعاهد الأخرى وذلك منذ اليوم الأول لدخوله المدينة، فهو يقول في موضع من رحلته: «ثم في الغد من يوم دخولنا حضرت بعد صلاة الصبح مجلس الشيخ المحقق العلامة المدقق الشيخ عبد السلام بن شيخ الاسلام ابى الامداد ابراهيم اللقانى يقرئ شرح النقاية لجلال السيوطى» (10).

---

8) عبد الهادى التازى: المصدر السابق ج2 ص 437

9) انظر الجبرتى: عجائب الآثار في التراجم والأخبار.

10) العياشي: المصدر السابق ج1 ص 126

ويقول في موضع آخر « ولم ازل اتردد مدة إقامتى بالقاهرة.. بمعاهدها الباهرة إلى شيخنا إبراهيم الميمونى.. وحضرت يومًا قراءته مع بعض طلبة الأتراك في تفسير البيضاوى وقرأ قراءة حسنة (11).

وأثناء رحلة العودة لم ينقطع العياشي أيضًا عن محاولة الاتصال بالعلماء المصريين في طريق رحلته، الذي لم يمر بالقاهرة هذه المرة، فهو لدى وصوله إلى دمياط كما يشير دخل مسجدها.. «وفيه طائفة من طلبة يقرأون ويدرسون على هيئة مافي الأزهر ولقيت بهذا المسجد الشيخ المدرس العالم العامل المحدث الراوية الشيخ عبد الله بن محمد الديرى وحضرت تدريسة بعد العصر في سيره شيخه أمام المحدثين الشيخ على الحلبى وقرأت عليه أوائل البخارى ومسلم وقرأت عليه الفاتحة واجازنى» (12).



وقد تعددت مظاهر الاتصال الثقافي بين البلدين بكثرة من قصد القاهرة من العلماء المغاربة، وما استتبع ذلك من اهتمام السلطات المغربية بمساندة الوجود الثقافي المغربي في مصر، ثم بإستقراء الآثار التى ترتبت على زيادة حجم هذه الاتصالات الثقافية بطول العصر العثماني إلى القرن التاسع عشر حين تأخذ هذه العلاقات إتجاهًا جديدا.

العلماء المغاربة في مصر:

على إمتداد القرون الثلاثة بين أوائل القرن السادس عشر الذى عرف الفتح العثماني لمصر وتوطيد السعديين لسلطتهم في المغرب وبين أوائل القرن التاسع عشر حين بدأ بناء الدولة الحديثة في كل من البلدين.. على امتداد هذه الفترة شهدت مصر أفواجًا من العلماء المغاربة الذين أتوا إليها واستقروا فيها وأخذوا منها وأعطوا لها.

وتشكل هذه الأفواج تيارا مستمرا في العلاقات الثقافية بين البلدين وان كان هذا التيار قد عرف تفاوتًا في أسباب القوة والضعف به ومظاهرها من قرن إلى آخر.

---

11) نفس المصدر والجزء ص 139

12) المصدر السابق ج2 ص 356

في القرن السادس عشر بدأ هذا التيار محدودا فلا تسعفنا كتب التراجم إلا بعدد محدود من أسماء العلماء المغاربة الذين قدموا إلى مصر.

تسجل هذه الكتب إسم « عبد الرحمن بن على سقين» الذي زار مصر أوائل القرن السادس عشر «وأخذ عن القلقشندى وزكريا الانصارى والسخاوى» (13).

وقد عاد الرجل إلى المغرب حيث استقر في فاس بعد أن «امتلأ عقله ويديه» (14).

تسجل أيضًا إسم «محمد بن مهدى الجرارى الدرعى»، وقد زار مصر ضمن رحلة له إلى الحجاز، وتشير المصادر الى إجازة العلماء المصريين له . وان كانت لاتسجل تاريخ الرحلة وتكتفى بتسجيل تاريخ وفاته 979هـ (15) (1571).

وتسجل ثالثا إسم «أحمد بن محمد ادفال» الذى زار مصر أواخر القرن السادس عشر، وقد زارها مرتين ولقى بها الشيخ محمد ابو المكارم ابن الشيخ أبو المحاسن البكرى «وتلقن منه واجازه»، ثم أنه حتى بعد رحيله إستمر يكاتب هذا الشيخ المصرى (16).

وهناك رابعًا « عبد الرحيم بن عبد الرحمن العصنونى التواتى» الذي زار مصر ودرس على أيدى كبار علمائها قبل أن يرجع إلى قريته، وتاريخ رحلته أيضًا غير معروف وان كان قد توفى قرب عام 990 (1582) (17).

خامس هؤلاء العلماء « أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد المكناسى الزناتى الشهير بابن القاضى» الذى درس على العالمين المصريين بدر الدين القرافى وسالم السنهوري وغيرهما خلال رحلته التى قام بها إليها عام 994 (1585) (18).

ويمكن تسجيل ملاحظتين عن هؤلاء العلماء المغاربة الذين زاروا مصر وسجلتهم كتب التراجم:

---

13) د. عبد الهادى التازى: المصدر السابق جـ2 ص 509

14) محمد حجي: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين جـ2 ص 349.

15) المصدر السابق جـ2 ص 533

16) محمد بن الطيب القادرى: نشر المثانى تحقيق محمد حجى، أحمد توفيق ص 200

17) حجى: المصدر السابق جـ2 ص 632

18) انظر عبد الهادى التازى جـ2 ص 517 ونشر المثانى ص 214

1) قلة عددهم بالمقارنة مع عدد الوافدين منهم قبل ذلك خلال عصر السلطنة المملوكية (الوطاسية في المغرب) أو بعد ذلك خلال القرنين التاليين (17 و 18).

2) ان جميع هؤلاء، على قلتهم، كانوا من المارين، أي لم نر تلك الظاهرة التى انتشرت بين علماء المغاربة الذين استقروا في مصر خلال القرنين التاليين، بل وجدنا بعضهم يبقى فيها إلى نهاية حياته.

ويعزى ذلك ـ في تقديرنا ـ إلى ماشهده القرن السادس عشر في المغرب من حالة من الاستقرار النسبى تبدت في ظهور سلطة مركزية قوية تكفلت برعاية العلماء والانفاق على التعليم مما بدا في سياسات مولاى عبد الله الغالب بأمر الله (1557 ـ 1574) أو في سياسات مولاى أحمد المنصور الذهبى (1578 ـ 1603).

وقد استتبع ذلك أن أصبح المغرب منطقة جذب للعلماء لامنطقة طرد لهم خاصة في المراكز العلمية المعروفة مثل القرويين في فاس والمؤسسات العلمية في مراكش.

ويمكن التدليل على صحة ماذهبنا إليه بالإشارة إلى أن عديدا من العلماء الذين رحلوا إلى المشرق عامة ومصر خاصة خلال القرنين التاليين قد رحلوا إليها مدفوعين بسوء الأوضاع السياسية في المغرب.

مثل على ذلك في «المقري»، أشهر هؤلاء، فقد غادر المغرب في بداية القرن السابع عشر فرارا من «سماسرة الفتن الذين اتهموه بالميل إلى من فرطوا في العرائش» (19).

ويشهد القرنان السابع عشر والثامن عشر زيادة حجم تيار علماء المغاربة القاصدين إلى مصر وتغير وضعيتهم.

فيما يتصل (بزيادة حجم التيار) يمكن ملاحظته في تلك الاعداد الوفيرة التي تسجلها كتب التراجم، المغربية منها أو المصرية، والتى خلفت اثرا ملحوظا في البلاد.

---

19) عبد الهادى التازى: المصدر السابق ج2 ص 519
محمد حجى: مصدر سابق ج2 ص 638

وإذا اعتمدنا تاريخ وفاة هؤلاء العلماء فإننا نجد في القرن السابع عشر مالايقل عن عشرين عالمًا مغربيا زاروا القاهرة.. من ابرزهم «شهاب الدين أحمد بن محمد المقرى» الذي ذهب إلى مصر عام 1027 (1617) وإستقر بها حتى توفى بعد ذلك بأربعة عشر عامًا. ومنهم « سعيد بن مسعود الماغوسى» الذى درس في مصر واجازه عدد من علمائها، وقد كتب فهرسًا سجل فيه اشياخه المشارقة والمغاربة (20).

منهم أيضًا «محمد بن عبد الرحمن الكرسيفى» الذى أخذ عن شيخ المالكية بمصر « على الاجهورى» وأجازه (21).

ومنهم رابعًا « على بن عبد الواحد الانصارى السلجماسي» الذى درس بمصر ورجع ليستقر بسلا (22).

أما خامسهم فهو «عبد العزيز بن الحسن الزياتي» وقد درس علم القراءة عن الشيخ «سلطان بن أحمد المزاحى» الذي كان له مجلس بالازهر وأطلق عليه لقب « أمام قراء المشرق» (23).

يليه «أبو عبد الله محمد الدلائى» الذى رحل إلى القاهرة عام 1080 (1669)، فأقبل عليه الطلاب والعلماء (24).

وآخر هؤلاء العلماء البارزين (25) كان « نور الدين حسن بن أحمد بن العباس المكناسي» وقد قدم إلى مصر عام 1074 (1663) وعاش فيها مابقى من حياته لأكثر من ربع قرن درس خلالها على اشهر العلماء المصريين أمثال الشبراملسي والبشبيشى ويحيى الشهاوى وغيرهم (26).

---

20) محمد حجى: المصدر السابق ج2 ص 398

21) نفس المصدر والجزء ص 610

22) نفس المصدر والجزء ص 449

23) نفس المصر والجزء ص 421

24) عبد الهادى التازى: المصدر السابق ج 3 ص 794

25) لم تذكر عددا آخر من هؤلاء مثل الدرعى والزياتى والسوسي والروداني

26) عبد الرحمن الجبرتي : مصدر سابق ج1 ص 119

ولم يقل عدد الوافدين من العلماء المغاربة على مصر في القرن التالي (الثامن عشر) اذ يمكن رصد أسماء عديدين في هذا الصدد أيضًا منهم « أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن زكرى» الذي ناقش فقهاء مصر وعقد له مجلس حضره علماء الأزهر الذين ناصروه واحدا واحدا (27).

منهمأيضا « عبد المجيدالزبادي» الذي لقى بمصر عددا من الاعلام مثل الشيخ محمد كشك المصرى والشيخ محمد الحفناوى (28)

منهم ثالثا « أبو عبد الله محمد بن سوده المرى الفاسي»الذي « عقد درسًا حافلا بالجامع الأزهر برواق المغاربة فقرأ الموطأ بتمامه وحضره غالب الموجودين من العلماء» (29).

كذا هناك الفقيه العلامة أحمد الورزازى الذي «وقعت له مع علماء مصر مناظرة ثم اجازوه» (30).

آخر هؤلاء المشهورين (31) الشيخ « محمد السقاط الخلوتي المغربي» الذي حضر إلى مصر وجاور بالازهر « وحضر على الاشياخ في فقه مذهبه وأخذ عن الشيخ محمود الكردي» (32).

اما فيما يتصل (بتغيير الوضعية) فهناك أكثر من ملاحظة:

1) فهناك طائفة من هؤلاء العلماء وان كانت قد ذهبت إلى مصر ، شأنها شأن غيرها في موكب الحج، الا أنها تخلفت عن العودة مع هذا الموكب وبقيت لسنوات طويلة تتعاطى العلم أو تدرسه في احدى مراكز القاهرة العلمية، حتى قررت أن تعود مرة أخرى بعد تلك السنوات وتصبح لها مكانة عظيمة في بلادها تكون قد اكتسبتها بالأساس خلال مدة بقائها في الشرق.

---

27) جعفر الكتاني : سلوة الانفاس (الطبعة الحجرية) ج 1 ص 158

28) د. محمد الاخضر : الحياة الادبية من المغرب على عهد الدولة العلوية (الدار البيضاء 1977) ص 247

29) الجبرتي: مصدر سابق ج 2 ص 150

30) محمد داوود : تاريخ تطوان ج 3 ص 85

31) فهناك من الاسماء الاخرى جسوس وبن شقرون والاسحاقي والجزولي السوسي وابو الحسن المغربي وعلى السقاط

32) الجبرتي مصدر سابق ج 2 ص 172

مثل على هذا « أبو بكر بن يوسف السكتاني» الذي رحل إلى مصر ثلاث مرات وبقى بها سنين متعددة حيث تلقى الدروس إلى أن عاد إلى مراكش ليتصدر التدريس بها (33).

2) اما الطائفة الأخرى، وهي الأهم، فهى تلك التي رحلت إلى مصر واستقر ابناؤها بشكل نهائي فيها حتى وافاهم الأجل بها وأصبح يطلق على كل منهم «دفين مصر».

ولا يعنى ذلك أن صلة أبناء هذه الطائفة بوطنهم قد انقطعت بل أنها استمرت من خلال أكثر من منفذ.

فهم من ناحية ظلوا في التراسل مع محبيهم وابناء وطنهم وتلامذتهم حيث تبادل الطرفان وبإمتداد فترة اقامتهم في مصر الكتابات العلمية. فهذا الشيخ يوسف التاملى من مراكش يستفتى العلامة المقرى في بعض المشكلات الفقهية (34) وهذا « على بن عبد الواحد الانصاري» أحد تلامذته الذى يكتب له عن نشاطه العلمى فيقول « وقد اجتمعت على من بركتكم في مدينة سلا جماعة من طلاب العلم وفتح الله تعالى على بتآليف عديدة منها (كغاية الطالب النبيل في حل الفاظ مختصر خليل) ومنها (شرح على المنهج المنتخب للزقاق في قواعد مالك) ومنظومة من أكثر من ألف بيت في السير والشمائل.. ومنها خطب وغير ذلك والكل من بركتكم» (35).

وهذا الشيخ المقرى نفسه يكاتب العلماء المغاربة، ولدينا الرسالة التي بعث بها إلى أبى بكر الدلائى يحدثه فيها عن بعض مؤلفاته مثل « فتح المقال في مدح -النعال- وازهار الكمامة في أخبار العمامة كل منها مجلد كبير فاح منه عنبر وعبير» ثم يرفق مع خطابه له « رجز اشتمل على زبدة كتابه»، كما يرفق أيضا قصيده له انتشرت انتشارا واسعًا في المشرق كتب منها أكثر من ألفى نسخة وزعت بالحرمين واليمن ومصر والشام « ودرستها بمكة وبيت المقدس ودمشق ومصر والاسكندرية ورشيد وغزة» (36).

---

33) الافراذي : صفوة من انتشر _ الطبعة الحجرية _ ص 112

34) ج 2 _ طبعة بيروت 1968 ص 470 _ 474

35) نفس المصدر والجزء ص 479 _ 480

36) نص الرسالة في القادري المصدر السابق ص 298 _ 303 وتاريخها اواخر ربيع الاول 1041هـ(1631)

أما المنفذ الآخر فقد تمثل في أولئك الطلاب الذين أتوا من المغرب وكانوا يسعون بالاساس الى التتلمذ على أيدى من سبقوهم من علماء وطنهم.

وتتعدد الأمثلة المؤكدة لهذه الظاهرة، منهم على بن العربي الفاسي المشهور بالسقاط الذي درس على مجموعة من علماء القاهرة، صحيح كان منهم عدد من المصريين لكن اختار في نفس الوقت اثنين من أشهر علماء المغاربة آنئذ في القاهرة فقرأ على « محمد بن عبد السلام البنانى كتب العربية والمعقول والبيان... وقرأ عليه بالازهر كثيرا من المسلسلات والكتب التي تضمنتها فهرست ابن غازى» وقد اجازا أخيرا في مصر عام 1143 (1730).

ودرس كذلك على « عمر بن عبد السلام التطاوني» جميع الصحيح وقطعة من البيضاوى بجامع الفورى عام 1136 (1723) (37).

مثل آخر « سيدي يحيى الشاوى» الذي استقر بالقاهرة للتدريس « واعصوصب عليه جماعة من طلبة المغاربة بالازهر فطار له صيت عند المغاربة الى أن توصل لأرباب الدولة » (38).



ويلاحظ أن عدد العلماء المغاربة الذين استقروا في مصر وعاشوا بها حتى نهاية حياتهم كان أكبر كثيرا خلال القرن الثامن عشر منهم خلال القرن السابق عليه.

ففي القرن الأول لم تسجل لنا كتب التراجم من هؤلاء سوى « نور الدين المكناسي» الذي توفى في مصر عام 1101 (1689) (39).

أما القرن الثاني (الثامن عشر) فقد حفل بأسماء هؤلاء منهم « خليل بن محمد المغربي الاصل المالكى» المتوفى في القاهرة عام 1177 (1763) (40).

---

37) الجبرتي : مصدر سابق ج 1 ص 383 ـ 384

38) العياشي : مصدر سابق ج 2 ص 368

39) الجبرتي : مصدر سابق ج 1 ص 119

40) نفس المصدر ج 1 ص 327

منهم أيضا « سيدى على بن العربي بن على بن العربي الفاسى الشهير بالسقاط» والذي ولد بفاس، وأول ذكر لوجوده بالقاهرة كان في عام 1136هـ (1728) وقد توفى فيها بعد زهاء نصف قرن عام 1183هـ (1769) (41).

منهم ثالثا « الناسك الصوفى الزاهد سيدي أحمد بن على بن جميل الجعفرى الجزولى السوسى» الذي ورد إلى مصر عام 1182هـ (42) (1768) وعاش فيها لعقد ونصف إلى نهاية حياته عام 1197 (1782).

رابعهم « أوحد الفضلاء واعظم النبلاء العلامة المحقق والفهامة المدقق الفقيه النبيه الاصولى المعقولى المنطقى الشيخ أبو الحسن بن عمر القلعى بن على المغربي المالكي» الذي قدم إلى مصر عام 1154 (1741) وبقى فيها بدوره حوالى نصف قرن حتى توفى عام 1199 (1784) (43).

آخرهم شيخ آخر من نفس عائلة السقاط هو «العمدة الصالح الورع الصوفى الضرير الشيخ محمد السقاط الخلوتي المغربي». وتشير المصادر إلى حضوره من المغرب إلى مصر دون أن تسجل تاريخ هذا الحضور وان كان قد توفى فيها عام 1209 (1794) (44)

ويمكن تفسير اضطرار ظاهرة استقرار عدد من علماء المغاربة في مصر ، بهذا الشكل النهائى وزيادة عددهم في القرن الثامن عشر عنهم في القرن السابع عشر من منطلقين.

أولهما: المنطلق المغربي اذ شهد القرن الثامن عشر في المغرب ما عرف « بعهد الاضطرابات» (45) وهو العهد الذى امتد بين نهاية عهد المولى إسماعيل عام 1727 واستمر لثلاثين عامًا حتى بداية عهد سيدى محمد بن عبد الله (1757).

وهذا العهد شهد عدم إستقرار في الوضعية السياسية تمثل في تدخل العسكريين في شؤون الحكم ووصل الأمر إلى اقتتال هؤلاء مما ادى إلى اضطراب

---

41) الجبرتي : جـ 1 ص 383 ـ 384

42) نفس المصدر جـ 1 ص 571 ـ 572

43) نفسه جـ 1 ص 601 ـ 602

44) نفس المصدر جـ 2 ص 172

45) انظر مجموعة رسائل في S.I.H.M. II Serie. Chantal de la Veronne Esp III.

حبل الأمن بالبلاد وهو اضطراب انعكس على الحياة الثقافية في المغرب وأدى إلى سعى العلماء الى البحث عن مراكز أخرى في العالم الاسلامى يمارسون فيها أنشطتهم وكانت القاهرة من أهم هذه المراكز.

ثانيهما: المنطلق المصرى .. حيث عرف القرن الثامن عشر في مصر وبشكل نهائى تفكك النظام العسكرى العثمانى ودخول العناصر المدنية في شتى ميادين الاستثمار بحيث أصبح ميدان الالتزام تكاد تهيمن عليه تلك العناصر.

ولما كان المغاربة، تجارا وملتزمون (46)، قد احتلوا مكانة هامة في هذا الميدان فقد استتبع ذلك أن وجد أولئك العلماء الذين رحلوا إلى مصر الظروف الملائمة لاستقرارهم مما اتضح من الاغداقات التى جاءتهم من مواطنيهم في تلك البلاد والتى مكنتهم من الاستمرار في عطائهم العلمى.

ولعل المثل الذى أوردناه في موضع آخر (47) عن الشيخ الشريف السيد محمد بن محمد البليدى المالكى المتوفى عام 1176 (1762) من أن تجار المغاربة قد اشتروا له بيتاً وقسطوا ثمنه على أنفسهم انما يحبد هذه الحقيقة (48)

غير أنه ما انتهى القرن الثامن عشر حتى أخذ وفود العلماء المغاربة إلى مصر في التضاؤل كما أن بقاءهم بها قد اقتصر على فترات محدودة، كانت على الارجح فترات مرورهم أثناء تأديتهم لفريضة الحج.

وهناك أمثلة عديدة على هؤلاء العلماء نذكر منهم الكتاني والمشرفى وعبد السلام الوزاني والطيب بن كيران وادريس العلوى.

ولعل تقلص الوفود العلمى المغربى، بطابعه التقليدي، إلى مصر يعزى لأسباب عديدة أهمها نشوء الدولة الحديثة فيها وما ترتب على هذا النشوء من ظهور نوع آخر من أنواع التعليم نجد للمغاربة فيه مكاناً وهو ماسوف تتم دراسته من بعد.

---

46) انظر الفصل الخامس « المغاربة في مصر ».

47) انظر الفصل الخامس ايضا.

48) الجبرتي : جـ ا ص 324

الحكومة المغربية والعلاقات الثقافية مع مصر:

اذا كانت فترات الاضطراب في أجهزة الحكومة المغربية قد ولدت ظاهرة كثرة وفود العلماء المغاربة إلى مصر واستقرارهم فيها فإن فترات إستقرار السلطة المركزية المغربية قد صحبتها ظاهرة هامة تمثلت في بذل السلاطين كل عناية لتوطيد العلاقات الثقافية لبلادهم مع المشرق خاصة مصر.

ولا يختلف اثنان في أن المغرب لم يشهد استقرارا للسلطة المركزية بقدر ذلك الاستقرار الذي عرفه في القرن السادس عشر في عهد مولاى أحمد المنصور الذهبي (1578 ـ 1603) أو الذى عرفه في القرن الثامن عشر في عهد مولاى محمد بن عبد الله (1757 ـ 1789).

ومن عهد هذين السلطانين نقتطف بعض اعمالهما التى تؤكد على عناية الحكومة المغربية بتأكيد علاقاتها الثقافية مع مصر.

بالنسبة للسلطان المنصور الذهبي فقد تعددت جوانب اسهاماته في العلاقات الثقافية بين البلدين.

يتمثل أحد هذه الجوانب في المراسلات العديدة التي تبادلها مع كبار علماء الأزهر في عصره.

أشهر هذه المراسلات كتبها المنصور الذهبي إلى « العابد التقى الحافظ الحسن الصدد ـ الاوحد ابى على حسن البكرى» الذى كان من ابرز أقطاب الجامع الأزهر في القرن العاشر الهجرى احتل كرسى والده شيخ الاسلام وكانت مجالسه في التفسير مشهورة بما يقرر فيها من المعانى الدقيقة والابحاث الغامضة (49).

ويؤكد المنصور في مراسلته على أهمية ما يصل المغرب من كتابات الشيخ البكرى « فلا تزال مواعظكم تنثر على اسماعنا حباها، ومكاتباتكم النافعة تخلد في انديتنا السلطانية صباها فانا بحمد الله ممن يحسن الاصغاء الى ذلك والاستماع»، كما يؤكد على استمرار التراسل بين الرجلين «ولاتزال أهله رسائلنا

(49) عبد الهادي التازي : رسالة المنصور الذهبي لأحد اقطاب الشرق
دعوة الحق العدد 6 و 7 ـ ابريل ماي 1967 ـ ص 98

بقدر الامكان تلوح عليكم في تلك الآفاق» (50)

والواضح أن إستمرار التراسل لم يقتصر على المنصور والشيخ البكرى بل استمر بعد وفاة هذا الأخير عام 993هـ (1585) إذ نعثر على رسائل من سلطان المغرب الى ابن الشيخ البكرى المدعو «أبو عبد الله زين العابدين محمد بن أبى الحسن البكرى الصديقى» والمؤرخة عام 1005هـ (1596) (51).

كما أن هذا التراسل بين المنصور وعلماء مصر امتد ليشمل آخرين غير الشيخ البكرى وابنه، منهم « الامام أبو محمد بن يحيى المصرى الشهير ببدر الدين القرافي» والذى تقلد منصب القضاء نحوا من خمسين عاماً له مؤلفات متعددة وتوفى عام 1008 هـ (1599) (52).

وقد طلب منه المنصور اجازة فبادر هذا إلى تقديمها بعد ان رأى « أمره تشريفا وتكريماً واقبالا واجلالا وتعظيماً»!. وهي مؤرخة في عام 1000هـ(1591م) وقد ضمنها كل صغيرة وكبيرة تتصل بحياته العلمية من شيوخه وشيوخ شيوخه وأنواع العلوم التى تلقاها وبعض ماذهب إليه بإعتباره مالكى المذهب وشاذلى الطريقة (53).

أضف إلى ذلك مراسلاته مع كل من الامام اسماعيل بن أحمد الشنوانى الوجار والشيخ أبو بكر بن اسماعيل الشنوانى.

أما الأول فقد كان من اعلام عصر ووضع تآليف عديدة خاصة على الفية بن مالك مما دعا المنصور إلى مراسلته طالباً منه نسخة من هذة التآليف بعد أن أرسل له مكافأة كبيرة (54)

نفس الشيء حدث من المنصور مع الشيخ « أبو بكر الشنواني» حيث ارسل له

---

50) نص الرسالة : المصدر السابق ص 101 ـ ص 103

51) نص الرسالة في ابو فارس عبد العزيز الفشتالي : مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا (دراسة وتحقيق د. عبد الكريم كريم) ص 189 ـ 191

52) عبد الهادي التازي : المصدر السابق ص 99

53) نص الاجازة الفشتالي : مصدر سابق ص 272 ـ 294

54) عبد الهادي التازي : مصدر سابق ص 99

عطية جزيلة راجيا منه أن يرسل له مؤلفه المشهور، شرح على الاسئلة السبع للشيخ جلال الدين السيوطى (55).

وقد أدت هذه المراسلات خدمة قيمة إلى المناخ الثقافى العام في البلدين حتى أن مصدرا من أهم مصادر تاريخ المغرب التي كتبت في عهد المنصور (56) كلف وزير القلم أبو فارس عبد العزيز الفشتالى بكتابته ردا على احدى مراسلات الشيخ البكرى التى اشتم منها المنصور عدم المام علماء الشرق بتاريخ بلاده بشكل كاف (57).

ويلاحظ أخيرا أن المنصور لم يقتصر في علاقاته بعلماء مصر على مجرد التراسل بل انه أرسل بعض أبناء المغرب النابغين للاحتكاك بهم والدراسة عليهم، وهو أشبه بإرسال البعوث العلمية في وقتنا الحاضر، مثل على ذلك «الفقيه العالم أبو محمد عبد الله بن محمد على الجزولى الدرعى» الذى اخذ عن علماء مصر نجم الدين الغيطى ومحمد بن أبى بكر العلقمى (58).

أما بالنسبة لمولاى محمد بن عبد الله فقد أخذت مساهماته في توطيد العلاقات الثقافية بين المغرب والمشرق ومنه مصر شكل المعونات المالية. وقد وجه السلطان المغربي هذه المعونات بالاساس للاغراض العلمية، ويمكن في هذا الصدد أن نميز بين نوعين منها..

الأول تمثل في تلك المعونات العامة التي كان يرسلها بشكل منتظم كل عام مع ركب الحجيج المغربي وكان يقوم بتوزيعها في العادة أما الباشا العثمانى واما أحد أبناء السلطان الذين يكونون على رأس ركب الحج.

فيسجل الجبرتيفيحوادث عام 1200هـ (1785) وصول مأسماه بصدقات « من مولاى محمد صاحب المغرب ففرقت على فقراء الأزهر وخدمة الاضرحة والمشايخ

55) نفس المصدر ص 99

56) مناهل الصف للفشتالي عبد العزيز

57) جعفر الكتاني : سلوة الانفاس (الطبعة الحجرية) ج 3 ص 284

58) عبد الله كنون : رسائل سعدية (تطوان 1954) ص 77 ـ 78

المفتين والشيخ البكرى والشيخ السادات والعمريين على يد الباشا بموجب قائمة ومكاتبة» (59) .

كما سجل عبد الرحمن بن زيدان في ذكر أعمال محمد بن عبد الله أنه وجه عام 1204 هـ (1789م) مع ولده « سيدى عبد السلام» هدية عبارة عن « ألف سبيكة من الذهب» أصحبها بقائمة وزعت بمقتضاها على أشخاص معينين في مصر والحجاز.

أما من وزعت عليهم في مصر فكانوا « فقهاء الاسكندرية ومدرسيها وسائر طلبتها وطلبة القرآن والعلم» ثم بعد ذلك « لمدرسى مصر والفقهاء وسائر طلبة الرواقات» خصص أقل من نصفها للفقهاء والمدرسين بالأزهر والباقى للطلبة مما كان أشبه بمنح دراسيه. كما خصصت مبالغ أخرى « للحسنين بمصر مائتان من البندقى وللامام سيدى محمد بن ادريس الشافعى مائة بندقى وللبكريين خمسمائة بندقى وللعمريين خمسمائة بندقى وللوفائيين مائة بندقى ولسيدى احمد البدوى مائة بندقى وللشيخ أبى العباس المرسى مائة بندقى وسيدى البصيرى مائة بندقى» . (60)

أضف إلى ذلك هبات خاصة كان السلطان محمد بن عبد الله يبعث بها لعلماء من المصريين مكافأة لهم على بعض ماأنجزوه من أعمال علمية. فهو قد ارسل إلى « الشيخ أبو الفيض السيد محمد بن محمد الشهير بمرتضى الحسينى الزبيدى» صلة لها قدر عام 1201هـ (1786) . وكان هذا العالم قد اكتسب شهرة فائقة حيث كان مقصدا لشتى المسلمين خاصة المغاربة. غير أن الشيخ الزبيدى، وكانت قد أصابته في اخريات حياته حالة من الانعزال والعزوف عن الدنيا أو ما أسماه الجبرتى « بالانجماع»، قد رد هذه الصلة مما اغضب السلطان المغربي وكتب له يلومه ويقول « انك رددت الصلة التى أرسلناها إليك من بيت مال المسلمين وليتك حيث تورعت عنها كنت قد فرقتها على الفقراء والمحتاجين فيكون لنا ولك أجر ذلك الا أنك رددتها وضاعت » (61).

---

(59) الجبرتي : مصدر سابق جـ 1 ص 619

(60) ابن زيدان مصدر سابق جـ 3 ص 232

(61) الجبرتي : جـ 1 ص 110 ـ 111

ولم تتوقف اهتمامات مولاى محمد بن عبد الله على إرسال تلك المعونات المالية لكبار المشايخ أو لطلاب العلم في مصر بل امتدت لتشمل نواحى أخرى ذات طابع ثقافي محض.

فهو يلوم الشيخ الزبيدى على قيامه بشرح كتاب الاحياء ويقول له « كان ينبغى أن تشغل وقتك بشيء نافع غير ذلك» ويورد في مراسلته التى كتبها للزبيدى بهذه المناسبة ما ذكره العلماء عن هذا الموضوع (62).

وهو يعجب بالقصيدة البائية التى نظمها « العيدروس» وهى قصيدة بليغة ومطولة وقد بلغت السلطان من الشيخ القادرى بن سوده الذي كتبها وجاء بها إلى المغرب ونوه بشأنها « حتى كتبت منها عدة نسخ» مما دعا مولاى محمد بن عبد الله الى تخصيص صرة كل سنة « تصل إليه مع الركب» (63).

وهو يجمع عديدا من كتب التاريخ والأدب من فاس ومراكش « الى أن اجتمع عنده عدة نسخ من ابن خلدون وإبن خلكان وقلائد العقيان والاغانى ونفح الطيب وتآليف ابن الخطيب، وملأ منها صناديق ووجهها مع الكاتب الصنهاجي يوقف بعضها بمصر وبعضها بالاسكندرية» (64).

وهو أخيرا يستشير علماء الأزهر كلما عنت له بعض الأمور وكان من أهم ما استشارهم فيه ما أجراه من تعديلات وتنظيمات لجامع القرويين (65).

التواصل الثقافي:

الواضح انه بإمتداد الفترة موضع الدراسة لم تنقطع أسباب التواصل الثقافي بين مصر والمغرب، فبالاضافة الى ماسبق تسجيله عن دور العلماء في العلاقات الثقافية بين البلدين فقد كانت هناك ادوات أخرى أدت إلى إستمرار التواصل يمكن أن نسجلها فيما يلي:

---

65) انظر الفصل نفسه

62) المصدر السابق جـ 1 ص 111

63) نفس المصدر جـ 1 ص 142

64) ابن زيدان : مصدر سابق جـ 3 ص 250

65) انظر الفصل نفسه.

1) كانت هناك تلك المناقشات والمحاورات العلمية التى لم تتوقف في أي وقت.. بعض هذه المناقشات أجراها الرحالة المغاربة الذين أتوا إلى مصر وقصدوا مجالسها العلمية.

ويذكر العياشي أشياء كثيرة عن ذلك الجو الذي ساده الحوار بينه وبين العلماء المصريين، فهذا حوار يجرى بينه وبين «الشيخ العلامة الفقيه موسى القليبى المالكى» يطلع فيه الأخير الأول على مؤلفه في الشمائل والسير (66). وهذه قصائد يلقيها الرحالة المغربي في عدد من مشاهير المشايخ المصريين مثل الشيخ الميمونى والشيخ عمر فكرون (67).

البعض الآخر جرى من خلال تبادل الرسائل بين العلماء مثل تلك المراسلات التي جرت بين محمد بن على التامگروتي على الجانب المغربي وعبد الرحمن التاجورى على الجانب المصرى وهو شيخ الفلكيين بها.

وقد بعث هذا الأخير برسالة علمية اصلاحية في بضع صفحات يتحدث فيها عما يلفه من انحراف قبلة مساجد المغرب، وخاصة مساجد مدينة فاس بإتجاه قبلة تلك المساجد الى الجنوب بدل المشرق وقد ناقش المسألة وحاول اثبات بطلان ذلك بادلة عقلية ونقلية وحث أخيرا على تعديل هذا الوضع « فالله الله ياسيدي محمد انظر في اصلاح قبلة مساجد المسلمين، فكل مسجد تجده مستقبلا جهة الجنوب، اجعل محرابه في الحائط الشرقى وسد محرابه الغربي وابعث رسولك إلى السلطان محمد (68) صاحب مراكش ينظر في محاريب بلاد مملكته واصلاحها وتصويبها إلى جهة مشارق الاعتدال » (69).

2) كانت هناك في نفس الوقت عمليات التبادل من خلال انتقال الأفكار والعلوم عبر أولئك الذاهبين الآيبين بين البلدين.

يشير المهتمون بعلم الحديث والسير ان حديث « المسلسل بالاولية» قد « سمعه الشيخ محمد بن عبد السلام بنانى من الشيخ على بركة وقد عرفنا من ترجمة

---

66) العياشي : مصدر سابق ج 1 ص 137

67) نفس المصدر ج 1 ص 136 ـ 138

68) هو محمد المهدي الشيخ 1544 ـ 1557

69) محمد حجي : مصدر سابق ص 546 ـ 547

الشيخ عمر بن عبد السلام لوقش التطواني انه كان يحدث بالحديث المذكور وان ممن روده عنه بعض كبار العلماء في الديار المصرية» (70).

بالمقابل يشير نفس المصدر أن طبيب المولى إسماعيل (1672 ـ 1727) المدعو عبد القادر بن شقرون « أخذ بمصر عن الشيخ أحمد الزيدانى مسائل كثيرة في كتاب ابن النفيس الذي اختصر فيه القانون لابن سينا ومسائل كثيرة من كتاب الارشاد لابن جميع » (71).

3) غير أن الجر الأساسى لهذا التواصل امتد على أعمدة من الكلمة المكتوبة وذلك من خلال الكتب التي تم تبادلها بين الطرفين وتتعدد الملاحظات حول هذا الجر.

الملاحظة الأولى: أنه قد تحمل العلماء أو الرحالة القادمون من المغرب إلى مصر مسئولية تنفيذ مهمة ضرورية وهى شراء الكتب العلمية وحملها معهم في طريق العودة. حتى أنه يمكن القول أن قدوم موكب الحجيج المغربى إلى مصر كان مناسبة هامة لانتعاش سوق الكتاب بها.

يمثل الشيخ « محمد بن عبد السلام البنانى الفاسى» الطائفة الأولى، وهي طائفة العلماء الذين أتوا إلى مصر لشراء الكتب منها، وكان الرجل قد بدأ في تأليف كتاب تحت عنوان « معانى الوفاء من معانى الاكتفاء» وبعد ستة عشر عامًا من العمل في هذا الكتاب ايقن الشيخ عبد السلام بضرورة الحصول على مصادر أخرى تعينه على إتمام عمله ولم يجد مناصًا من الرحيل إلى الشرق عام 1728 « فحج وحمل معه إلى المغرب من المصادر مايلزم» (72).

ويمثل « العياشى» طائفة الرحالة التى أتت تستجلب معها الكتب من مصر، ونترك للرجل رواية تأدية هذه المهمة.. يقول:

« كنت طول نهارى ذاهبًا وجائيًا في قضاء الاوطار وتهيئة أسباب الأسفار وشراء كتب. وقد يسر الله منها جملة اشتريتها نحو الخمسين من جملتها نسخة من الكشاف» (73).

---

70) محمد داوود : المصدر السابق ج 3 ص 160

71) نفس المصدر ج 5 ص 324

72) د. محمد الاخضر : مصدر سابق ص 253 ـ 254

73) العياشي : مصدر سابق ج 2 ص 359

ويبدو أن حركة نقل الكتب من مصر إلى المغرب كانت تتم على نطاق واسع حتى أن بعض العلماء المغاربة قد تمكنوا من اقتناء مكتبات كبيرة من خلال هذه الحركة.

يشير العياشي إلى ذلك بقوله « كنت رأيت قبل هذا بأرض المغرب عند أخينا الفقيه النبيه سيدى ابى عبد الله محمد المنقوشى ... مجموعاً بخط مشرقى كان في الأصل ملكاً للشيخ ياسين الحمصى مشتملا على أسئلة وأجوبة في فنون شتى».. (74).

الملاحظة الثانية: ماقام به بعض العلماء المغاربة من اسهام في حركة التأليف في مصر ، وقد وجدت كتب هؤلاء صدا هاماً في المغرب.

من هؤلاء « شهاب الدين المقرى» الذي ألف أغلب كتبه أو اتمها في مصر مثل كتابه « « اتحاف المعزم المغربى بتكميل شرح الصغرى» وهو في علم الكلام وقد بدأه في المغرب وأتمه في الاسكندرية، أو مثل كتابه المشهور «نفح الطيب» الذي بدأه وانتهى منه في القاهرة أضف إلى ذلك عددا آخر من الكتب ألفها أو أتمها في العاصمة المصرية مثل كتاب « فتح المتعال في مدح النعال» ومثل كتاب «اضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة » (75) .

فمنهم أيضاً « أحمد بن قاسم الحجرى المدعو افوقاى» والذى اتى إلى مصر بعد رحلة في أوربا حيث اتصل برجال الدين المسيحيين واليهود وحاورهم في مسائل دينية عديدة مستعينا بما يعرفه من التوراة والانجيل فضلا عن القرآن الكريم.

وفي مصر التى وصل إليها عام 1636م طلب منه شيخ الأزهر على الاجهورى أن يثبت محاوراته لرجال الدين المسيحيين في كتاب فألفه بعنوان « ناصر الدين على القوم الكافرين» (76) .

---

74) المصدر السابق جـ 1 ص 140

75) محمد عبد الغنى حسن : مصدر سابق ص 174 ـ 183

76) محمد حجي : مصدر سابق جـ 2 ص 403

الملاحظة الثالثة: وهي تؤكد على رواج سوق الكتاب المصرى فى المغرب، ذلك أن عديدا من المغاربة الذين عاشوا في مصر احترفوا مهنة نسخ الكتب بخط مغربي ذلك أن عديدا من المؤلفات التي كتبت في مصر أو عثر عليها في خزائنها نسخت عن طريق علماء ونساخ مغاربة وأخذت سبيلها إلى بلاد المغرب أو المكتبات العالمية. وقد اندثر بعضها ولم يبق منه سوى تلك النسخ التى نقلها المغاربة ولعل اشهرها مؤلف أحمد شلبى بن عبد الغنى «أوضح الاشارات فيمن تولى مصر من الوزراء والباشات» (77) .

العلاقات الثقافية خلال القرن التاسع عشر:

طرأ على العلاقات الثقافية المصرية ـ المغربية تغير هام ينتج عن تغير الوضعية في كل من البلدين..

ففي مصر شهد القرن التاسع عشر تحولات هامة في الجهاز التعليمى الذي استحدثه محمد على (78) (1805 ـ 1848) وتوسع فيه من بعد اسماعيل (1863 ـ 1879) فقد انصب اهتمام الدولة على تجديد التعليم بشكل ادى إلى اخفاق التعليم الدينى التقليدى الذى كان سائدا من قبل وحلول مؤسسات تعليمية عصرية محله.

وفي المغرب بدأ خلال النصف الثانى من نفس القرن الانفتاح على الحضارة الغربية والأخذ بمقوماتها، وقد استوعب السلاطين المغاربة على رأسهم كل من محمد الرابع (1859 ـ 1873) والحسن الأول (1873 ـ 1894) أهمية هذا التيار الجديد وشجعوه بشتى الوسائل.

استتبع ذلك تغير في طبيعة العلاقات الثقافية بين البلدين، ولما كانت مصر أسبق في بناء جهازها التعليمى منذ النصف الأول من القرن فقد كان من الطبيعى

---

[77] إن كنا نلاحظ ان الذي نسخ النسخة التي تم تحقيقها طرابلسي وليس مغرابي
عن عبد الرحيم عبد الرحمن : دور المغاربة من تاريخ مصر في العصر الحديث ـ القسم الثاني المجلة التاريخية المغربية عدد 12 ص 183

[78] انظر الفصل الخامس

أن تتلقى مرة أخرى وفودا من البلاد الاسلامية المختلفة للدراسة في مؤسسات هذا الجهاز. وكانت المغرب في طليعة هذه البلدان.

غير أنه ينبغى قبل التطرق بالحديث عن العلاقات الثقافية بين البلدين في ثوبها الجديد الإشارة إلى أن تلك العلاقات قد عرفت فترة من الركود النسبى خلال النصف الأول من القرن.

يتضح هذا الركود فيما سبقت الإشارة إليه لدى تناول موضوع العلماء المغاربة في مصر من أن تيارهم قد تقلص بشكل واضح مع بداية تكوين الدولة الحديثة فيها ، اذ في تلك الفترة لم يكن المغاربة بعد قد تهيأوا لقبول التغيير والانخراط في سلك التعليم العصرى، هذا من جانب،ومن جانب آخر كانت مصر تشهد استكمال بناء جهازها التعليمى وقد بدأ بالأساس جهازا عسكريا مما لم يكن يسمح بالتالى بقبول الوافدين في مؤسساته.

اما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وعلى عهد كل من سعيد واسماعيل في مصر وكل من محمد الرابع والحسن الأول بالمغرب فقد عادت تلك العلاقات للانتعاش، وهي علاقات شجعها الحكام في البلدين.

على الجانب المغربى رأى السلاطين ضرورة الأخذ بأسباب التقدم الغربي غير أنهم راوا في نفس الوقت ان احتكار دولة أوربية لادخال تلك الأسباب في بلادهم قد يؤدى في نهاية الأمر إلى توطيد نفوذها وما يستتبع ذلك من احتمالات فرض سيطرتها الاستعمارية على البلاد.

ادى ذلك إلى أن ينفذ هؤلاء السلاطين خطة دقيقة في عملية الأخذ بأسباب التقدم الاوربي قامت على ارسال الطلاب المغاربة إلى شتى البلاد الاوربية التى يمكنهم الاستفادة منها مثل، أنجلترا، وفرنسا، واسبانيا، وألمانيا، وإيطاليا، وبلجيكا (79) دون أن تحتكر دولة منها مركز الصدارة.

وكان من الطبيعى مع هذا الفهم إذا وجد هؤلاء السلاطين دولة من غير تلك الدولة الاوربية، خاصة إذا كانت إسلامية، تستطيع أن تستقبل بعوثهم وبشكل

79) محمد المنوني : مظاهر يقظة المغرب الحديث جا ص 123 _ 144

يؤدي إلى الحصول على الفائدة المرجوة، أن يوجهوا إليها أبناءهم.

ولم تكن هناك دولة عربية إسلامية قد استكملت مقومات هذا الهدف سوى مصر، ومن ثم كان من الطبيعى أن توجه الحكومة المغربية بعض أبنائها إليها.

أما على الجانب المصرى فهو لم يكن أقل حماساً في إستقبال البعوث من أبناء البلاد العربية، ثم أنه في نفس الوقت لم يكن أقل فهما للحقيقة التى توصل إليها السلاطين المغاربة.

يبدو ذلك من الرسالة الطويلة التى كتبها حاكم مصر اسماعيل باشا إلى السلطاع محمد بن عبد الرحمن (80) جاء فيها.

« لقد ضاعف لى مزيد السرور عناية جنابكم العالى بهذه الأمور (81) فأنا بحمد الله في ملة الاسلام ومتابعة النبى عليه الصلاة والسلام والدين في كتاب الله أخوه ونسبه مرجوه قال سبحانه انما المؤمنون اخوة وأمرنا بالتعاون على الجد في محكم القرآن فقال جل من قائل وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان وقد شبه المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم باعضاء الجسد واجزاء البنيان فوجب أن تتحد قلوبنا وتتعاون أفكارنا وتتوافق أنظارنا وتنتفع ببعضها ديارنا فمهما كان من أحد الطرفين من صنعة ترغب أو علم يطلب أو مزية تسحب كان للآخر أن يستفيد منه ويأخذ علم ذلك عنه» (82).

وانطلاقا من هذا الفهم بدأت تلك المرحلة الجديدة من العلاقات الثقافية المصرية ـ المغربية والتى يمكن رصدها في الجوانب الآتية حسب أهميتها.

1) الجانب الأول تمثل في البعثات التي أرسلها كل من السلطان محمد الرابع والحسن الأول إلى مصر، وقد أمكن حصر خمس من هذه البعثات..

أولها: البعثة التى ذهبت إلى مصر في عهد سعيد باشا بين عامى 1276 و

---

80) نص الرسالة في دار الوثائق القومية (مصر) معيصنية عربي قيد الاوامر الكرام الصادرة للاقاليم دفتر 1923 رقم 13 منكورين سايره ـ صورة المحرر من طرف ولى النعم الى حضرة سلطان المغرب 15 جمادي أولى 1283 هـ ملحق رقم (1)

81) يقصد بها أمور التعليم التي طلبها السلطان محمد الرابع منه

82) الوثيقة المشار اليها سابقا

1286 (1859 ـ 1863) وقد ضمت شابين، احدهما (83) ذهب لتعلم الجغرافيا، وقد وضع كتابا تحت عنوان «كتاب الجغرافية المغربية». (84) وثانيهما (85) ذهب لتعلم الفلك (86).

ثانيها: البعثة التى أرسلها محمد الرابع أيضا وضمت واحدا لتعلم الطباعة وثلاثة لتعلم صناعة البارود.

وينظر بعض المؤرخين المغاربة إلى هؤلاء المبعوثين باعتبارهم يشكلون بعثتين (87) غير أن الرسالة الطويلة التى كتبها إسماعيل باشا إلى محمد بن عبد الرحمن تؤكد أن الجميع قد ذهبوا سويًا وأنهم أرسلوا لتلقى ما تقرر أن يتلقوه من فنون وعلوم في وقت واحد.

فقد جاء في هذه الرسالة.

« .. فأما الوارد بصدد المطبعة فأرسلناه إلى البيك ناظر دار الطباعة وأوعزنا إليه باداائته جميع ما يلزم لهذه الصناعة والاعتناء بتمرينه على إستعمال ادواتها وتوفيقه على كيفية ادارة آلاتها وسائر كيفياتها على تنوع حالاتها، وأما الواردون من أجل صنيعه الزريج (البارود) فأرسلناهم إلى الباشا وكيل ديوان الجهادية المصرية في الحال ووصيناه بالاعتناء بتعليمهم كل ما يلزم لاكمال صناعة البارود من الأعمال والاشغال وأخذها عن أهلها المتقنين وأربابها المجيدين المتفننين حتى يحصلوا على البراعة في اشغال تلك الصناعة» (88).

ثالثها: وهي البعثة التى كانت بصدد التوجه إلى مصر عام 1283 (1866)، والواضح أنها كانت استجابة لما جاء في رسالة إسماعيل باشا لمحمد الرابع من وجود

______

83) هو احمد شهبون

84) المنوني : مصدر السابق 196

85) هو محمد بن كيران الفاسي

86) المنوني : مصدر سابق ص 114 ـ 115

87) نفس المصدر والصفحة

88) دار الوثائق القومية مصر ـ الوثيقة رقم 13 دفتر معيه عربي 1923

« مدارس عديدة لتعليم فنون.. جر الاثقال والاستحكامات والفنون الحربية والأصول العسكرية النظامية إلى ما يوجد من المعامل والمصانع لعمل البنادق والجلل والمدافع وما يتعلق بها من الاعمال والصنايع وما يلزم للحرب والكفاح من أنواع العدد والسلاح» (89).

وتسجل رسالة سلطان المغرب (90) في تشكيل هذه البعثة طبيعة هذه الاستجابة فيما جاء فيها.

« وقد بلغ إسماعيل باشا اهتمامنا بالأمور الجهادية.. فاقتضى نظرنا تعيين ثلاثين من الاولاد الصغار النجباء وتربيتهم بحضرتنا الشريفة في تعلم مالابد منه من مقدمات ذلك من حساب وتوقيت وهندسة وشبه ذلك، ثم نوجههم بعد لمصر» (91).

ولا يمكن الجزم اذا ما كان هؤلاء الأولاد قد تم إرسالهم إلى مصر أم لا خاصة وأنه لايوجد ضمن الوثائق المصرية ولا المغربية مايفيد بذلك.

رابعها: وهي البعثة التى ارسلت في منتصف السبعينات وقد ضمت اثنين من رجال الصناعة بالاضافة إلى عديد من الطلاب.

وليس هناك أيضًا ما يفيد عن عدد هؤلاء وان كان سجل النفقات المخزنية قد صنفهم إلى ثلاث رتب على أساس المنحة التى يتقاضاها أبناء كل رتبة منها مما يقطع بكثرتهم (92).

خامسًا:وأخيرا هناك ذلك الطالب الذي ذهب لدراسة الطب في القاهرة عام 1291 هـوالمدعوعبد السلام العلمى أو كما لقبته الشهادة التى حصل عليها « عبد السلام المغربي الفاسي»

وتتحدث هذه الشهادة بالتفصيل عن قدوم الطالب المذكور بأمر «السلطان مولانا الحسن.. ادام الله أيامه.. للتمرين على نفائس العلوم المستجدة الطبية بالمدرسة الطبية الخديوية المصرية، المتداولة الآن، فيّ جميع البلدان».

---

89) الوثيقة السابقة

90) رسالة محمد الرابع الى الحاج محمد بن سعيد السلاوي 5 حجة الحرام 1203

91) نص الرسالة في المنوني ص 116 ـ 117

92) المصدر السابق ص 117

ثم تفصل الشهادة العلوم التى درسها الطالب المغربي وكيف أنه قد تفوق فيها « ونال بذلك طريق الرشد والسداد» (93).

2) تمثل الجانب الثاني في طلب بعض المستحدثات التي دخلت مصر منذ وقت مبكر، والمطالبة بمن يجيد العمل عليها.

ولقد تم استجلاب هذه المستحدثات وخبرائها عن طريقين..

أولهما: طريق الاتصال الحكومى ، فقد طلبت الحكومة المغربية عام 1281هـ بعض خبراء صناعة السكر.

بادرت السلطات المصرية بإرسال خبيرين في هذه الصناعة ومعهما خطاب من إسماعيل باشا إلى السلطان محمد الرابع جاء فيه..

« حسبما اشرتم تعين شخصان من صانعى السكر بالديار المصرية أحدهما له إلمام بالبضاعة القديمة والآخر يعرف العمليات الجديدة، وهاهما متوجهان إلى اعتاب ناديكم المبارك عند وكيل السعادة المقيم بهذه الأقطار (94).

والمأمول أنه بشمولهما بالنظر الكريم يستحسن مايبديانه من الصناعة ويستحلا ما يكررانه من البضاعة ويحصل بهما النفع العام» (95).

ويبدو أن الخبير الذي « يعرف العمليات الجديدة» لم يجد في المغرب « مكينة جديدة» يعمل عليها. دعا ذلك السلطان إلى أن يكتب للحاكم المصرى في العام التالى يطلب منه هذه المكينة، وكما كتب بعد « تجديد أسباب الود التى تزيد بطول العمر اعظم تأكيد وإخلاص الدعاء لكم بالاعانة واليمن والتأييد واعلامكم أننا كلفنا وكيلنا بتلك الديار المعظمة الازهى الحاج محمد افروخ بان ييسر لجانبنا العالى مكينة جيدة صالحة لخدمة السكر على حسب ما رسمناه له وأن يوجهها لحضرتنا العالية بالله بعد الاختبار والامعان في الاختيار. (96).

---

93) نص الشهادة : المنوني : مصدر سابق ص 118 ـ 123

94) يقصد وكيل المغاربة في مصر وكان انئذ الحاج محمد افروخ

95) دار الوثائق القومية (مصر) معيه سنية عربي 23 جـ 1 وثيقة رقم 9 جهات سايرة ص 41 الى سلطان المغرب 15 جمادى اولى 1281 (دواوين)

96) دار الوثائق القومية (مصر بحر برا محفظة 19 وثيقة 116 من محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الى اسماعيل باشا 18 جمادى اول 1282

(ملحق رقم 3)

ثانيهما: طريق المبادرات الفردية، ففى عام 1281هـ-1864م نجح قاضى تارودانت المدعو « محمد الطيب الروداني» أثناء تأديته فريضة الحج ومروره بمصر في شراء مطبعة حجرية والتعاقد مع طبيع مصرى هو « محمد القباني» واستحضر الاثنين معه، المطبعة والطباع.

والواضح أن هذا العمل قد خلف أثرا هامًا في الحركة الثقافية المغربية، وقد استقر القباني أولا لنحو عام في مكناس تمكن خلاله من طبع كتاب « الشمائل الترمدية »

غير أن الطبيع المصرى استقر في فاس منذ عام 1282هـ(1865) حيث حملت المطبعة إسم « المطبعة السعيدة» أو«المطبعة المحمدية» نسبة للسلطان محمد الرابع، وهناك أكثر من ملاحظة حول هذه المطبعة.

1) فهى تعتبر بمثابة نقطة البداية في دخول فن الطباعة الى المغرب بكل ماترتب على ذلك من معطيات في الحقل الثقافي.

2) تشكلت هيئة للمطبعة كانت تشتمل بعد الطبيع المصري على ناسخ ومصحح وعدد من المعاونين بلغ العشرين.

3) كانت هذه الهيئة أشبه بالمدرسة التى تفرخ خبراء جدد في فن الطباعة، فمن بين معاونى القبانى اتقن عدد منهم هذا الفن أمثال الطيب بن محمد الأزرق الفاسي، والمكى ابن الوزير محمد بن ادريس العمروى الفاسي (97).

★ ★ ★

لانعثر بعد عهد الحسن الأول على ما يشير إلى إستمرار هذه العلاقة الثقافية المصرية ـ المغربية والسبب واضح.

فعلى الجانب المصرى كانت قد تعرضت البلاد خلال عهد هذا السلطان للاحتلال العسكرى من جانب احدى القوى الاوربية الكبرى (بريطانيا) ـ 1882 ـ

97) محمد المنونى: مصدر سابق ص 205 ـ 208

وتمخض عن ذلك سياسة استعمارية استهدفت تقليص الجهاز التعليمى في البلاد، كما أن هذه السياسة كانت على وجه اليقين عازفة عن توثيق روابط مصر بسائر الدول العربية الاسلامية.

أما على الجانب الآخر فقد كان على المغرب أن يواجه بعد الحسن الأول ظروفًا أدت من ناحية إلى صرفه عن سياسة التحديث التي أسرعت الخطى في عهد هذا السلطان، كما أنها أدت من ناحية أخرى الى لوى وجهه بعنف تجاه أوربا التى جاءته منها رياح الأطماع الاستعمارية.

الفصل الخامس

المغاربة فى مصر
الدور الاقتصادى والعسكرى والسياسى

مكانة المغاربة فى النشاط الاقتصادي بمصر

مكانة أهل العلم المغاربة في المجتمع المصري

دور العسكريين المغاربة في مصر العثمانية

المغاربة في مصر في ظل الدولة الحديثة

المغاربة فى مصر

الدور الأقتصادى والعسكرى والسياسى

. الوجود المغربي في مصر سابق على العصور الحديثة ، فمنذ ان انتظم الاسلام البلدين استمر المغاربة يرنون الى المشرق ويتشوفون الى زيارته بكل ما أصبح يمثل في وجدانهم من معان دينية.

أما بالنسبة للفترة موضع الدراسة فقد توفرت أيضا الظروف التي ادت الى استقرار المغاربة بالمشرق عامة وبمصر على وجه الخصوص وفيما يلي نستعرض بعض هذه الظروف :

(1) استمرار فكرة الدولة الاسلامية العامة في إطار الهيمنة العثمانية على أغلب العالم العربي الاسلامي، وترتبت على هذا ظاهرة هامة وهي خفوت التمايز القومي او الجنس داخل هذه الدولة ، وقد سمحت هذه الظاهرة باستقرار المغاربة في اي قسم من البلاد العثمانية ، ومنها مصر، دون شعور بالاغتراب.

(2) دور مصر في خدمة الاسلام بالاضافة الى دورها المستمر بالنسبة لحجاج شمال افريقيا كمرتكز انطلاق للديار المقدسة ، وهو الدور الذي استمرت تعلبه بالنسبة لهؤلاء منذ ان ساد الاسلام في المنطقة الممتدة من البحر الاحمر شرقا الى المحيط الاطلسي غربا.

ويعبر ابن خلدون عن فهم المغاربة لهذا الدور بقوله « ..ولم تزل ملوك المغرب على القدم ولهذا العهد، يعرفون لملوك الترك بمصر حقهمويوجبون لهم الفضل والمزية، بما خصهم الله من ضخامة الملك. وشرف الولاية بالمساجد المعظمة، وخدمة الحرمين الشريفين » (1).

ـ 3 ـ مسؤولية مصر عن الحجاز سواء في العهد المملوكي او في العهد العثماني مما جعل القاهرة المركز الاساسي في المشرق للثقافة الاسلامية حيث استمر يقصد الأزهر العلماء من شتى نواحي العالمالاسلامي ومنه المغرب (2).

ـ 4ـ قيام دول مستقرة في مصر، كان آخرها الدولة المملوكية،وقد أتاح هذا الاستقرار قدرا معقولا من امكانية خلقالسوق وفرص الاتجار دون تمييز.

5 ـ وتبدو أهمية الوجود المغربي في مصر من تلك العناية الواضحة التي بدت من جانب السلاطين المغاربة لهذا الوجود.

ويعثر الباحثون على عديد من الرسائل التي كتبها هؤلاء السلاطين للحكام المصريين، وقد استمر الطرفان يتبادلان مثل هذه الرسائل بطول العصور الوسطى وحتى القرن التاسع عشر.

والملاحظ ان اغلب ما تضمنته تلك الكتابات قد دار حول المطالبة بتسهيل اقامة المغاربة في مصر والتيسر عليهم في شؤونهم

★ ★ ★

هذا ، وقد تنوعت أشكال الوجود المغربي في مصر، في الفترة موضع الدراسة، وقد جاء هذا التنوع على مستويين :

المستوى الأول : يتصل بالمدى الزمني لهذا الوجود ..اذ بينما اتخذ بعض المغاربة مصر ممرا حيث تواجدوا فيها بشكل مؤقت اثناء توجههم الى الديار المقدسة او عودتهم منها (3) ، فقد اتخذها آخرون مقرا لبعض الوقت، مثل العلماء

---

1) انظر : محمد المنوني : علاقات المغرب بالشرق في العصر المريني الاول
دعوة الحق ـ عدد 8 مارس 1965 ص 61

2) انظر الفصل الرابع
3) انظر الفصل الثاني

الذين قصدوا الأزهر لتلقى العلم أو إلقاء الدروس ، ثم هناك آخرون اتخذوها مقرا طول الوقت تتمثلفي تلك العناصر التي مارست بعض الانشطة الاقتصادية أو اصبحوا ضمن الفئات العسكرية.العديدة التي عرفتها الدولة العثمانية مما تطلب اقامة دائما.

وبالاضافة الى هؤلاء وأولئك كان هناك المغاربة الذين ولدوا في مصر وعاشوا فيها حياتهم. وكان مما سمح لهؤلاء الاحتفاظ بمغربيتهم ذلك التنظيم الفئوى الذي ساد المجتمع المصري خلال العصر العثماني.

المستوى الثاني : ويتصل بنوعية النشاط الذي مارسه المغاربة الذين استقروا في مصر ، وقد تعددت وجوه هذا النشاط من اقتصادي الى عسكري الى ثقافي.

وقبل التعرض بالدراسة لكل مجموعة منمجموعات المغاربة تبعا لما مارسته من نشاط فيمصر تنبغي الاشارة بان ذلك التقسيم كان نظريا من بعض جوانبه، اذ كثيرا ما كان العلماء يتعاطون بالتجارة، وكثيرا ما حاز العسكريون اراضي الالتزامات وأصبحوا من الاقطاعيين.. وهكذا..

والسبب في الاخذ بالتسقيم القائم على نوعية النشاط الذي مارسته كل فئة وهو شيء ظاهر أكثر من التقسيم القائم على مدة الاستقرار.

مكانة المغاربة في النشاط الاقتصادي بمصر :

تميز الوجود المغربي في مصر على امتداد الفترة موضع الدراسة (1517 ـ 1912) بمكانة خاصة في النشاط الاقتصادي بالبلاد ، وقبل التعرض بالمتابعة لحجم هذه المكانة تنبغي محاولة تفسير أسبابها :

1 ـ يرتبط أول هذه الأسباب بمحاولة تحديد الوضعية المغربية داخل الفئات من غير المصريين التي مارست نشاطاتها الاقتصادية داخل البلاد.

ويجب التمييز بين صنفين من هذه الفئات .. الفئات الأوربية والفئات الأخرى من العرب والمسلمين

بالنسبة للفئات من النوع الأول ـ الاوربيين ـ ، فقد مر نشاطها الاقتصادي في البلاد بثلاث مراحل :

تواكب المرحلة الأولى الفترة المتقدمة من العصر العثماني حيث تعرضت أقسام من المشرق العربي ،خاصة المناطق المقدسة (4) ، الى الغارات البرتغالية ، واذا اضيف الى ذلك حروب الجيوش العثمانية في أوربا في نفس الفترة لامكن فهم اسباب الحالة العامة من القطيعة التي سادت بين الطرفين.

ولم تسمح هذه الحالة بالطبع للتجار الاوربيين بممارسة ذلك النشاط الذي اعتادوا على القيام به خلال العصر المملوكي.

وكان من المنطقي ان يتيح الفراغ الذي خلفه توقف نشاط هؤلاء الفرصة لزيادة النشاط الاقتصادي للتجار العرب المسلمين والمغاربة في طليعتهم.

أما المرحلة الثانية فقد اعقبت « معاهدة الصداقة والتجارة بين الامبراطورية العثمانية وفرنسا » المعقودة في فبراير عام 1535 (5) والتي اتاحت للاوربيين عامة والفرنسيين على وجه الخصوص .. اتاحت لهم الفرصة للعودة لممارسة نشاطاتهم الاقتصادية في مصر.

غير أنه ، بالرغم من ذلك ، استمرت محدودية النشاط التجاري الاوربي حيث ظل الاوربيون محاصرين اجتماعيا واقتصاديا في وكالات متناثرة هنا وهناك ، ناهيك عن انصراف اوربا نفسها في تلك المرحلة لميادين اخرى خاصة ما اتصل منها بنشاطها الاستعماري في آسيا والعالم الجديد بقاراته المتعددة.

وكان من المنطقي – للمرة الثانية – استمرار النشاط الاقتصادي المغربي في تلك المرحلة أيضا دون منافسة تذكر من الجانب الاوربي.

وقد صاحبت المرحلة الثالثة قيام الدولة الحديثة في مصر خلال القرن التاسع عشر وما استتبع ذلك من توسيع الاوربيين لوجودهم ونشاطاتهم الاقتصادية في البلاد.

ترتب على هذه الوضعية الجديدة أن بدأ في نفس الوقت تقلص الأنشطة التجارية للفئات العربية الاسلامية حتى انه لم تأت نهاية القرن الا وكان هذا النشاط قد تقلص بشكل حاد بما فيه نشاط الفئات المغربية.

---

4) د. عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج 2 ص 698.

5) عرض وتحليل المعاهدة – المصدر السابق ج 2 ص 708 – 714

أما الفئات من النوع الثاني ـ العربية الاسلامية ـ ، فقد احتل المغاربة مكانة خاصة داخل هذه الفئات، ويمكن تبين أسباب هذه المكانة على ضوء الاعتبارات الآتية ...

كانت تصل الى مصر القوافل التجارية من ثلاثة اتجاهات عربية اسلامية هي :

الأول : من الجنوب (السودان اوافريقيا) حيث كانت السلع التي تشتهر بها تلك المناطق تأتي بطريق القوافل المشهورةالمعروف باسم « درب الاربعين » من دارفور غرب السودان الى اسيوط في صعيد مصر. ويلاحظ هنا ان القادمين في تلك القوافل كانوا لايتجاوزون اسيوط شمالا . أما بقية الطريق الى القاهرة فقد كان يهيمن عليه التجار المصريون مما أدى الى ضآلة وجود التجار السودانيين في المناطقالواقعة شمالى هذه المدينة.

الثاني : من الشرق (الشام) حيث كان التجار الشوام في حال ذهاب وعودة مستمرة. وقد شجع هذا الشكل منحالة عدم استقرار هؤلاء في مصر قرب المنطقتين وسهولة الانتقال بينهما.وادى ذلك بدوره الى عدم تواجد مجموعة قوية من تجار الشام في مصر.

بقي الطريق الثالث والأهم وهو الطريق الغربي من حيث اتى المغاربة.وقد اختلفت ظروف هذا الطريق عن ظروف الطريقين السابقين وتتبدى جوانب الاختلاف فيما يلي :

1 ـ ان المغاربة لم يأتوا بهدف التجارة وحده . بل أتوا قبل ذلك بهدف الحج،وكان تحقيق هذا الهدف يحتم الوصول الى الحجاز عبورا بمصر. كما كانيحتم في نفس الوقت قضاء فترة قدتطول على الاراضي المصرية انتظاراللخروج مع قافلة الحج (6).

2 ـ ثم أن البعد المكاني عبر هذا الطريق جعل الانتقال من المغرب الى مصر ليس بسهولة الانتقال عبر الطريقين الأولين، وكان ذلك يؤدي بالضرورة الى الاستقرار في مصر لوقت قد يطول فياعقاب رحلة القدوم وقبيل رحلة العودة ، وكثيرا ما

---

6) انظر الفصلين الثاني والثالث

كان يتحول هذا الاستقرار المؤقت الى استقرار نهائي مما سيتضح عند دراسة نماذج لتجار المغاربة الذين عاشوا في مصر وتتابعت الاجيال من أسرهم على ارضها.

وقبل التطرق الى هذه النماذج ينبغي تسجيل اكثر من ملاحظة :

الملاحظة الاولى : كان هناك نوعان من النشاط التجاري الذي زاوله المغاربة في مصر .. اولهما : ذلك النشاط الذي مارسه المغاربة من الحجاج خلال عبورهم للاراضي المصرية مما يمكن اعتباره تجارة عبور أو (تجارة ترانزيت).

مثل على ذلك ما أشار اليه « ابوالقاسم الزياني » من أن والده ترك بضاعة الى صديق له في مصر ليبيعها ، وكان ماتقاضاه من ثمنها بمثابة الانقاذ له من ورطة مالية كان قد وقع فيها اثناء وجوده في الحجاز (7)

والواضح ان تجارة الترانزيت قد اكتسبت شكلا من أشكال الديمومة حتى انه كثيرا ما كانت المعاملات تتم بالنقد ، كما عرفت نظام الدفع الآجل ونظام الفوائد التي تراوحت بين 1 % و 12 % دون أن يمس ذلك بمبادئ الشريعة (8)

أما النوع الثاني من النشاط فيتمثل من ذلك الدور الذي ادته أعداد من الأسر المغربية التي استقرت في مصر وكونت ثروات كبيرة من الاشتغال بالتجارة مما يمكن توصيفها بالتجارة المستمرة او المستقرة. .

الملاحظة الثانية : تراوحت أهمية كل نوع من النوعين السابقين تبعا للظرف التاريخي . اذ بينما كانت «تجارة الترانزيت » هي التجارة الأهم خلال الفترة الأولى من الحكم العثماني حين كان الاستقرار المغربي في البلاد محدودا فانه بعد زيادة حجم هذا الاستقرار خاصة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فالملاحظ ان النوع الثاني من النشاط التجاري للمغاربة اصبح النوع الأهم وان كان ذلك لايعني اختفاء النوع الأول.

الملاحظة الثالثة : تمتعت « تجارة الترانزيت » طول الوقت بامتيازات خاصة تتمثل في الاعفاءات الجمركية التي حصلت عليها حيث ان السلطات المصرية قد

---

7) ابوالقاسم الزياني : الترجمانة الكبرى ص 59

8) جب وبوون : المصدر السابق ج 2 ص 148 ـ 149

درجت على عدم فرض اي ضرائب على السلع التي يأتي بها الحجاج المغاربة، بل ان هذه السلع لم تكن تخضع حتى للاجراءات الجمركية (9)

الملاحظة الرابعة : لم يقتصر النشاط الاقتصادي المغربي في مصر على التجارة بل ان المغاربة اشتغلوا في حرف أخرى مما حفلت به سجلات المحاكم الشرعية في مصر.

وتتعدد الامثلة في هذا الصدد . لدينا الذين اشتغلوا بحرفة الحياكة مثل لاثين مصطفى الخياط أو بحرفة الدلالة مثل الحاج عبد القادر الدلال والحلاقة حيث انتشر الحلاقون المغاربة في خط البندقيين تطريز الحرير مثل الحاج احمد المغربي الحريرى بخط التربيع وعمل بعضهم بمهنة القبانة (10) في القاهرة وغيرها من المدن المصرين خاصة الاسكندرية (11).

وقد برز دور الحرفيين المغاربة في ذلك النوع من الحرف وفي غيره والذي ارتبط بتقديم الخدمات لموكب الحجيج المغربي مما تكتظ به اخبار الرحلات التي وافانا بها رجال ممن شاركوا في هذا الموكب.

مثل على ذلك مهنة الطبخ التي احترفها عديدون . والواضح انهم كانوا يجيدون المأكولات المغربية ويسجل لنا الزياني في هذا الشأن قيام صديق له مستقر بمصر هو الحاج محمد عبد السلام بالعمل في هذه المهنة وكانت عنده « آلة طبخ» كما يقول (12)

مثل أخر مهنة كراء البيوت او ما نسميه بلغتنا المعاصرة « السمسرة » ، وكان من الطبيعي ان تزدهر هذه المهنة كلما اتى الالوف ممن يضمهم موكب الحجيج المغربي والذين يحتاجون الى دور تأويهم طوال فترة مقامهم بمصر.

---

9) المصدر السابق ج 2 ص 150

10) القباني : الذي يقوم بوزن السلع الثقيلة على الميزان القباني

11) عبد الرحيم عبد الرحمن : دور المغاربة في تاريخ مصر في العصر الحديث المجلة التاريخية المغربية العدد 10 ـ 11 يناير 1978 ص 62 ـ 63

12) الزياني : المصدر السابق ص 263

ويرويلنا الزياني ايضا في هذا الصدد خبر معاونه مغربي له على اكتراء بيت يسكنه فيقول « ..وبلغنا مرسى بولق فمن التيسير ولطف الله وجدنا صاحبنا من أهل فاس قائما على الشط يترقب من يأتي من حجاج المغرب فلما رآنا في المركب عرفنا وقدم علينا، وبعد السلام كلفته ان يكترى لنا بيتا بمصر قريبا من الجامع الازهر ومشهد الحسنين فتوجه في الحين وبتنا في المركب ومن وصلنا، فنزلنا وحملنا بضائعنا وما معنا ودخلنا مصر (13) وبلغنا المنزل الذي عينه لنا » (14)

الملاحظة الخامسة : انه لما كان مجتمع المدينة المصرية التي عاش فيها المغاربة انئذ يغلب عليه الطابع الطائفي (15) بحيث كان من الصعب ان تستمر اية مجموعة بشرية في التواجد في هذه المدينة دون ان تتكتل داخل طائفة بينها ودون ان تعيش داخل حارة بذاتها فاننا نلاحظ ان المغاربة في مصر خلال العهد العثماني قد كونوا طوائف يغلب عليها بالاساس طابع الانتماء العنصري(المغربي)

مثل على ذلك طائفة المغاربة بسوق طولون ويشير ارشيف المحكمة الشرعية بالقاهرة لاسم شيخها قرب منتصف القرن الثامن عشر وهو الحاج سعيد،و كذا طائفة المغاربة بخط العدرية وشيخهم الحاج احمد ، بالاضافة إلى طوائفهم في اسواق الجملين والفحامين ووكالة الكحكيين وخطوط البندقية والأشرفيه وباب الشعرية وقناطر السباع وبولاق القاهرة طولون (16).

ويدل هذا على حقيقتين ..أولاهما ان عدد المغاربة بمصر ، وبالقاهرة على وجه الخصوص. قد تضخم الى الحد الذي سمح لهم بتكوين كل هذه الطوائف ، والثانية انهم استقروا في تلك البلاد مما مكنهم ايضا من تخليق هذا الشكل الطائفي الذي يستلزم الاستمرار.

الملاحظة السادسة : ان المغاربة في مصر قد استقروا بالاساس بالقاهرة وبعدد

---

13) يقصد القاهرة

14) الزياني : المصدر السابق ص 201

15) انظر جب وبوون ج 2 ص 114 ـ 115

16) عبد الرحيم عبد الرحمن : المصدر السابق ص 62 ـ 63

من المواني المطلة على البحر المتوسط وبالذات الاسكندرية ورشيد ودمياط (17)

ويمكن تفسير هذهالوضعية باكثر من سبب :

يتصل اولها بتركيب موكب الحجيج المغربي فقد كان من العناصر الاساسية لهذا الموكب التجار والعلماء ..فطبيعة نشاط هاتين الفئتين يتركز في المدن.

ولا يعني ذلك ان هذا الموكب لم يضم اعدادا من ابناء البادية (الريف) المغربية الا ان هؤلاء لم يتم لهم التواجد في الريف المصري او الاندماج في مجتمعه.

ويرجع ذلك ، في رأينا ، الى ان ابناء البادية المغربية الذين شاركوا في موكب الحجيج قد انبعثت مشاركتهم قبل اي شيء انطلاقا من الوازع الديني دون ان يضعوا في اعتباراتهم الاغراض الاقتصادية أو الثقافية التي كانت لدى غيرهم (التجار ــ العلماء) .

أضف الى ذلك، وهو السبب الاهم فيما نعتقد، ان طبيعة التركيب الاجتماعي والاقتصادي في الريف المصري القائم من ناحية البنية الاجتماعية على تكون كل قرية من مجموعة من الاسر لاتقبل وافداليها ومن ناحية البنية الاقتصادية على حق كل اسرة في الانتفاع بما عرف «بارض الارث» تتوارثه جيلا عن جيل ..ومثل هذا التركيب كان لايسمح بسهولة بقبول غرباء داخل مجتمع القرية او استقرارهم ناهيك عن اندماجهم فيه (18).

ونختم هذهالملاحظات بالاشارة الى الاهمية القصوى التي اعارها المصريون ، حكاما ومحكومين ، للوجود المغربي بين ظهرانيهم، وهي الاهمية التي بدت في حادثة خليل بك قطامش التي رواها الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ..

يقول المؤرخ المصري بان الرجل كان اميرا للحج عام 1158 (1745) وانه عامل الحجاج معاملة سيئة للغاية مما ادى بالسلطان المغربي الى انيكتب الى « علماء مصر واكابرهم » ينقم عليهم فعلة خليل بك وانه « نهب المال وقتل الرجال وبذل المجهود في تعديه الحدود ».

---

17) نفس المصدر ص 63

18) انظر : د. عبد الرحيم عبد الرحمن : الريف المصري في القرن الثامن عشر

دفع ذلك باشا مصر ، حسب رواية الجبرتي الى « قتل الشقي المذكور مع ثلاثة من رفقائه العاضدين له في الشرور » وكتب هذا الباشا في رسالة بعث بها الى سلطان المغرب مولاى عبد الله يطلب منه عودة الركب المغربي (19).

★ ★ ★

تركز النشاط الاقتصادي الاساسي الذي مارسه المغاربة في مصر في أعمال التجارة، وكان هذا امرا طبيعيا على ضوء ان القطاعات الاهم التي وفدت الى مصر من المغاربة بهدف ممارسة نشاط اقتصادي كانت من التجار ، ثم ان هذه القطاعات سواء باستقرارهافي القاهرة او في الموانى المصرية انما قد استقرت في مجتمعات تجارية.

ويشير الجبرتي الى ان الدور الاساسي للمغاربة في التجارة كان في ميدان تجارة البن والتوابل والتي كانت مراكزها قائمة في احياء طولون والغورية (20) اضف الى ذلك السلع ذات الطابع المغربي والتي اتت أولا من المغرب ثم تم تصنيفها في مصر وتخصص في بيعها التجار المغاربة ويشير الجبرتي ايضا في هذا الصدد الى ما اسماه « بالنعال المغربية او البلغ » (21).

وينبغي تسجيل حقيقة في هذا الصدد وهي ان تلك السلع التي تاجر فيهاالمغاربة في مصر (البن والتوابل خاصة) انما كانت تمثل السلع الاساسية سواء في علاقات مصر التجارية مع الخارج او في دروها كمنقطة عبور للطريق التجاري القادممنالشرق الاقصى الى المناطق الجنوبية من اوربا (المدن الايطالية)

وكان من الطبيعي انيمكن هذا الدور المغاربة منتكوين ثروات طائلة وضعتهم في مكانة اجتماعية متميزة، ولا مبالغة اذا ماأقررنا الحقيقةبأن التجار المغاربة وقتئذ كانوا يشكلون العمود الفقرى للطبقة البورجوازية في مصر.

يبدو ذلك مما ذكره الجبرتي من انه كلما احتاجت السلطة في مصر الى المال كانت تتجـه الى التجار المغاربة للحصول عليه (22) وهم في ذلك ، اي التجار

---

19) عبد الرحمنالجبرتي : عجائب الاثار في التراجم والاخبار ج 1 ص 258 ـ 260

20) المصدر السابق ج 2 ص 40 ـ 41

21) المصدر السابق ج 2 ص 199

22) الجبرتي ص40 ـ 41

المغاربة ، قد قاموا بدور شبيه لذلك الدور الذي قامت به البورجوازية في اوربا في مطالع العصور الحديثة من حيث كونها المصدر الاساسي لتمويل الدولةالقديمة الناشئة من خلال فرض الضرائب عليهم وسهولة تحيلها منهم مما كانوا معه بمثابة الدعامة المالية لهذه الدول بامتداد تلك العصور، ولو ان ذلك لايعني أنهم قاموا بالضبط بهذا الدور فهم كانوا حقيقة مصدرا لتمويل الدولة إلا أن الأخيرة لم تسر في نفس طريق الدولة الاوربية تجاه المنحى القومي المركزي.

غير انه قد ترتب على ذلك في اي الاحوال وجود علاقة خاصة بين السلطة في مصر وبين التجار المغاربة في البلاد تقدم على ارتباط المصالح بين الطرفين وانه طالما كان التجار مصدرا من مصادر تحويل السلطة فقد كانت هذه الاخيرة تقدم لهم كل الوان الرعاية مما يبدو فيما اتاحته الادارة المصرية للتجار المغاربة من فرص لاستثمار رؤوس اموالهم في كافة اوجه الاستثمار مثل شراء العقارات وتوريثها او وقفها ، ورهن وشراء حق الانتفاع بالاراضي الزراعية وتاجيرها والانتفاع بها وشراء الوكالات وغيرها (23).



وتتعدد نماذج الاسر المغربية في مصر التي مارست النشاط التجاري ولعبت فيه دورا هاما.

اشهر هذه الاسر واهمها هي اسرة «الشرايبي» ويبدو حجم الاهمية من ان الاجيال المتعاقبة لهذه الاسرة قد لقيت الاهتمام من المؤرخين المعاصرين على رأسهم الشيخ عبد الرحمن الجبرتي الذي استمر يسجل اخبار هذه الاسرة في حولياته منذ منتصف القرن السابع عشر ولقرن كامل بعده.وقد سجل تاريخ وفاة اول من اشتهر فيهم ، الخواجا محمد الكبير (1111هـ) 1699 ـ 1700 (24) كما سجل تاريخ وفاة اخرهم ، ابراهيم بن محمد الغزالي بن محمد الدادة الشرايبي (1205هـ) 1790م ـ 1799 (25).

---

23) عبد الرحيم عبد الرحمن : مصدر سابق عدد 12 ص 180
24) الجبرتي : مصدر سابق ج 1 ص 138
25) مصدر سابق ج 2 ص 118

وقد تعددت مظاهر ثراء اسرة الشرايبي ، فيصف الجبرتي بيتهم بانه « بيت المجد والسيادة والامارة والتجارة» (26) ويتحدث عن احدهم بقوله انه كان « من أجل أهل بيت الثروة والمجد والعز والكرم (27)»، ويصف بيتا ثالثا بأنه كان «بيت المجد والفخر والعز.. وكانوا في غاية من الغنى والرفاهية والنظام ومكارم الاخلاق والاحسان للخاص والعام» (28).

ولقد كان لبعضهم اكثر من دار يعيش فيها، مثل على ذلك الحاج قاسم الشرايبي الذي كان له بيت في الغورية حيث كانت تجارته (التوابل) وكان له بيت آخر في الازبكية حى سكني الاعيان في البلاد (29) .

ويذكر الجبرتي ان بيتهم الاخير هذا الواقع في الأزبكية « كان يشتمل على اثنى عشر مسكنا كل مسكن بيت متسع على حدته» (30)

أضف الى كل ذلك ان المصريين لقبوا عمداء هذه الاسرة « بالخواجا» وهولقب كان يطلق على كبار الاثرياء العاملين بالتجارة فقط (31).

وتتضح مكانة اسرة الشرايبي لدى الادارة في مصر من اكثر من حقيقة يمكن تسجيلها.

1 ـ فقد كان بيت الشرايبي بمثابة مكان اللقاء للصفوة الحاكمة في مصر يترددون عليه وقت شاءوا حيث شاءوا « وكان الامراء بمصر يترددون اليهم كثيرا من غير سابق دعوة ، وكان رضوان كتخدا يتفسح عند المترجم (32) في كثير من الاوقات مع الكمال والاحتشام ولايصحبه في ذلك المجلس الا اللطفاء من ندمائه » (33).

---

26) مصدر سابق ج 1 ص 261

27) الجبرتي : مصدر سابق ج 2 ص 118

28) مصدر سابق ج 1 ص 289

29) مصدر سابق ج 1 ص 261

30) نفس المصدر ج 1 ص 290

31) المصدر نفسه ج 1 ص 138

32) الحاج احمد بن محمد الشرايبي

33) الجبرتي : ج 1 ص 290

2 ـ شاركت اسرة الشرايبي في ثراء المماليك وتربيتهم حيث كان هؤلاء بعد ذلك يشكلون جناحا هاما من أجنحة السلطة المصرية القائمة وقتئذ، ويشير الجبرتي في ترجمته لاحدهم (34) الى « مماليكهم واولاد مماليكهم من اعيان مصر جريجية وأمراء ، ومنهم يوسف بك الشرايبي » (35).

وحتى نتفهم أهمية هذه الظاهرة ينبغي تقديم اشارة وجيزة للنظام المملوكي في مصر ، فقد قام هذا النظام على أساس بيوت لكل منها أميرها الذي يشترى مماليكه ويدربهم ويستخدمهم حتى اذا ما نبغ بعضهم كون بيوتا صغارا منبثقة من البيت الكبير واصبح بدوره من الامراء او البكوات وكان ينتحل اسم امير البيت الذي تربى فيه.

ويقدم ما فعلته اسرة الشرايبي نموذجا غير معتاد ، فهم ليسوا في الاصل من المماليك غير انهم رغم ذلك استجلبوا مماليكا وربوهم وتحول هؤلاء الى أمراء او بكوات وانتحلوا اسم الاسرة الشرايبي.

ولعل هذا النموذج غير المعتاد يقدم اكثر من دلالة على مكانة اسرة الشرايبي ، فهي من ناحية قد بلغت من الثروة الحد الذي يمكنها من الاقدام على مثل هذا الاسلوب، وهي من ناحية اخرى قد بلغت من الالتحام بالسلطة الحد الذي اصبحت معه مركزا لتفريخ بعض عناصرها.

3 ـ وكانت وفاة احد افراد اسرة الشرايبي مناسبة هامة تتبدى فيها أهمية مكانتها لدى الدوائر الحاكمة في البلاد.

يضيف الجبرتي في أحداث عام 1137هـ (1724 ـ 1725) جنازة محمد الدادة الشرايبي فيقول، وحضر جنازته جميع الأمراء والعلماء وأرباب السجاجيد والوجاقات السبعة والتجار وأولاد البلد (36)، ثم يضيف في احداث عام (1147هـ ـ 1734 ـ 1735 جنازة الحاج قاسم ابن الحاج محمد السابق الذكر فيقول «وخرجوا

---

34) هو الخواجا احمد بن محمد الشرايبي

35) الجبرتي : مصدر سابق ج 1 ص 289

36) المصدر السابق ج 1 ص 138

بجنازته من بيته بالازبكية في مشهد عظيم حضره العلماء وأرباب السجاجيد والسناجق والاغوات والاختيارية والكواخي حتى أن عثمان كتخدا القازد على لم يزل ماشيا أمام نفسه من البيت إلى المدفن بالمجاورين» (37).

أما عن الانشطة الاقتصادية التي مارسها ابناء اسرة الشرايبي فيمكن رصدها في اكثر من نشاط.

هناك اولا ذلك النشاط الاصيل الذي تفرعت عنه سائر الانشطة وهو ممارسة التجارة، فقد تعددت في ايدي ابناء الاسرة الوكائل (38) التجارية في الغورية وغيرها (39).

وقد اتسع نطاق النشاط التجاري للشرايبية الى الحد الذي تملكوا معه سفنا تأتي لهم بسلعهم من الشرق الاقصى ، ويذكر الجبرتي انه كان للحاج محمد الدادة الشرايبي« ثلاث مراكب في بحر القلزم » (40).

وأهمية التجارة في بحر القلزم (41) (البحر الأحمر) تنبع من مصدرين اولهما انهذا البحر استمر طوال العهد العثماني بحرا اسلاميا لايسمح للفرنجة بالابحار في المنطقة الواقعة شمالي ميناء مخا اليمني ، وثانيهما انه كان الشريان الرئيسي الذي تتلقى منه مصر وعالم البحر المتوسط السلع الشرقية، التوابل من الشرق الاقصى والبن من اليمن، ومعلوم ان التجار المغاربة كانت لهم شهرة خاصة في التعامل في هذه السلع.

وقد مكنت الثروات التي استطاع أبناء اسرة الشرايبي تكديسها من الاشتغال بالتجارة،مكنتهم من توظيفها في وجوه استثمارية أخرى.

في المدينة وظف هؤلاء رؤوس أموالهم من اقتناء الدور التي كانوا يكرونها بالاضافة الى الحمامات (42) التي كانت انئذ مصدرا هاما من مصادر الدخل .

---

37) نفس المصدر ونفس المجلد ص 261

38) الوكالة : مكان متع يمتلكه كبار التجار وتباع فيه سلعة معينة بالجملة

39) الجبرتي ـ ج I ص 138

40) نفس المصدر ونفس الصفحة

41) القلزم: الاسم القديم لميناء السويس

42) الجبرتي : ج I ص 138

في الريف دخلت اسرة الشرايبي الى ميدان الالتزام على نطاق واسع خلال القرن الثامن عشر.

ويقوم نظام الالتزام على ان يتكفل من يدخل مزادا علنيا ويرسو عليه المزاد بتحصيلالضرائب المقررة على اراضي قرية او اكثر او اقلعن مده معينة وذلك بناء على اتفاق بين هذا الشخص الذييحمل لقب ملتزم وبين الحكومة.

وقد اقتصر الالتزام في بداية الأمر على فئة من الأمراء المماليك ورجال العسكرية ومشايخ العرب غير انه فيالقرن الثامن عشر دخلته فئاتأخرى من التجار والعلماء والنساء (43).

وكان التجار المغاربة من ابرز التجار الذين دخلوا ميدانالالتزام وكانت اسرةالشرايبي من الاسرالرئيسية من التجار المغاربة التي حصلت على الالتزامات .

وقد سجلت وثائق المحكمة الشرعية ، وسجلات اسقاط القرى (44) الكثير من حالات اسقاط القرى الى الحاج محمد الداده الشرايبي ، ثم ابنه الحاج قاسم من بعدهولم تقتصر هذه الحالات على منطقة بعينها وانما امتدت الى مناطق عديدة في جميع ارجاء البلاد.

وتشير نفس الوثائق الى قيام الحاج قاسم الشرايبي بالوكالة في محكمة الباب العالي عن اشخاص اخرين في شراءالالتزامات باسمهم، وقد تم هذا على الارجح تهربا من عمليات مالية بحثه .

أضف الى كل ذلك قيام الرجل بالمضاربة في شراء الالتزامات المحلولة منالمزاد العلني ثماسقاطها أوتأجيرها لآخرين، وكانت هذه العملية تحقق له ربحا فوق رأسماله الذي يدفعه في المزاد (45).

43) عبد الرحيم عبد الرحمن : الريف المصري في القرن الثامن عشر (القاهرة 1974)
ص 74، ص 91 ـ 96

44) كانت تسجل فيها جميع العمليات الخاصة بإسقاط القرى سواء بالبيع أو بالرهن، والنزاعات بين الملتزمين بعضهم بعضا وبينهم وبين الفلاحين وغير ذلك من المشاكل تنشب حول حصص الالتزام

45) عبد الرحيم عبد الرحمن : الريف المصري من القرن الثامن عشر ص 93

وقد ادى دخول أسرة الشرايبي والتجار المغاربةوفئة التجار عموما الى ميدان الالتزام الى ظهور أشكال جديدة في هذا النظام قامت أساسا على أن أصبحت اراضي الالتزام في خدمة الاستثمار الرأسمالي بعد ان كان من المفروض ان توظف رؤوس الاموال في خدمة تلك الأراضي.

والحديث عن رأس المال الذي تملكته اسرة الشرايبي يستلزم متابعة لما طرأ عليه من تطور ومحاولة لتفسير هذا التطور والمتابعة هنا تنصب على رأس المال السائل.

يشير الجبرتي الى أن كبير الاسرة الدادة الشرايبي الذي كان قد ورث عن ابيه 90 كيسا (46) قد نجح في زيادتها الى 1480 كيسا (47) واستمر ابناؤه من بعد ، محمد وقاسم واحمد ، في تنمية هذه الثروة.

والملاحظ انه قد غلب على عهد كل هؤلاء الابناء ظاهرة تركيز رأس المال في ايدي احدهم يقومباستثماره وينفق من ارباحه على سائر افراد الاسرة مما يسجله الجبرتي فيقول « وكان من سنتهم انهم يجعلون عليهم كبيرا منهم وتحت يده الكاتب والمستوفي والجابي فيجمع لديه جميع الايراد من الالتزام والعقار والجامكية ويسدد الميرى ويصرف لكل انسان راتبه على قدر حاله وقانون استحقاقه وكذلك لوازم الكساوى للرجال والنساء في الشتاء والصيف ومصروف الجيب في كل شهر،وعند تمام السنة يعمل الحساب ويجمع ما فضل عنده من مال ويقسمه على كل فرد بقدر استحقاقه وطبقته » (48).

غير انه بموت أحمد الشرايبي (حوالي 1167 هـ - 1753م) انتهى هذا النظام وسعى كل من ابناء الاسرة الى الاستئثار بما يخصه من مال مما كان بمثابة تفتيت لثروة الشرايبي واضعاف بقدرة الاسرة على استثمار رأسمالها.

---

46) الكيس اكبر وحدة نقدية ظهرت في مصر في القرن السابع عشر وكان يساوي 25 الف بارة، وهذه الاخيرة عملة فضية بلغ وزنها خلال الثلث الاول من القرن الثامن عشر 385 وجراما د. فؤاد المادي : الوضع المالي لولاة مصر (3) المناهل جـ 13 ص 363 - 364

47) الجبرتي : مصدر سابق جـ 1 ص 138

48) نفس المصدر والمجلد ص 290

يسجل الجبرتي هذه الحقيقة فيقول « لما مات كبارهم (أحمد الشرايبي) وقع بينهم الاختلاف واقتسموا الايراد واختص كل فرد منهم بنصيبه يفعل به ما يشتهى،وتفرق الجمع وقلت البركة » (49).

وكان هذا ايذانا بنهايتهم كقوة رأسمالية في البلاد حتى انه بوفاة آخرهم « ابراهيم بن محمدالغزالي بن محمد الدادةالشرايبي » عام 1205 (1790م) انتهى ذكر الاسرة ونعود الى الجبرتي الذي يقرر هذه الحقيقة بقوله عن الرجل انه كان « مسك ختامهم وبموته انقرض بقية نظامهم » (50).

وقد حاولت اسرة الشرايبي طول الوقت الحفاظ على وجودها والتمسك بكيانها وعدم الذوبان في المجتمع المحيط مما جعلها مطبوعة بمغربيتها طول الوقت الى ان اصابها ما اصابها من اسباب التدهور الاقتصادي والذي ادى الى عدم الاستمرار في التمسك بهذا الطابع .

يوضح هذه الشهادة التي ادلى بها مؤرخنا المصري العتيد مرة اخرى وهو يتابع تاريخ الاسرة ..جاء في هذه الشهادة.

« وجميعهم مالكيو المذهب على طريقة اسلافهم ..ومن اوضاعهم وطرائقهم انهم لايتزوجون الا من بعضهم البعض ولا تخرج من بيتهم امرأة الا للمقبرة فاذا عملوا عرسا اولموا الولائموأطعموالفقراء والقراء على نسق اعتادوه وتنزل العروس من حريم ابيها الى مكان زوجها بالنساء الخلص ...الخ ...» (51)

يبقى أخيرا وقبل ان نختم الحديث عن اسرة الشرايبي ان نشير الى تلك المحمدة التي اتصف بها ابناء الاسرة جيلا بعد آخر مما تمثل من رعايتهم للعلم ولطلابه.

فمن ناحية كانت دارهم الكبيرة القائمة بالازبكية مقصدا لطلاب العلم حيث كانت « مجالسهم مشحونة بكتب العلم النفيسة للاعارة والتغيير وانتفاع الطلبة

---

49) نفس المصدر ونفس الصفحة

50) المصدرالسابق ج 1 ص 118

51) نفس المصدر ج 1 ص 290

ولايكتبون عليها وقفيةولايدخلونها في مواريثهم ويرغبون فيها ويشترونها باغلى ثمن ويضعونها على الرفوف والخزائن والخورنقات وفي مجالسهم جميعا، فكل من دخل الى بيتهم من أهل العلم الى أي مكان يقصد الاعارةاو المراجعة وجد بغيته ومطلوبه في اي علم كان من العلوم، ولو لم يكن الطالب معروفا ، ولايمنعون من يأخذ الكتاب بتمامه فان رده في مكانه رده وان لم يرده واختص بهاو باعه لايسأل عنه وربما بيع الكتاب عليهم واشتروه مرارا ويعتذرون عن الجاني بضرورة الاحتياج » (52).

ومن ناحية أخرى فقد بذل رجال الأسرة من مالهم الكثير لانفاقه على دور العلم فمثلا كان آخرهم ابراهيم الغزالى الشرايبي يتفقد طلبة العلم الفقراء ويعينهم ويشترى المصاحف والالواح ويفرقها على مكاتب اطفال المسلمين الفقراء معونة لهم على حفظ القرآن الكريم (53).

ومن ناحية ثالثة واخيرة فقد كان لعدد من ابناء هذه الاسرة اهتماماتهم العلمية حيث كانوا يعقدون الندوات التي يقصدها العلماء في دارهم ، أو كما قال الجبرتي « يتردد الى منزلهم العلماءوالفضلاء»(54) اضف الى ذلك حرص بعضهم على حضور دروس عدد منالعلماء المشهورين مثل حضور ابراهيم الغزالي الشرايبي لدروس الشيخ محمد العقاد المالكي (55).

وتستحق ظاهرة الاهتمامات العلميةفي شتى نواحيها من اسرة الشرايبي تفسيرا وفي تقديرنا يقدم هذا التفسير على جانبين :

الأول : انه كان من تقاليد المجتمعات العربية الاسلامية ان تخصص الاسر القادرة فيها جانبا من ثروتها لانفاقهعلى المؤسسات العلمية وعلى غير القادرين من طلاب العلم سواء تم ذلك بوقف بعض املاكها او بتقديم الهبات بشكل منتظم او متقطع ،ولم تكن اسرة الشرايبي لتختلف في هذا الصدد عن سائر الاسر الاسلامية الموسرة التي وجدت في المجتمع المصري وقتئذ.

52) المصدر السابق ج 1 ص 289
53) نفس المصدر ج 2 ص 118
54) نفس المصدر ج 1 ص 289
55) الجبرتي ج 2 ص 116

الثاني : ماكان للعلماء من مكانة متميزة في المجتمع المصري على العهد العثماني ذلك انه في ظل نظام حكم اسلامي مثل حكمالعثمانيين كان من المطلوب دائما توفير الشرعية لرجال الحكومة ، وكان العلماء هم القوة القادرة على منح هذه الشرعية.

وكان من الطبيعي ان يحتاج الرأسماليون، شأنهم في ذلك شأن الحكام ، الى غطاء الشرعية الذيني يبرر تصرفاتهم ويمنع عنهم غوائل تعدى رجال السلطة ، وكان تقربهم الى العلماء واصطناعهم لادوات منهم يوفر لهم مثل هذا الغطاء خاصة اذا لاحظنا ان المعاملات المالية في تلك الحقبة كانت تتم باشراف من رجال الدين العاملين كقضاة في المحاكم الشرعية ، كما انها كانت تحدث من خلال احكام الشريعة الاسلامية ، أكثر من ذلك فقد كان التطور الذي حدث خلال القرن الثامن عشر بدخول العلماء ميدان الالتزام (56) موجبا لمزيد من تبادل المصلحة بينهم وبينالأسرالرأسمالية التي كثيرا ما كانت تقرضهم الاموال المطلوبة لدخولهم ميدان المزاد العلني الذي يحصلون فيه على التزاماتهم.



واذا كانت اسرة الشرايبي تمثل نموذجا بارزا للعائلات المغربية التي مارست النشاط الاقتصادي المصري فان ذلك لايعني انها كانت النموذج الوحيد

فهناك مثلا ذلك التاجر المغربي « احمد الحدق »الذياشتهر ايضا بتجارة البن؛وتشير وثائق المحكمة الشرعية على انه قد نجح بدوره في حيازة عدد كبير من الالتزامات (57).

وهناك أيضا « الخواجا المنظم والتاجر المكرم السيد احمد ابن عبد السلام المغربي الفاسي » ويكفي في هذا الصدد الاشارة الى تعاظم ثروته مثلما حدث لاسرة الشرايبي وان كان قد فاقها في انه قد ولى منصب شاه بندر التجار في مصر (58) وهو منصب كان التجار يختارون صاحبه من بين واحد من اكبرهم اذ كان يمثلهم امام السلطات .

---

56) عبد الرحيم عبد الرحمن :الريف المصري ص 94 _ 95

57) المصدر السابق ص 93

58) الجبرتي : المصدر السابق ج 2 ص 122

مكانة اهل العلم المغاربة في المجتمع المصري:

عنيت فئة غير صغيرة من المغاربة الذين أتوا الى مصر بشؤون العلم، فهم عندما جاءوا الى مصر في موكب الحج بدافع ديني انما ارادوا استكمال معارفهم الدينية من خلال اتصالهم بدوائر العلم في القاهرة ، وبالأزهر على وجه الخصوص .

ويمكن ان نميز بين شرائح من هذه الفئة..

اولها : تلك الشريحة من علماء الدين الذين اتوا الى مصر أو الىالحجاز للاتصال بأقرانهم في المؤسسات العلمية في تلك الجهات واجراء الحوار العلمي معهم وشراء ما يتوفر من مصادر غير متاحه في بلادهم ثم العودة بعد ذلك.

وهذه الشريحة سوف تخضع للدراسة من بعد (59)

ثانيها : شريحة العلماء الذين اتوا الى مصر واستقروا فيها ثم ما لبثوا أن برزوا بين صفوف علمائها وامتهنوا التدريس سواء في الجامع الأزهر او في غيره من المؤسسات العلمية، ويلاحظ ان ابناء هذه الشريحة قد استقروا بشكل نهائي او شبه نهائي في مصر واصبحت لهم مكانتهم الاجتماعية والفكرية فيها .

ثالثها : شريحة طلاب الازهر الذين كان لهم رواق خاص بهم، وهم قد التحموا بالمجتمع المصري وشكلوا فئة هامة لعبت في احداث تاريخه دورا سوف نتناوله بالدراسة.

★ ★ ★

واذا كنا نستبعد مؤقتا الشريحة الاولى فانه تبقى لدينا الشريحتان الاخريان نتناولهما بالدراسة التفصيلية :

أولا : العلماء المغاربة : اشتهر عديدون من هؤلاء الذين تضمنتهم كتب التراجم واشارت اليهم كتب الرحلات.

نجد من هؤلاء. « نور الدين حسن بن احمد بن العباس بن ابى سعيد المكناسي » الذي ولد في مكناس ويلاحظ انه لدى مجيئه الى القاهرة عام1074هـ (1663م) قد تخيرأستاذين مغربيين يتلقى عليهما دروسه في الأزهر وهما « محمد

---

59) انظر الفصل الرابع

بنأحمد الفاسي »، و « عبد الرحمن المحجوب المكناسي »، وان كان ذلك لايعني انه لم يتلق دروسا أخرى على أساتذة مصريين (60).

منهم كذلك « السيد محمد بن محمد البليدي المالكي » الذي توفي في القاهرة عام 1176هـ (1762م) واهم ما يلاحظ في الترجمة التي أوردها الجبرتي للرجل تلك الرعاية الخاصة التي تمتع بها هذا العالم المغربي من التجار المغاربة المقيمين في العاصمة المصرية.

يقول المؤرخ المصري « ... وعظمت حلقته وحسن اعتقاد الناس فيه وانكبوا على تقبيل يديه وزيارته وخصوصاً تجار المغاربة لعلة الجنسية فهادوه وواسوه واشتروا له بيتا بالعطفة المعروفة بدرب الشيشيني وقسطوا ثمنه على انفسهم ودفعوه من مالهم (61).

ومنهم أيضا « سيدي على بن العربي بن على بن العربي الفاسي الشهير بالسقاط » ـ توفي بالقاهرة عام 1183 (1769م) ـ وتتعدد الملاحظات حول هذا العالم المغربي ..فهو من ناحية قد تنقل بين سائر المؤسسات في القاهرة يدرس على أيدي اساتذتها ابتداء بالأزهر ومرورا بالغورية وانتهاء برواق المغاربة،وهو من ناحية أخرى قد أجيز من جانب عدد من الاساتذةفي شتى هذه المؤسسات ، بعضهم كان مغربيا مثل سيدي محمد بن عبد السلام البناني الذي قرأ عليه في الأزهر ومثل عمر بن عبد السلام التطاوني الذي قرأ عليه في رواق المغاربة، والبعض الآخر كان مصريا مثل « محمد بن زكرى» الذي قرأ عليه بجامع الغورى (62).

ومن أشهر علماء المغاربة في مصر « شهاب الدين المقرى » الذي وفد عليها عام 1027 (1617م) واستقر بها لنحو اربعة عشر عاما حتى توفي فيها. وكان يلازم الجلوس والتدريس بالازهر ويلقى معظم دروسه في الحديث وكانت حلقاته تغص بالعلماء والطلاب وكان يقضى أوقاتا طويلة في رواق المغاربة ينقب ويكتب (63) .

---

(60) الجبرتي : المصدر السابق جـ 1 ص 119

(61) نفس المصدر والمجلد ص 324

(62) نفس المصدر والمجلد ص 383

(63) محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر (القاهرة 1958) ص 143

ويلاحظ في جميع الأمثلة السابقة أن هؤلاء العلماء قد وفدوا على مصر وعاشوا فيها ودفنوا بها ، غير أنه كان هناك نوع آخر من العلماء المغاربة الذين ولدوا بمصر وتلقوا الدروس في معاهدها ثم ألقوا الدروس في تلك المعاهد.

من هؤلاء « الشيخ أحمد بن محمد بن عبد السلام الشرفي » ويصفه الجبرتي بقوله « المغربي الأصل المصري المولد » تمييزا له عن النوع الأول من العلماء الوافدين ، وقد كان إبنا لشيخ رواق المغاربة واكتسب مكانة هامة في المجتمع المصري (64).

وقبل تناول الشريحة الثانية بالدراسة ينبغي تسجيل عدد من الملاحظات حول الشريحة الأولى :

1 ـ لم يقتصر دور هؤلاء العلماء في المجتمع المصري على مجرد تلقى العلم أو إلقاء الدروس ، بل الواضح ان هذا الدور قد خلف تأثيرات واضحة خاصة في تكوين الطرق الصوفية في البلاد.

ومعلوم أن هذه الطرق كانت قد انتشرت في مصر خلال العصر العثماني حتى بلغ عددها الثمانين طريقة (65).

من هذه التأثيرات ورود بعض اتباع الطريقة الجزولية (الشاذلية) الى مصر ودورهم في محاولة نشر طريقتهم مثل « سيدى أحمد بن على بن جميل الجعفرى الجزولى السوسي »، ويصفه الجبرتي « بالشيخ الصالح الناسك الصوفي الزاهد » وقد جاء الى مصر عام 1182 (1768م) وتوفي فيها بعد ذلك بست عشرة سنة (66).

منها أيضا قراءة كتاب الجزولى « دلائل الخيرات » بالجامع الأزهر اثناء تقدم الفرنسيين الى القاهرة عام 1798.

منها ثالثا نشوء طرق صوفية ذات اصل مغربي تماما مثل «الطريقة العيسوية» ويصفها الجبرتي بقوله «العيسوية هم جماعة من المغاربة ومادخل فيهم من أهل الاهواء ينسبون الى شيخ من أهل المغرب يقال له سيدي محمد بن عيسى

64) الجبرتي : نفس المصدر مجلد 1 ص 270

65) د. توفيق الحويك : التصوف في مصر ابان العصر العثماني (القاهرة 1946) ص 90

66) الجبرتي : المصدر السابق ج 1 ص 571 ـ 572

وطريقتهم انهم يجلسون قبالة بعضهم صفين ويقولون كلاما معوجا بلغتهم بنغم وطريقة مشوا عليها وبين ايديهم طبول ودفوف يضربون عليها على قدر النغم ضربا شديدا مع ارتفاع اصواتهم .. وتقف جماعة أخرى قبالة الذين يضربون بالدفوف فيضعون اكتافهم في اكتاف بعض لايخرج واحد عن الاخر ويلتوون وينتصبون..الخ..» (67 ـ 68)۰

2ـ انصرف هؤلاء العلماء من المغاربة الى تولي بعض الوظائف في غير ميدان التدريس۰

مثل على ذلك توليهم لبعض مناصب القضاء أو الاشراف على المكتبات مثل الشيخ «خليل بن محمد المغربي» الذي تولى أمر خزانة كتب المؤيد مدة «فأصلح مافسد منها ورم ماتشعث وانتفع به جماعة كثيرون من أهل عصرنا» (69 ـ 70)

3ـ اشتهر هؤلاء العلماء من اتباع المذهب المالكي بالتشدد في الاراء والفتاوي. وقد تسبب هذا التشدد أحيانا في أزمات خطيرة تفجرت بين العلماء بعضهم وبعض أو بين العلماء والسلط .

يسجل الجبرتى أزمة من هذه الأزمات بالفتوى التي أصدرها «الشيخ على الميلى المغربي» المقيم بالاسكندرية بأن «ذبيحة أهل الكتاب في حكم الميتة لايجوز أكلها». ويسجل بعد ذلك الأزمة التي تفجرت نتيجة لهذه الفتوى والتي لم تنته الا باختفاء الشيخ على (71)۰

أما «الشريحة الثانية» فتتمثل في الطلاب المغاربة وبالذات أولئك الذين انتموا الى رواق المغاربة بالازهر.

ورواق المغاربة يقع في الجانب الغربي من صحن الجامع وله خمسة عشر بائكة قائمة على أعمدة من الرخام الابيض وفيه مساكن علوية وخزانة كتب (72) والرواق

---

67) 68) نفس المصدر جـ 2 ص 242 ـ 243

69) 70) عبد الرحيم عبد الرحمن : دور المغاربة في تاريخ مصر عدد 10 ـ 11 ص 65

71) الجبرتي : مصدر سابق جـ 3 ص 624 ـ 625

72) عبد الحميد يونس ـ عثمان توفيق : الازهر ص 52

ليس مخصصا فقط لطلاب المغرب بل يشاركهم فيه طلاب طرابلس الغرب (ليبيا) والجزائر وتونس ولايستحق من أوقافه إلا من كان مالكي المذهب (73).

ولاشك أن وجود هذا القطاع من اعيان المغاربة في مصر قد ساعد على اثراء الرواق من خلال الاوقاف التي أوقفوها عليه والتي كان ريعها والنظر والتحدث بشأنها تحت تصرف شيخ الرواق مباشرة ينفق منها على طلاب ومصالح الرواق (74).

وأهم مانلاحظه بالنسبة لهذه الشريحة والتي عرف ابناؤها «بالمجاورين المغاربة».

انهم كانوا الى جانب تلقيهم العلم يلعبون دورا هاما في احداث الشارع المصري خاصة خلال القرن الثامن عشر.

ويروي لنا الجبرتي حادثتين في هذا الشأن .

وقعت الاولى عام 1191 هـ (1777 م) وكانت حول مكان وقف عليهم ورفض واضع اليد تسليمه لهم ولجأ الى بعض الامراء الذين اعانوه ضدهم.

وتحولت القضية الى صدام بين المجاورين المغاربة وبين هؤلاء الامراء حاول الاخيرون خلالها القبض على زعيم المجاورين المدعو عباس فاعانه بقية الازهريين وتحول الصدام الى مواجهة بين الازهر بل بين قطاع هام من أهل القاهرة وبين الامراء المعنيين وذلك حين «أبطل اهل الجامع الدروس والاذان والصلوات وقفلوا أبواب الجامع وجلس المشايخ بالقبلة القديمة وطلع الصغار على المنارات يكثرون الصياح والدعاء على الامراء واغلق اهل الاسواق القريبة الحوانيت»، ووصل الامرَإلى صدام مسلح بين المجاورين المغاربة وبين اتباع السلطة الذين قتلوا منهم «ثلاثة انفار وجرحوا منهم كذلك ومن العامة» (75).

ولم تهدأ الامور الا بعد ان قدم الامراء تنازلا كاملا عن دعاويهم السابقة والا بعد ان تخلوا عن مغتصب الوقف المغربي.

الحادثة الثانية وقعت عام 1202 هـ (1787م) عندما ثار بعض المغاربة بالازهر على الشيخ العروس بسبب الجرايه واغلقوا الجامع وخرجوا الى الاسواق

---

73) محمد عبد الله عنان : مصدر سابق ص 302

74) عبد الرحيم عبد الرحمن : المصدر السابق ص 65

75) الجبرتي : مصدر سابق جـ 1 ص 496 ـ 498

«وأمروا الناس بغلق الدكاكين»، ولم يهدأ الامر الا بعد أن «امتنع الشيخ العروس من دخول الجامع أياما وقرأ درسه بالصالحية» (76).

وأهم مانلاحظه في هاتين الحادثتين قدرة المجاورين المغاربة في التأثير سواء على المحيطين من زملائهم في الازهر أو على المناطق المحيطة بالجامع العتيد خاصة من «اصحاب الدكاكين»، وهي قدرة تؤكد ذلك الالتحام بين هؤلاء وبين البيئة الاجتماعية المصرية التي تواجدوا فيها.

دور العسكريين المغاربة في مصر العثمانية.

استمرت مصر منذ الفتح العثماني أوائل القرن السادس عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر تقريبا تعرف نوعين فقط من العناصر العسكرية:

النوع الاول: العسكر العثماني أو رجال الفرق العثمانية المعروفة بالاوجاقات والتي تكونت من سبع فرق وعرف رجالها باسم «الوجاقلية».

النوع الثاني: المماليك الذين حكموا مصر من قبل وظل نظامهم يشكل الركيزة الثانية من الركائز العسكرية، وقد استمر هؤلاء من خلال نظامهم يتجددون جيلا وراء آخر وتزداد اعدادهم تزداد أو تنكمش تبعا للظروف (77).

غير انه بمرور الوقت عرف هذا التنظيم تغييرا هاما تمثل في ضعف الطابع العسكري للعنصر الاول (الوجاقلية). وقد ارتبط هذا الضعف بحقيقتين: الاولى ضعف الدولة العثمانية نفسها بحيث لم يعد في امكانها كما كان الحال من قبل تجديد دماء هذه الاوجاقات بعناصر عسكرية جديدة، والثانية اندماج الوجاقلية في المجتمع المصري وتحولوا مع الوقت لامتهان الحرف والاشتغال بالاعمال المدنية وأصبح انتماؤهم لفرقهم العسكرية مقصورا في كثير من الاحوال على الامتيازات المالية أو العينية التي كان يتيحها لهم هذا الانتماء.

---

76) المصدر السابق ج 2 ص 57 ـ 58

77) بلغ عددهم 8500 عام 1783 ووصل الى 10,400 عام 1798

انظر جب وبوون : المجتمع الاسلامي والغرب ج 2 ص 46

وقد أدى تآكل الدور العسكري لاحدى العنصرين، وكان تآكلا تدريجيا الى ظهور عناصر عسكرية اخرى تحتل مكانه، وكان أيضا ظهورا تدريجيا، غير ان هذا الظهور كان قد تأكد خلال ستينات القرن الثامن عشر، وهو العقد الذي شهد حركة انفصالية هامة (78) ضد الدولة العثمانية.

وبيـما اطلق المؤرخون الاوربيون تسمية «المرتزقة» على هذه العناصر الجديدة فان المؤرخين المعاصرين وعلى رأسهم الشيخ عبد الرحمن الجبرتي قد سماهم «بجند الطوائف» والواضح أن التسمية الاخيرة هي التسمية التي كانت تطلق على هؤلاء من جانب اهل البلاد.

وكان «المغاربة» طائفة هامة، بل ولامغالاة اذا خرجنا من الاشارات العديدة التي جاءت في كتابات الجبرتي بأنهم كانوا الطائفة الاهم من هذه الطوائف.

تسجل هذه الاشارات حقيقة هامة تتمثل في انه بينما اتسم استخدام سائر الطوائف بالتقطع فقد تميز استخدام طائفة المغاربة بالاستمرار.

تأتي أول اشارة عن عساكر الطوائف في حوادث 26 جمادى الاولى عام 1181 (1767م) بما نصه «وفي عشرينه اخرج خلفهم أيضا خليل بك تجريدة اخرى وفيها ثلاثة صناجق ودجاقلية وعسكر مغاربة» (79) «وخليل بك هذا كان اميرا للحج اما من اخرجت خلفهم التجريدة فكانوا بعض الخارجين من المماليك الذين احتلوا مدينة هامة جنوب مصر (المينا) وقطعوا الطريق على المسافرين عبرها.

الاشارة الثانية بعد ذلك بعامين (1183-1769م) عن تجريدة أخرى لمحاربة المماليك الذين احتلوا مدينة أخرى في جنوب البلاد ـ أسيوط ـ وتتكون التجريدة كما سجل الجبرتي «من كل وجاق جماعة وعساكر ومغاربة»، ومرة أخرى تقتصر الاشارة من جنود الطوائف على المغاربة (80)

---

78) هي حركة زعيم المماليك على بك الكبير (1769 ـ 1773)

انظر د. محمد رفعت رمضان : على بك الكبير (القاهرة 1950)

79) الجبرتي مصدر سابق ج 1 ص 319

80) نفس المصدر ونفس المجلد ص 376

يأتي ذكر المغاربة مع غيرهم من الاجناد في الفترة التي حكم خلالها على بك الكبير (1769ـ1773)،، ومعلوم أن هذا الامير المملوكي كان قد شكل جيشا كبيرا خلال تلك السنوات يحارب به العثمانيين ويقيم بواسطته الدولة التي ضمت مصر والشام والحجاز (81) وكان من الطبيعي أن يستعين بكافة العناصر التي يمكنه استخدامها لبناء هذا الجيش، وقد استتبع ذلك أن أصبح المغاربة عنصرا من تلك العناصر بعد ان كانوا العنصر الاساسي به.

يبدو ذلك من الاشارات التي جاءت في « عجائب الاثار » عن تلك العناصر، فقد ورد في اشارة منها خلال عام 1184 (1770م) ان على بك قد « استكتب اصناف العساكر اتراكا ومعاربة وشواما ومتاولة ودروز وحضارمة ويمانية وسودانا وحبوشا ودلاة وغير ذلك » (82).

وورد في اشارة اخرى في العام التالى 1185 (1771م) مانصه :

« أخرج على بك تجريدة عظيمة وسر عسكرها وأميرها محمد بك ابو الذهب وأيوب بك ورضوان بك وغيرهم كشاف وأرباب مناصب ومماليكهم وطوائفهم واتباعهم وعساكر كثيرة من المغاربة والترك والهنود واليمانية والمتاولة، وخرجوا في تجمل زائد واستعداد عظيم »(83).

غير انه رغم هاتين الاشارتين اللتين تؤكدان على وجود المغاربة مع غيرهم من جنود الطوائف خلال هذه المرحلة فانه تنبغي الملاحظة انه أتى ذكرهم وفي الاشارتين، في طليعة الطوائف الأخرى مما يدل على انهم استمروا يشكلون القوة الأساسية من قوى هذه الاجناد.

وتتأكد هذه الحقيقة مما ذكره الرحالة الفرنسي « فولني » الذي كان يجوب المنطقة وقتذاك بأن الجيش الذي أرسله على بك الى سوريا بلغ نحو 40 ألف رجل منهم 20 ألفا من المحاربين بينهم خمسة آلاف من الفرسان المماليك و 1500 من

---

81) انظر محمد رفعت رمضان : المصدر السابق

82) الجبرتي : المصدر السابق جـ 1 ص 397

83) نفس المصدر والمجلد ص 405

المشاة المغاربة (84) وهو لم يذكر من جنود الطوائف سوى هؤلاء مما يدل على أن القوة الرئيسية التي كانت بعد المماليک هي قوة المغاربة .

وبانتهاء هذه المرحلة تختفي تلك الطوائف ولايبقى.سوى المغاربة مرة أخرى وتتعدد الاشارات التي تؤكد ذلک.

في حوادث عام 1191هـ (1777م) وبعد عودة الصراعات المحلية بين ممثلي الدولة في القاهرة وبين المماليک المتمردين يشير الجبرتي انه تم في 28 رجب ارسال « عدة من الأجناد وأصحبهم عسكر المغاربة ومعهم الجبخانة (85) والمدافع » (86).

الاشارة الثانية في حوادث العام التالي (1192هـ ـ 1778م) عن دخول أحمد بک شنن الى القاهرة ومعه « جماعة الفلاح بأسهم وكشاف ومماليک واجناد ومغاربة » (87).

وتتوالى اشارات أخرى حتى نهاية القرن الثامن عشر ومجئ الحملة الفرنسية للبلاد وتؤكد جميعها على أنه لم يعد هناک ذكر لسائر الطوائف التي تعددت في عهد على بک.

وليس من تفسير لهذه الظاهرة سوى انه بينما كانت مختلف العناصر التي شكلت فرق الطوائف كانت بالاساس عناصر وافدة او مستوردة خصيصا لهذا الغرض ، وبالتالي كانت تختفى او تندثر بانتهاء السياسة التي تم استيرادهم في اطارها ، ولم يختلف الوضع سوى بالنسبة للمغاربة الذين كانوا في اغلبهم من العناصر المحلية التي استقرت في البلاد .

ويمكن التدليل على صحة هذا الاستنتاج باكثر من دليل .

1 ـ عندما احتلت الحملة الانجليزية بقيادة فريزر قسما من المنطقة الساحلية المجاورة للاسكندرية عام 1807 وبدأت التعبئة في القاهرة يصف الجبرتي طبيعة القوات التي تمت تعبئتها بقوله « وفي يوم الجمعة ، ركب ايضا احمداغالاظ وشق

---

84) جب وبوون : المصدر السابق جـ 2 ص 45
85) الجبخانه: كلمة تركية تعنى الذخيرة
86) الجبرتي : المصدر السابق جـ 1 ص 505
87) نفص المصدر والمجلد ص 517

بعساكره الذين كان بهم بالمنبة وتداخل فيهم الكثير من أجناسهم وغيرهم من مغاربة وأتراك بلدية» (88).

والجبرتي بهذا قد ميز بين العنصرين الاخيرين ذي الصبغة المحلية (البلدية) وسائر العناصر التي شاركت في القوة.

2 ـ قبل ذلك وخلال الوجود الفرنسي في مصر (1798 ـ 1801) عمد الفرنسيون بعد تدمير اسطولهم في ابوقير وبعد تقطع اسباب الاتصال بينهم وبين بلادهم نتيجة لمحاصرة الاسطول الانجليزي للشواطي المصرية بكل ما ترتب على ذلك من توقف الامداد بالرجال ..عمدوا الي تجنيدبعض العناصر المحلية في جيشهم، وكان المغاربة عنصرا من تلك العناصر.

يسجل الجبرتي هذه الحقيقة فيقول « وفيه توسط عمر القلقجي لمغاربة الفحامين وجمع منهم ومن غيرهم عدة وافراد وعرضهم على صارى عسكر فاختار منهم الشباب وأولى القوة وأعطاهم سلاحا والات حرب ورتبهم عسكرا.. وسكن العسكر المغربي بدار عند باب سعادة ورتبوا له من الفرنسيين جماعة يأتون اليهم في كل يوم ويدربونهم على كيفية حربهم وقانونهم ومعنى اشاراتهم » (89).

3ـ اختلفت سلوكيات العناصر المغربية العسكرية عن سلوكيات سائر العناصر الوافدة ، حتى من داخل الدولة العثمانية ، مثل الدلاة والأرنؤود اذ بينما غلبت على سائر هذه العناصر الرغبة في النهب وايذاء المصريين فقد كانت العناصر العسكرية المغربية عنصر استقرار دائما، ولم نلحظ عبر الحوادث الكثيرة التي عرفتها مصر حتى البدء في بناء الدولة الحديثة اي نزاع أو صدام بين هؤلاء وبين سكان القاهرة بينما كانت تلك النزاعات دائمة الحدوث مع العناصر العسكرية الاخرى.

أكثر منهذا ان العسكريين المغاربة قد وقفوا الى ضف أهل القاهرة في نزاعاتهم مع سائر العناصر العسكرية الوافدين، وأوضح مثل على هذا ما جرى خلال ثورة القاهرة عام 1805.

88) المصدر السابق جـ 3 ص 190

89) انظر د. عبد العزيز الشناوى: السيد عمر مكرم

هذه الثورة قامت ضد الوالى العثماني « خورشيد باشا » الذي استعان على نطاق واسع بعساكر الاكراد « الدلاة » الذين اذاقوا اهل القاهرة صنوفا من اسباب التنكيل والاضطهاد.

انتهى الأمر بان تجمع العلماء واهل الحاراتفي القاهرة ليحاصروا الباشا العثماني في مقره بالقلعة ويجبرونه على الخروج من البلاد . ويسجل الجبرتي دور العسكر المغاربة في مشاركة اهل القاهرة من هذا الامر ففي احد المواضع تأتي الاشارة الى القوة التي تشكلت لحصار القلعة لاجبار خورشيد باشا على التنازل فيقول في حوادث شهر ربيع الأول عام 1220 ـ 1805 « وفي يوم الاثنين ركب السيد عمر وصحبته الوجاقلية وأمامه الناس بالاسلحة والعدد والاجناد واهل خان الخليلي والمغاربة شيء كثير جداً ومعهم بيادق ولهم جلبة وازدحام » (90).

وفي موضع اخر يأتي الحديث عن صدام مسلح وقع بين عسكر الباشا بأنه « في يوم الأحد حادي عشرة وقعت ايضا مناوشات وتعدى بعض العسكر ودخلوا باب زويلة ووصلوا الى العقادين فخرجت عليهم طائفة المغاربة وغيرهم فتترس منهم جماعة بجامع الفكهاني فحصروهم به وقبضوا على نحو العشرة أنفار » (91).

المرة الوحيدة التي يذكر الجبرتي فيها ان العسكر المغاربة قد خرجوا في سلوكهم عن جادة الإنضباط الذي اختلفوا فيه عن سائر الطوائف الوافدة ..هذه المرة كانت خلال فترة الفوضى التي اعقبت سقوط السيطرة المملوكية على القاهرة عام 1803.. فقد جاء في احداث اواخر شهر ذي القعدة عام 1218 (مارس 1803) انه لدى هروب الامراء المماليك من القاهرة ، او لدى نزولهم من القلعة ـ على حد تعبير الجبرتي ـ « نهب عسكر المغاربة الضر بخانة وما فيها من الذهب والفضة والسبائك حتى العدد والمطارق » (92).

وحتى في هذه المرة نلاحظ ان المغاربة لم ينصرفوا الى التعدى على « حارة من الحارات او طائفة من طوائف الناس » على حد تعبير الجبرتي أيضا ـ وانما

---

90) الجبرتي : المصدر السابق جـ 3 ص 66

91) نفس المصدر والمجلد ص 68

92) نفس المصدر جـ 2 ص 637

تهجموا على احدى مؤسسات السلطة ونهبوا ما فيها !

وقد استمر العسكر المغاربة يلعبون هذا الدور الذي اتسم بطابعه الاستقراري حتى بناء محمد على للدولة الحديثة ، وبينما نلاحظ ان القوة العسكرية التي تم بناؤها في ظل هذه الدولة قد تخلصت تماما من الطابع الطائفي فان هذا التخلص من سائر الطوائف قد حدث بسرعة اما التخلص من طائفة « العسكر المغاربة » فقد استغرق بعض الوقت ولم يمكن الانتهاء منه الا بدمج عناصر هذه الطائفة في الجيش المصري الحديث.

اما عن الوقت الذي استغرقه التخلص من العناصر العسكرية المغربية فيبدو في ان هذه العناصر ظلت تلعب دورا في الاعمال العسكرية للدولة الحديثة حتى منتصف العقد الثاني القرن التاسع عشر او على وجه التحديد عام 1814 .

فقد شكل المغاربة عنصرا هاما من عناصر الجيش الذي ارسله محمد على بضربالحركة الوهابيه في شبه الجزيرة العربية بناء على مطلب الدولة العثمانية.

يسجل الجبرتي ذلك في حولياته عن احداث منتصف شهر جمادى الأول عام 1229 (مايو 1814) حين يقول «وفيه خرج عسكر المغاربة ومن معهم من الاجناس المختلفة الى مصر العتيقة ليذهبوا من ناحية القصير الى الحجاز» (93) ،كما يسجل في احداث رمضان من نفس السنة « وفي عاشره خرجت العساكر المجردة لسفر الحجاز الى بركة الحج وهم مغاربة وعربان » (94)،

اما عن الانتهاء بالادماج فتشير وثائق دار الوثائق القومية بالقاهرة الى شغل عددمن المغاربة لمناصب في الجيش المصري الحديث سواء في ذلك العامل في الحجاز مثل عبد الله اغا ومحمد اغا (95) او العامل في السودان تحت قيادة اسماعيل ابن محمد على (96) .

93) نفس المصدر جـ 3 ص 454

94) نفس المصدر والمجلد ص 466

95) اغا ليست تسمية وانما هي لفظة تركية تعني ضابط

96) عبد الرحيم عبد الرحمن : دور المغاربة في تاريخ مصر الحديث
المصدر السابق عدد 12 ص 177

المغاربة في مصر في ظل الدولة الحديثة:

أدى ما حدث خلال القرن التاسع عشر وعلى وجه الخصوص في عصر محمد على (1805 ـ 1848) من بناء الدولة الحديثة الى انعكاسات هامة على الوجود المغربي بتحجيمه وعلى الطابع المغربي باضعافه.

أما التحجيم فقد كان انعكاساً للتطورات التي حدثت سواء في ميدان اعادة بناء الاقتصاد المصرى أو في مجال اقامة نظام تعليمى حديث أو على مستوى تشكيل جيش جديد.

بالنسبة (للميدان الأول) نختار من سياسات محمد على الاقتصادية جانبين كان لهما اوضح التأثير على ضرب مصالح « اعيان المغاربة » بما تمخض عنه من نتائج سلبية على وجود هذه الشريحة المغربية.

تمثل الجانب الأول فيما جرى في ميدان الالتزام حيث نجح محمد على في الفترة بين عامي 1811 و 1814 في إلغاء هذا النظام تماما وصار الفلاحون يدفعون الضرائب إلى الدولة مباشرة أضف إلى ذلك قضاءه على تبعية الفلاحين الشخصية للملتزمين (97).

ومن البديهي أن تضرر مجموع الفئات التي كانت تستفيد من وجود هذا النظام ، وكان المغاربة.، أو تجارهم على وجه التحديد يشكلون فئة هامة من هؤلاء.

غير ان الجانب الثاني كان بمثابة الضربة الاكثر ايلاما التي تلقاها هؤلاء التجار ، وقد جاءتهم من السياسة الاحتكارية التي اتبعتها الدولة في عهد محمد على في شتى اوجه النشاط الاقتصادي ، تجاريا كان او صناعيا او زراعيا.

فمن خلال هذه السياسة اصبح مجموع الانتاج الصناعي والحرفي والزراعي في البلاد تحت سيطرة الحكومة ، في نفس الوقت اضطلعت الدولة بدور المورد الوحيد للبضائع المصرية الى الاسواق الداخلية والمصدر الوحيد الى الخارج وتحول تجار التجزئة في المدن الى وسطاء للحكومة لبيع بضائعها (98).

---

97) انظر هيلين ريڤلين : الاقتصاد والادارة في مصر في القرن التاسع عشر ترجمة د. احمد عبد الرحيم مصطفى

98) لوتسكى : تاريخ الاقطار العربية الحديث (موسكو 1971) ص7

اما تجار الجملة فقد تقلص دورهم وأصاب اعمالهم كثير من اسباب الكساد وكان من الطبيعي ان يصيب كبار تجار المغاربة ما أصاب غيرهم نتيجة لتطبيق هذا النظام.

في (الميدان الثاني) أقام محمد على نظاما تعليميا حديثا غير ذلك النظام التقليدي الذي استمر سائدا في مصر العثمانية من قبل.

وقد تميز هذا النظام بطابعين.. أولهما انه كان نظاما علمانيا حيث انتشرت المدارس التي قامت برامجها على اسس غير دينية مثل مدارس الهندسة والطب والصيدلة والالسن.

وتمثل الطابع الثاني في تلك العلاقة الوطيدة بين النظام الجديد والمؤسسة العسكرية التي نشأت في البلاد تلك الحقبة حتى ان الهدف الاساسي من وراء التعليم الجديد كان امداد هذه المؤسسة باحتياجاتها من الكفاءات التي تتطلبها الجيوش الحديثة (99).

وقد أدى هذان الطابعان الى الا يجد غير المصريين مكانا في مثل هذا النظام التعليمي ، سواء لعزوفهم عنه ولم تكن الدولة لتجبرهم على الانخراط فيه كما أجبرت المصريين، أو لأنهم لم يكونوا بعض ادوات القوة العسكرية الناشئة التي اقامها الباشا اضف الى كل ذلك انه لم يكن لغير المصريين الذين اتو للتعلم في مصر من رغبة سوى الانخراط في سلك التعليم الديني (الازهر).

اما (الميدان الثالث) وهو الميدان العسكري فانه قبل مرور عقد على تولية محمد على كان قد تخلص تماما تقريبا من نظام الطوائف العسكرية الذي كان قد تأكد خطره خلال السنوات الاربع التي اعقبت خروج الفرنسيين من البلاد (1801 ـ 1805) اذ كان وجود هذه الطوائف من أهم أسباب الاضطراب التي لحقت بمصر ابان تلك السنوات (100) وكان من الطبيعي أن تختفي طائفة المغاربة ضمن القوى العسكرية التى اختفت.

---

99) انظر د. احمد عزت عبد الكريم : التعليم في عصر محمد على

100) انظر عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في عصر محمد على

من ناحية ثانية فان محمد على عندما استعان بعناصر اخرى لتأسيس جيش حديث ، فهو بالاضافة الى العناصر التركية التي بقيت في القيادة العليا للقوات الحربية الجديدة قد استعان اولا بالعناصر السودانية بعد فتح السودان عام 1820، غير انه بعد فشله في هذا الاتجاه قرر اللجوء الى تجنيد المصريين وهو مانجح فيه. ولأول مرة خلال الحكم العثماني يتجه حاكم الى تجنيد أبناء البلد والخروج عن التقليد القديم بتجنيد العناصر الاسلامية المحاربة مهما كان كنهها، وقد أدت عملية تمصير الاداة العسكرية الجديدة الى أن يتآكل بالتدريج الوجود العسكري لغير المصريين، وقد كان الوجود المغربي عنصرا هاماً من عناصر هذا الوجود كما سبقت الإشارة.

اما اضعاف الطابع المغربي فقد نتج أساساً عن التغييرات السياسية التي عرفتها مصر خلال نفس الحقبة فقد حل محل الادارة العثمانية التي قامت على اللامركزية وعلى عدم التدخل في شؤون رعاياها الا في اضيق نطاق ..حل محلها نظام الدولة المركزية التي ترفض قبول اية وساطة بينها وبين رعاياها وترى ان تحكمهم بشكل مباشر.

ولما كان نظام الطوائف القديم يناسب الطابع التركي من حيث شكله اللامركزي ومن حيث تعامله مع شيوخ هذه الطوائف لا اعضائها الا انه مع التغير الذي أصاب الادارة الجديدة لم يكن هذا النظام قادرا على الصمود.

والواقع انه منذ مجئ الفرنسيين الى البلاد ، وهدمهم لابواب الحارات التي كانت تضم هذه الطوائف بادخلها بدأالنظام كله يواجه الانهيار .

واذا كانت عمليةلقضاء على هذا النظام قد تضمنت التخلص من طابعه الحرفي، وهو ما استغرق بعض الوقت ، فإنها قد تضمنت ايضا التخلص من طابعه العنصرى بحيث لم يعد بالامكان الابقاء على الشوام او على المغاربة او على غيرهم كطائفة قائمة بذاتها لها شيخها وحارتها كما كان الحال من قبل ، وقد استتبع ذلك وبمرور الوقت اختفاء الطابع الخاص للوجود المغربي في مصر.



لايعني ذلك ان الوجود اوالطابع المغربي قد اختفيا من مصر خلال القرن التاسع عشر نهائيا ، فقد استمرت على الاقل بقاياه قائمة وكان لابد ان يتخذا شكلا جديد ليتوانم مع الوضعية المتغيرة.

فمن ناحية تواجد التجار المغاربة وإن أصبحوا في غالبهم من « تجار الترانزيت » الذين يأتون إلى مصر او يخرجون منها مع موكب الحج.

ومن ناحية ثانية استمر قدوم الحجاج المغاربة الى مصر . حتى فتح قناة السويس عام 1869 على الأقل ، بكل ما اتصل بهذا القدوم من اسباب التواجد المؤقت فيها.

ومن ناحية ثالثة بقي رواق المغاربة في الازهر واستمر مقصدا لطلاب العلم الديني من المغرب وان كان المثقفون الدينيون في مصر قد فقدوا كثيرا من المكانة التي كانوا يتمتعون بها من قبل قد يقدم التفسير لاسباب ضعف الوفود المغربي الى مصر الذي يتبدى في قلة كتب الرحلات خلال القرن التاسع عشر (101) .

وكان من المطلوب على ضوء كل تلك التغييرات أن يعثر الوجود المغربيفي مصر على صيغة جديدة يتعامل من خلالها مع السلطة الجديدة في البلاد ، وقد تمثلت هذه الصيغة التي يتأكد وجودها منذأربعيناتالقرن التاسع عشر في تعيين ما اسمته بعض الكتابات « قنصلا مغربيا » في القاهرة،وما اسمته الوثائق « وكيل المغاربة في مصر » .

وأول وثيقة يعثر عليها في هذا الصدد تتمثل في ذلك الخطاب الذي بعث به سلطان المغربالى محمد على(102) يذكر له فيه ما بلغه من وفاة وكيل المغاربة في مصر « الحاج محمد بن عبد السلام برادة »وان الحاجة تدعو الى اختيار من يحل محله.

ويكشف خطاب السلطان عبد الرحمان عددا من الحقائق حول صاحب هذه الوظيفة الجديدة ..

---

101) انظر الفصل الثالث

102) دار الوثائق القوميةالمصرية ـ بحر برا ـ محفظة 19 وثيقة 69 من سلطان المغرب الى الجناب العالي 27 العقدة 1260 (أول ديسمبر 1844) انظر ملحق رقم 4

فأولا : كان المغاربة المقيمون في البلاد هم الذين يختارونه وان كان من الضروري ان تأتي الموافقة من السلطان المغربيعلى هذا الاختيار.

ثانيا : أما طبيعة عمل الرجل فتسجلها الوثيقة بانها « نفعه ودفعه عايد على حجاجهم وتجارهم وهم اعلم بمن يقوم بأمرهم على حسن المراد ويعامل الله في الأخذ بيد الضعفاء والفقراء في الاصدار والايراد » (103).

ونفس المعنى تقريبا تشير اليه الرسائل الاخرى التي تم العثور عليها من مصادرمغربية.

فمثلا في الرسالة الصادرة عنالسلطان الحسن الأول الى اسماعيل باشا عام 1294 (1877م) بشأن تعيين قنصل آخر هو الحاج عبد الواحد التازي بان مهمته النظر«فيخاصة أمور المغاربة القاطنين بالايالة المصرية والمارين بها لبيت الله الحرام وعامتها » (104).

وجاء نفس المعنى فيموضوع تعيين الحاج محمد بن قاسم الحلو الفاسي ، فقد سجلت رسالة السلطان عبد العزيز أنمهمته « النظر في أمور المغاربة بمصر والاسكندرية وأعمالهما » (165).

ثالثا : ترى السلطات المغربية ضرورة حسن العلاقة بين هذا الوكيل وبين السلطة المصرية، أو كما كتب السلطان عبد الرحمن لباشا مصر محمد على انه يعتمد في قيام وكيل المغاربة بعمله « على عنايتكم المألوفة ورعايتكم التي هي الى العدل والاحسان مصروفة ، فانه بملاحظتكم يبلغ في ذاك الأملوبعنايتكم يرد الاهابة في القول والعمل » (106).

وقد تولى الوكلاء المغاربةفيمصر اذ تتضمن الوثيقة السابق الاشارة اليها اسمين هما الحاج محمد بن عبد السلام برادة وخليفته الحاج محمد بن الطيب.

---

103) الوثيقة السابقة

104) محمد المنوني : مظاهر يقظة المغرب الحديث (الرباط 1973) ج 1 ص 46

105) المصدر السابق ص 48

106) نفس الوثيقة السابقة

وتشير وثيقة مغربية (107) الى قائمة تتضمن أسماء هؤلاء الوكلاء على النحو الآتي :

1 ـ مولاى محمد بن المهدي (لاذكر لتاريخ تعيينه)

2 ـ الحاج محمد الحبابي عام 1286 (1869م).

3 ـ الحاج عبد الغني بن الطيب التازي (المزعلك) الفاسي ، توفي بمصر عام 1294 (1877).

4 ـ الحاج عبد الواحد بن الطيب التازي وتوفي بفاس عام 1313 (1895م)

5 ـ الحاج محمد بن قاسم الحلو الفاسي وتوفي ايضا خلال نفس السنة (1313).

ولدينا وثيقة ثالثة عبارة عن رسالة من المولى محمد بن عبد الله الى اسماعيل باشا تذكر ان « وكيلنا بتلك الديار المعظمة الازهى الحاج محمدافروخ»(108).

وفي محاولة لترتيب هؤلاء الوكلاء يشير الاستاذ المنوني ان أولهم في العصر الحديث هو مولاى محمد بن المهدي، ويفهم مما ساقه ان الذي خلفه هو الحاج محمد الحبابي عام 1286(1869) (109) غيران الوثيقة الاولى تفيد بغير ذلك فقد كان هناك وكيلان قبل عام 1260 (1844م) وبعده، هما الحاج عبد السلام برادة وخليفته الحاج محمد بن الطيب.اذن فقد كان «محمد بن المهدي » ثالث هؤلاء على الاقل.

ثم تسجل الوثيقة الثالثة حقيقة أخرى وهي ان « محمد الحبابي » لم يكن هو الذي خلف « محمد بن المهدي » مباشرة ، حيث تشير هذه الوثيقة الى محمد افروخ. وهي بتاريخ 1282 (1865م) اي قبل مباشرة تعيين الحاج محمد الحبابي.

---

107) هي الوثيقة التي اعتمد عليها محمد المنوني : المصدر السابق ج 1 ص 46 وهي عبارة عن كناشة الفقيه العربي الدمناتي وتوجد بالمكتبة الملكية بالرباط تحت رقم 3718

108) دار الوثائق القومية المصرية بحر برا ـ محفظة 19 وثيقة 116 ـ من محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الى اسماعيل باشا في 18 جمادى اول عام 1282

انظر ملحق رقم 3

109) المنوني : مصدر سابق ص 42

وليس هناك اعتراض بعد ذلك على طبيعة ترتيب بقية الوكلاء بالصورة التي اوردها بها الاستاذ المنوني اعتمادا على الوثائق المغربية غير ان هذا الترتيب يتطلب ضبطا لتواريخ تعيين وانتهاء فترة شغل كل من هؤلاء لهذه الوظيفة.

ويبقى في النهاية تسجيل بعض الملاحظات حول وكلاء المغاربة في مصر.

1) انه في الغالب كان تقوم اسر مغربية بعينها بتولى هذا المنصب ، ويمكن احصاء هذه الاسر وهي برادة (فقد كان محمد بن الطيب ابن عم محمد بن عبد السلام) والحبابي والتازي (كان عبد الواحد ابن أخ عبد الغني) والحلو.

ويلاحظ ان هذه الاسر كانت بالأساس أسرا فاسية.

2) انهم كانوا جميعا من اصحاب لقب « الحاج » وهذا من الامور العادية اذ كان المغربي الذي يتوجه الى الشرق يؤدي فريضة الحج قبل اي شيء آخر ، وهو اما ان يعود بعد ذلك او يبقى كما سبقت الاشارة.

3) انهم كانوا على الارجح من المقيمين في مصر ، حيث نلاحظ ان اغلبهم قد توفي بها وان كان ذلك لايعني ان روابطهم بالمغرب قد تقطعت بدليل ان الحاج عبد الواحد بن الطيب التازي قد توفي بفاس (110).

وتطرح هذه الملاحظة قضيتين :

الاولى قضية فترة شغل الوظيفة ويتضح من الوثائق المتوفرة لدينا ان شاغلها كان في العادة يبقى حتى وفاته ، ولعل ذلك يعود الى ان وكيل المغاربة الذي كان بمثابة قنصل لبلاده في القاهرة فقد كان في نفس الوقت عميدا لابناء وطنه المقيمين في مصر مما يتأكد من الظاهرة التي سبق تسجيلها وهي اختيارهم له.

الثانية : تأسيسا على القضية الاولى وتأسيسا على ان المخزن طوال القرن التاسع عشر تقريبا لم يكن يؤدي رواتبا قارة لموظفيه ، ففي تقديرنا ان هؤلاء الوكلاء لم يحصلوا على اي مقابل من حكومتهم في مقابل تأدية هذا العمل.

---

110) المنوني : المصدر السابق ص 46 الذي يحيل على الكتاني: زهرة الاس في بيوتات فاس خزانة عامة ك 1281

4 ـ ان وكيل المغاربة كان له عدد من الاعوان .. منهم نائبه الذي يقيم معه في القاهرة، وغالبا ما كان يتولى هذا النائب الوظيفة في حالة خلوها كما حدث عندما تولى الحاج محمد بن قاسم الحلو الفاسي منصبالوكالة خليفة للحاج عبد الواحد بن الطيب التازي وكان الحلو نائبا للتازي قبل رحيل الاخير الى فاس (111)

ومن الاعوان الآخرين اولئك المقيمين في غير القاهرة مما يشير اليه ظهير المولى عبد العزيز في تعيين محمد الحلو وتحديد اختصاصاته « بالنظر في امور المغاربة في مصر والاسكندرية واعمالهما واذنا له فياستنابة من ترضى انابته عنه بالأسكندرية وغيرها من المدن والقرى التي للمغاربة فيها القرار ».

5 ـ الملاحظة الاخيرة تتضح فيما أصاب نظام تعيينهؤلاء الوكلاء من تغيير بعد وقوع مصر في قبضة الاحتلال البريطاني عام 1882.

فقبل هذا التاريخ كان يتم هذا التعيين من خلال الرسائل المتبادلة بين سلاطين المغرب والحكام المصريين (113).

اما بعد هذا التاريخ فهناك مايشر الى ان هذا التعيين كان يتم من خلال الاتصال بالممثل البريطاني في طنجة.

يدل على ذلك انه في تعيين القنصل الاخير قد تم ابلاغ ظهير المولى عبد العزيز في هذا الشأن الى نائبه في طنجة الحاج محمد بن العربي الطريس (114) وليس من تفسير لهذا الابلاغ سوى ان يقوم الأخير بالاتصال بأحد ممثلي الدول الاجنبية المقيمين في طنجة لابلاغه بفحوى الظهير ، ولما لم يكن لمصر ممثلا بين هؤلاء فالمفهوم انه كان عليه ان يبلغ به الممثل البريطاني.

لايبقى أخيرا سوى التأكيد على أن ماجرى من تطورات تمثلت في الاحتلال البريطاني لمصر وزيادة النفوذ الاوربي في المغرب في أواخر القرن التاسع قد أسهم في مزيد من أسباب تقليص العلاقات بين البلدين بل وانتهت إلى أن أصبح البلدان موضع صفقة إستعمارية شهيرة.

---

111) المصدر السابق ص 46

112) نفس المصدر ص 40

113) رسالة عبد الرحمن لمحمد على في 1260 ومحمد بن عبد الله الى اسماعيل في 1282 والحسن الاول الى اسماعيل ايضا 1294 ((1877)

114) المنوني : مصدر سابق ص 48

الفصل السادس

الصفقة الاستعمارية
مصر والمغرب في الوفاق الودي عام 1904

نحو عقد الصفقة 1901 - 1903

اعداد الصفقة 1903 - 1904

ابرام الصفقة 1904

الصفقة الاستعمارية

مصر والمغرب في الوفاق الودي عام 1904

يلفت النظر حقيقة ذلك الاقتران الذي جمع بين المسألتين المصرية والمغربية في الدوائر الاستعمارية: في أوائل القرن العشرين حتى انتهى الامر بوضع البلدين في سلة واحدة أو في صفقة واحدة المعروفة بالوفاق الودي Entente Cordiale أو الافضل من ذلك الصادرة تحت عنوان «تصريح فرنسي انجليزى متعلق بمصر والمغرب وموقع في لندن بتاريخ 8 أبريل 1904».

وتوصيف «الصفقة» ليس من عندياتنا وانما تداوله وزيرا خارجية الدولتين الامبرياليتين المعنيتين، ماركيز اوف لانسدون وزير الخارجية البريطانية، والمسيو دلكاسيه (1) وزير الخارجية الفرنسية. تداولاه في الاجتماع الذي عقداه في لندن في 7 يوليوز عام 1903، وهو الاجتماع الذي وضع فيه الرجلان الخطوط الاولى للاتفاق الذي تم التوصل اليه بعد ذلك بثمانية شهور.

فقد كان من بين ماأشار اليه الوزير البريطاني ضرورة عدم تجاهل اسبانيا في الاتفاق المزمع التوصل إليه وجاء رد السيد دلكاسيه «فيما يتصل بإسبانيا ينبغي أن تكون طرفا في الصفقة، اذن فمنطق الصفقة قد تحكم في النظر للقضية ككل ثم في التعامل معها من هذا المنطلق.

---

(1) With regard to Spain it would be a part of the bargain P.R.O. F.O. 363/17 N. 2 The Marquess of Lansdowne to Sir E. Monson, July 7, 1903 Desp. N. 336 Very Confidential انظر ملحق رقم 5

ومن الطبيعي أن تتدافع التساؤلات مع تناول هذه القضية..

تساؤل عن صلة «الصفقة الاستعمارية» بالعلاقات المصرية- المغربية وهل يمكن حقيقة أن ندرجها في اطار هذه العلاقات؟

تساؤل آخر عن ذلك التقطع البادي في العلاقات بين البلدين الذي اتضح تماما منذ نهاية عصر اسماعيل (1879) وحتى عقد الاتفاق (1904) وهو تقطع استمر لنحو ربع قرن.

تساؤل أخير عن الدواعي التي دفعت أكبر قوى العصر الاستعمارية الى جمع البلدين في الصفقة الشهيرة.

فيما يتصل بالبحث عن اجابة للتساؤل الاول..

صحيح انه لايمكن القول بعلاقة مباشرة مصرية- مغربية في اطار صفقة 1904.. ذلك أن وجود هذه العلاقة كان يستدعي صنعها أو فعلها، بمعنى أن يكون أحد طرفى العلاقة أو كلاهما في موضع (الفاعل) ولكنهما في هذه المناسبة كانا في موضع (المفعول به).. كل هذا صحيح ولكن من الصحيح أيضا أن تلك الصفقة الاستعمارية قد أثرت، وبشكل متناسق، على وضعية البلدين مما كان لابد أن ينعكس بالتالي على العلاقات بينهما.. وبالتالي فان تجاهل هذه الحادثة في تاريخ العلاقات المصرية- المغربية كان من المحتم ان يخلف فجوة واضحة في هذا التاريخ.

نأتي للتساؤل الثاني فيما تم ملاحظة من تقطع بادفي العلاقات بين البلدين بعد نهاية عصر اسماعيل..

فمن ناحية توقفت تقريبا تلك المحاولات التي نشطت خلال سنوات القرن التاسع عشر ببعض أشكال التبادل الثقافي بين البلدين، سواء بارسال الطلاب المغاربة الى مصر أو بقدوم بعض الخبراء المصريين الى المغرب.

ومن ناحية ثانية تضاءلت أهمية ركب الحج المغربي، وهو الركب الذي استمر يشكل جسرا من أهم جسور العلاقات بين البلدين.

ومن ناحية أخيرة توقف تقريبا أي دور مغربي في الحياة المصرية سواء على

صعيدها السياسي (2) أو على صعيدها الاجتماعي (3).

ويمكن أن يعزى كل هذا التآكل الذي اصاب العلاقات بين البلدين لاكثر من سبب:

1ـ أما توقف التبادل الثقافي فيمكن رده لعوامل عديدة، فمن جانب توجه المغرب الى الاخذ باسباب التحديث من أوربا مباشرة دون السعي الى البحث عنها في الشرق، وقد تدعم هذا الاتجاه في عصر المولى الحسن الاول (1873ـ1894) (4) وهو عصر واكب أواخر عصر اسماعيل كما واكب فترات عدم الاستقرار السياسي التي عرفتها مصر في أواخر عهد هذا الخديو ثم ماعقبه من الثورة المصرية المعروفة بالثورة العرابية والتي انتهت بالاحتلال البريطاني للبلاد (1882). وفي ظل هذه التطورات كان منطقيا ان يزداد التوجيه المغربي للبحث عن الثقافة الحديثة في أوربا وليس في الشرق.

على الجانب الاخر كان الاخذ باسباب الثقافة التقليدية مستمرا في الضعف سواء لان هذه الثقافة نفسها قد توارت لتحتل مكانة متأخرة في مصر ذاتها بعد أن انتشرت مؤسسات الثقافة الحديثة منذ أوائل القرن أو لان ركب الحج المغربي الذي كان يضم في صفوفه طلاب العلم المغاربة قد ضعف شأنه.

2ـ تأتي بعد ذلك قضية ركب الحج المغربي والذي ضعف شأنه بالنسبة لمصر لاسباب عديدة.

سبب أول: انه بعد فتح قناة السويس واستخدامها في الملاحة الدولية (1869) لم تعد ثمة حاجة ملحة لنزول هذا الركب في الاراضي المصرية وبقائه فيها لوقت طويل ليخرج ضمن قافلة الحج المصرية كما سبقت الاشارة (5).

سبب ثان: ان قافلة الحج المصرية قد فقدت كثيرا من أسباب أهميتها السابقة، ذلك أن الاستقلال النسبي الذي حصلت عليه مصر من الدولة العثمانية بعد حروبها

---

(2) الفصل السابع

(3) الفصل الخامس

(4) انظر المصادر الدفينة لتاريخ المغرب ـ المجموعة العلوية

(5) أنظر الفصل الثاني: مصر وطريق الحج المغربي

معها خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر قد أدى الى أن يصبح اعداد هذه القافلة واخراجها عملا مصريا يتأثر بالمعطيات المصرية بعد ان كان فيما سبق عملا وجوبيا يلتزم الباشا العثماني بتأديته.. ويمكن أن يؤدي الى عزل هذا الباشا اذا لم يؤده على النحو الذي يحفظ للدولة هيبتها.

أضف الى ذلك ان الانفتاح الاقتصادي الذي عرفته مصر خلال القرن التاسع عشر خاصة في عصر كل من محمد على (1805ـ1848) واسماعيل (1863ـ1879) قد أدى الى تمتين العلاقات الاقتصادية مع اوربا، وهو تمتين تم على حساب العلاقات الاقتصادية مع سائر البلدان العربية والاسلامية وقد أدى ذلك الى ضعف المردودية الاقتصادية لركب الحج المغربي الذي كان يضم قطاعات هامة من التجار.

3ـأما ضعف الدور المغربي السياسي والاجتماعي في مصر فمصدره كل ماشهده التاريخ المصري بامتداد القرن التاسع عشر من تطورات.

فقد تمثل أهم ماحدث في مصر في هذا القرن في بناء الدولة الحديثة وظهور السلطة المركزية، وهذا النوع من الدول وذاك النمط من السلطة لايسمحان بأي حال لاي قوى فئوية بلعب اي دور، عسكريا كان أو سياسيا.

فلم نعد نسمع في الجيش الحديث الذي اقامه محمد على «بطائفة المغاربة» كما لم نعد نسمع بعد استقرارنظامالحكم بتلك الاحداث الدورية التي كانت تتفجر بها القاهرة، سواء على شكل انتفاضات على الحكام العثمانيين أو على شكل ثورات، على محاولات الغزو الاجنبي، وهي انتفاضات وثورات كانت طوائف المغاربة تلعب فيها دورا هاما.

أما على الصعيد الاجتماعي فقد هدمت السلطة المركزية ابواب الحارات التي كانت تضم في داخلها مختلف الطوائف وتحافظ على طابعها واستمراريتها وأدى ذلك الى اختلاط اجتماعي كان لابد وأن ينتهي في آخر الامر الى دوبان المغاربة، ومع مرور الوقت لم يعد لكثير من الاسر ذات الاصل المغربي سوى الاسم الذي اتى به آباؤها أو باللقب الذي ظل منتشرا تعبيرا عن الاصول التي اتت منها هذه الاسر.. لقب (المغربي)!

يبنى التساؤل الاخير عن البواعث التي دفعت بالدولتين الامبرياليتين العتيدتين الى عقد الصفقة المصرية ـ المغربية.

وينبغي قبل الرد على هذا التساؤل ان نستدرك ونشير الى أن الصفقة قد ضمت من بين ماضمته أطرافا أخرى مثل نيوفوندلاند وسيام والنيو هبرديز الا ان قطبي الرحا فيها كانا مصر والمغرب (6).

ويمكن في هذا الصدد رصد باعثين أساسيين أديا الى عقد الصفقة.

تمثل الباعث الاول في الموقع الاستراتيجي المتشابه للبلدين محل الصفقة مصر والمغرب، وتؤكد لنا قراءة محاضر المباحثات التي جرت بين الدولتين طرفى الصفقة مدى تأثير هذا الموقع في عقدها.

يشير محضر الجلسة التي انعقدت بين لانسدون ودلكاسيه في 7 يوليوز عام 1903 انه حين طالب الوزير الفرنسي بترك حرية العمل لبلاده في المغرب فان التحفظ الاول الذي أبداه الوزير البريطاني بانه ينبغي على الجانب الاخر أن يعلم «اننا مهتمون للغاية بالساحل المغربي المطل على البحر المتوسط وبالذات طنجة والساحل المجاور لها»، وجاء رد السيد دلكاسيه بانه يعترف باستحالة أن يسمح الانجليز لاي دولة أخرى «بالتواجد في طنجة وانه بالامكان الاتفاق على مياه هذا القسم من الساحل» (7).

في أول أكتوبر من نفس السنة (1903)، وفي لقاء بين السفير الفرنسي في لندن ووزير الخارجية البريطانية جاءت المطالبة الفرنسية بالمقابل شعورا من جانب حكومة باريس بأهمية الموقع المصري هذه المرة.

فقد طلب السيد كامبون من الماركيز لانسدون تعهدا بريطانيا «بتأكيد المباديء التي جاءت فيمعاهدة 29 أكتوبر عام 1888 والقاضية بضمان حرية المرور في قناة السويس في جميع الاوقات (8).

---

6) F.O. 363/17 N. 2 Lansdowne To Manson, July 1, 1903 Desp. N. 336 Very Conf.

7) F. O. 363/17 N. 2 Lansdowné to Monson, July 7, 1903 Desp. N. 336 Very Conf.

8) F.O. 363/17 N. 16 Lansdowne to Cromer, Oct. 28, 1903 Tel. N. 30 Secret.

الباعث الثاني انبثق من التعقيدات الدولية التي كانت تواجهها كل من القوتين الامبرياليتين وهما تحاولان فرض هيمنتهما الاستعمارية على البلدين العربيين ورغبة كل منهما في تجاوز القدر الاكبر من هذه التعقيدات..

فرنسا كان أمامها في المغرب مهمة جسيمة، كان هناك الانجليز أصحاب المصالح والنفوذ في المغرب حتى أن حجم تجارة المغرب مع الجانب البريطاني كانت أكبر من حجم تجارته مع أي قوة أوربية أخرى، وحتى أن ممثل بريطانيا في طنجة ابتداء من عهد السير درمندهاي كان بمثابة المستشار الرئيسي للسلطان فيما يتصل بعلاقاته الاوربية (9) أضف إلى ذلك صلابة الموقف الانجليزي دفاعا عن المصالح البريطانية في الميدان الاستعماري مما بدا قبل ذلك بسنوات قليلة في حادثة فاشودةالشهيرة التي وصلت فيها العلاقات بين الدولتين الى حافة الحرب لولا انسحاب فرنسا في اللحظة الاخيرة (10)، وهي تجربة كان الفرنسيون بالقطع عازفين عن تكرارها في المغرب.

كان هناك أيضا الاسبان الذين كان يصعب تجاهلهم لسببين.. أولهما؛ وجودها التاريخي في بعض الاراضي المغربية (سبتة ومليلية)، وثانيهما: قربها الشديد من الاراضي المغربية حتى أن أي وجود اوربي على هذه الاراضي يمكن أن يزعجها.

وكان هناك بعد ذلك تلك القوى الفتية الاوربية التي كانت تسعى وقتئذ للمشاركة في الميدان الاستعماري، وبالذات المانيا، والتي لم تكن لتسمح بسهولة أن تكون المغرب لقمة سائغة بالنسبة للفرنسيين.

وفهماً لكل هذه التعقيدات التي استوعبتها فرنسا كان عليهاان «تنظف» طريقها لفرض هيمنتها على المغرب، وقد أدركت انه بالاتفاق مع حكومة لندن تكون قد تخلصت من أهم هذه التعقيدات.

بالنسبة (لبريطانيا) لم يختلف الامر كثيرا في مصر، صحيح انها قد احتلت هذه البلاد منذ عام 1882 الا انه كان لازال أمامها لفرض هيمنتها الكاملة عليها عديد من العقبات.

---

(9) انظر: ب.ج روجرز: تاريخ العلاقات الانجليزية ـ المغربية حتى عام 1900
ترجمة د. يونان لبيب رزق (الدار البيضاء 1981)

(10) أنظر د. على ابراهيم عبده: السياسة الدولية في اعالي النيل (القاهرة 1958)

تمثلت أولى هذه العقبات في تلك التصريحات التي استمر وزراء الخارجية البريطانية في اطلاقها منذ بدء الاحتلال والتي تضمنت الوعود «بالجلاء» فور استقرار احوال البلاد ، ولكن منذ مطلع القرن بدت الرغبة في التراجع عن هذه التصريحات خاصة وكان لابد أن تكون الاحوال قد استقرت بعد عشرين سنة من الحكم البريطاني.

العقبة الثانية بدت في الحركة الوطنية المصرية التي بدأت ضعيفة منذ اواخر القرن (1894) لكن عودها اخذ في الاشتداد خاصة بعد اصدار الزعيم مصطفى كامل لصحيفته المشهورة اللواء (1900) وبعد ان بدأت مجموعات قوية تساند الزعيم الوطني وتلتف حوله، أهم من ذلك أن الرجل قد آمن بامكان احراج المسؤولين البريطانيين في الميدان الاوربي، ومن هنا تعددت رحلاته الى العواصم الاوربية، خاصة باريس، يكون فيها رأيا عاما مضادا لاستمرار الاحتلال البريطاني لبلاده.

وجاءت العقبة الثالثة من هذا التمثيل القوي للفرنسيين من بعض الادارات المصرية، خاصة الادارات المتصلة بالديون المصرية لاوربا (صندوق الدين) والقضاء الاجنبي الذي تواجد في البلاد منذ عهد اسماعيل (المحاكم المختلطة)، ، وكان من الطبيعي ان يسعى الفرنسيون الى بث العراقيل في طريق الوجود البريطاني في البلاد خاصة بعد أن انفرد البريطانيون باحتلال مصر بعد ان كان الاتفاق أن تشترك الدولتان في هذا الاحتلال غير ان الفرنسيين تقاعدا في اللحظة الاخيرة.

وقد رأت حكومة لندن انها باتفاقها مع الفرنسيين سوف تنجح في التخلص من كل هذه العقبات، فهي من ناحية ستتخلص من اقوى مطالب أوربي بتنفيذ وعود الجلاء التي استمر الوزراء البريطانيون في اطلاقها خلال السنوات السابقة، وهي من ناحية اخرى سوف تضمن تراجع التأييد الفرنسي للحركة الوطنية المصرية مما يمكنها من توجيه الضربة القاضية لهذه الحركة، وهي من الناحية الاخيرة سوف تحول الوجود الفرنسي في الادارة المصرية من عنصر تعويق لادارتها للبلاد الى عنصر تأييد لهذه الادارة.

على الباعثين السابقين تأسست سياسات الدولتين الامبرياليتين لعقد الصفقة المصرية ـ المغربية، وبدأت كل منها تخطو خطواتها الاولى في اتجاه هذا العقد

نحو عقد الصفقة (11).

كان تزايد الاهتمام الفرنسي بالمسألة المغربية المدخل الاساسي لعقد الصفقة، وقد حكم هذا التزايد عنصران.. أولهما ماحدث من احتلال فرنسا للجزائر والدور الذي لعبه المغاربة في مساندة الحركة الوطنية المناهضة لهذا الاحتلال (1830ـ1847) وهو الدور الذي أدى بالعلاقة بين البلدين الى حالة من الحرب (إيسلي1844) اعقبها حالة من التربص الفرنسي بالاراضي المغربية من جهة الشرق، وهي حالة كان مطلوبا أن تتحول مع الوقت الى سيطرة على تلك الاراضي، العنصر الثاني: اتصل بالدور الذي لعبته سائر القوى الاوربية في الميدان المغربي، وهو دور كان يتزايد هو الاخر مع مرور الوقت.

وانبثاقا من هذا الاهتمام ظلت الاتصالات الفرنسية الانجليزية تجري ولمدة عامين (يوليوز 1901ـ يوليوز 1903) حول القضية المغربية فقط دون محاولة لربطها بأية قضية أخرى.

ويلاحظ أن هذه الاتصالات قامت على ركيزتين:

أولاهما: المنافسة القائمة بين الدولتين على السيطرة على المغرب، الفرنسيون ينشطون لتعزيز مراكزهم على الحدود والانجليز يوطدون مركزهم في البلاط المغربي بفضل جهود رجالهم في هذا البلاط (12).

الثانية: حرص الجانبين على الابقاء على الوضع الراهن Status Quo بحيث لايسمح أي منهما بغلبة نفوذ الجانب الاخر.

---

(11) اعتمدنا في متابعة عقد الصفقة على الوثائق السرية الخاصة بالخارجية البريطانية وبالذات الملف الاتي F.O. 363/17 Correspondence Rolating to the Anglo-French Agreement - Signed at London. April 8, 1908 - Part I Documents Diplomatiques بالاضافة الى الوثائق الفرنسية المنشورة تحت عنوان Français, 1871 - 1914 Deuxième serie Tome 1, 2, 3, 4.

وقد نشر د. محمد خير فارس اغلب هذه الوثائق الاخيرة في كتابه: المسألة المغربية 1900ـ1912

(12) و(12م) محمد خير فارس: المصدر السابق ص 202

وقد استمرت هاتان الركيزتان تهيمنان على الاتصالات بين الدولتين خلال العام الاول (يوليوز 1901 ـ يوليوز 1902).

الاتصال الأول الذي جرى في 3 يوليوز عام 1901 يبلغ فيه السفير الفرنسي في لندن وزير الخارجية البريطانية بان الجانب الفرنسي «لايهدف الا إلى هدوء ووحدة السلطنة الشريفة» (12م).

الاتصال الثاني جرى في أواخر يناير من العام التالي (1902) وفيه اعرب السيد كامبون للمركيز لانسدون عن خلق حكومته من النشاط المتزايد الذي يقدم به الجانب البريطاني خاصة في ميدان المشاريع الاقتصادية والمالية مما سيحطم الوضع الراهن.

وبعد ان يهديء الوزير البريطاني من روع سفير فرنسا يختم حديثه له بقوله: «يجب الا تصغوا لكل هذه الضجة فاننا مثلكم من أنصار الوضع الراهن» (13).

في يوليوز من نفس السنة (1902) يحدث تغيير هام في السياسة الفرنسية عندما تضع وزارة الخارجية مذكرة هامة حول المسألة المغربية تقرر بمقتضاها أن تتخلى حكومة باريس عن سياسة الابقاء على الوضع الراهن، ومن ثم نلاحظ أن الاتصالات التي اعقبت هذه المذكرة كانت تسعى أساسا الى العمل على الحصول على الموافقة الانجليزية على هذا التخلي.

بدأ ذلك في الاتصال الذي جرى بين كامبون ولانسدون في أواخر هذا الشهر وفيه طرح السفير الفرنسي في لندن ما اسماه بسياسة المصارحة ، أما هذه الصراحة فقد افضى بها السيد كامبون على النحو الاتي :

«ان مصلحة انجلترا السياسية في المغرب هي في طنجة، وأن أوربا لن تسمح لانجلترا باحتلالها، وان انجلترا كذلك لن تسمح لاية دولة باحتلالها، والحل الافضل هو (حياد طنجة) ومقابل ماستحصل عليه بريطانيا من اطمئنان بهذا الحل سيكون بامكانها الاعتراف بحق فرنسا في النفوذ» (14).

---

(13) المصدر السابق ص 203

(14) Documents Diplomatiques Français 2ème Série Tome II. N. 331 Cambon à Delcassé 23 Juillet 1902.

ومرة أخرى، وبعد اسبوعين، يعود السفير الفرنسي في لندن ليبلغ لانسدون ان دلكاسيه يرى ان «سيادة فرنسا في الجزائر ستصبح مهددة بتدخل مقنع أو سافر من دولة أخرى وان مصالح فرنسا في المغرب على كل مستوى سواء كان المستوى الاقتصادي أو المستوى السياسي، فالمغرب هو امتداد للجزائر وهو الطريق الواصل الى امبراطورية فرنسا الافريقية وانها لن تسمح باي حال بالسيطرة عليه من جانب أية قوة اخرى».

وينتقل المسيوكامبون من ذلك الى عقد مقارنة بين كل من المصالح الفرنسية والمصالح الانجليزية وهو يؤكد ان هذه المصالح الاخيرة في المغرب اقتصادية فحسب اذ ليس لانجلترا مستعمرة قريبة منه كما أن شواطئه على الاطلنطي غير صالحة كقاعدة لسفنها، يستثنى من ذلك طنجة التي تقدم فرنسا ترضية عنها للجانب الانجليزي بان تكون هي «وقسم من الاراضي المحيطة بها منطقة محايدة».

وينهي السفير الفرنسي في لندن عرض بلاده بأنه اذا قبل الطرف الاخر بفرض السيادة الفرنسية على المغرب فسيكون بالامكان تمتع الانجليز بحرية التجارة (15)

بيد ان الجانب البريطاني استمر متمسكا بموقفه خلال الحقبة السابقة وهو الموقف القائم على الابقاء على الوضع الراهن مما عبر عنه وزير خارجيتها في مناسبات متعددة...

مرة في شهر غشت عام 1902 حين علق لانسدون على مقترحات دلكاسيه بقوله «ان من مصلحة الدولتين المحافظة على الوضع الراهن، ولئن توطد الدولتان ممتلكاتهما خير من أن توسعاها» (16).

المرة الثانية في أكتوبر من نفس السنة حين صرح وزير الخارجية البريطاني للمسيوكامبون بان بلاده «ليست مستعدة لبحث امكانية تصفية المغرب» (17)

---

(15) Ibid N. 369 Cambon à Delcassé 6 Août 1902.

(16) محمد خير فارس: المصدر السابق ص 206

(17) المصدر السابق ص 209

وكانت المرة الاخيرة في نهاية دجنبر عام 1902 أيضا وكان الرأي البريطاني أيضا «ان افضل حل هو الابقاء على الوضع الراهن بأي ثمن» (18).

لم يستمر الموقف الانجليزي بالابقاء على الوضع الراهن في المغرب لوقت طويل، وكان وراء هذا التحول سببان..

1ـ المتغيرات الدولية خاصة ماتصل منها بزيادة النشاط الالماني في مناطق كانت حكومة لندن تنظر اليها باعتبارها من مناطق نفوذها (19).

2ـ التطورات المغربية والتي كانت تشير الى التآكل الواضح في السلطة المركزية خاصة بعد ثورة بوحمارة مما زاد من احتمالات ان تقوم قوة اوربية بالتدخل في تلك البلاد.

غير ان التخلي عن السياسة التقليدية الانجليزية في المغرب لصالح فرنسا كان من المستحيل أن يتم دون الحصول على مقابل.

من ثم تفتقت اذهان العاملين من دوائر الادارات الاستعمارية بالخارجية البريطانية عن عقد الصفقة المصرية ـ المغربية.

والواقع ان منطق الصفقة لم يكن جديدا في ميدان العلاقات الاستعمارية خلال المرحلة الامبريالية التي امتدت ابان العقدين الاخيرين من القرن التاسع عشر، بل ان هذا المنطق كان مطروحا منذ ان اخذ الساسة الفرنسيون في العمل على تغيير الوضع الراهن، ذلك انهم اقترحوا في مقابل المغرب تسوية بعض الخلافات بين البلدين.. مرة في سيام، ومرة ثانية في النيوهبرديز، ومرة ثالثة في افريقيا.. غير انهم لم يشيروا على الاطلاق الى مصر بل يمكن القول انه لم تحل بخاطرهم ان تكون المسألة المصرية جزءا من الاتفاق بله الجانب الاساسي منه.

كانت المرة الاولى التي طرح فيها الجانب الانجليزي فكرة الصفقة المصرية ـ المغربية في الاجتماع الهام الذي عقده وزيرا الخارجية الانجليزية والفرنسية في لندن في 7 يوليوز عام 1903 والذي وضعا فيه اساس الاتفاق.

---

(18) المصدر السابق ص 210

(19) أنظر جرانت وتمبرلي: تاريخ أوربا في القرنين 19، 20 ج2

(20) F.O. 363/17 N. 2 Lansdowne to Monson July 7, 1903 Desp. N. 336 Very Conf.

ومن المحضر الكامل لهذا الاجتماع (20) يمكن الخروج بالملاحظات الاتية:

1ـ أبدى السيد دلكاسيه استعداده لتفهم المطالب الانجليزية في كل من نيوفوندلاند والنيوهبرديز وسيام وسوكوتو في مقابل ان يتفهم الجانب البريطاني المصالح الفرنسية في المغرب والا يعمل على عرقلتها، وهو في كل ذلك لم يشر من بعيد أو من قريب الى مصر.

2ـ على الجانب الاخر وضع الماركيز لانسدون عددا من التحفظات للاستجابة للمطلب الفرنسي، احدها خاص بما تعيره انجلترا من اهتمام خاص بالساحل المغربي المطل على المتوسط والمحيط بطنجة، والثاني استحاله عقد الحكومة الانجليزية لاي ارتباط يؤثر في المصالح الاسبانية أو يكون غير مقبول من حكومتها، اما الثالث فيتمثل في استحالة اقرار اي اتفاق «يكون ذا آثارضارةعلى التجارة أو المشروعات البريطانية في تلك المنطقة من افريقيا ».

يستسلم المسيو دلكاسيه على طول الخط فهو يوافق على جميع التحفظات البريطانية مما يبدو معه مدى اللهفة الفرنسية على الحصول على موافقة الجانب الاخر.

3ـ يقتضي لانسدون الفرصة ويقترح الصفقة المصرية، ونترك الرجل نفسه يروى في المذكرة التي وضعها عن الاجتماع ماحدث.. فقد قال قبل نهاية الاجتماع انه .

«للتوصل إلى إتفاق ينبغي تقييم الوضع في مصر، فأظن أنه ليس من يعتقد الان بأنه في نيتنا التراجع عن تلك البلاد. وقد سرني ماعلمته من اللورد كرومر (21) بأن الممثلين الفرنسيين في مصر على علاقة طيبة للغاية معنا ولكنني لازلت تحت الانطباع بأنه بإمكان فرنسا لو رغبت أن تثير لنا المتاعب في تلك البلاد وأنه علينا النظر في هذه المسألة ونحن نبحث في التوصل لتسوية عامة».

وفي جو المهادنة العامة التي سادت المباحثات بين الرجلين، وتحت وطأة الرغبة الفرنسية لتسوية المسألة المغربية حدث ما توقعه لانسدون الذي حصل على اجابة مرضية تماما من الوزير الفرنسي، فقد قال المسيو دلكاسيه.

---

(21) المعتمد البريطاني في مصر لنحو ربع قرن (1883ـ1907) كان خلاله المسير الاساسي للسياسات المصرية والمتحكم الاول في شؤون الحكومة المصرية حتى ان بعض المؤرخين الانجليز يطلقون عليه مؤسس مصر الحديثة.

«تمثل المسألة المصرية جانبا من مسألة أكبر هي المسألة الافريقية-وانا على يقين بإمكان تسويتها لو أمكن فقد التوصل إلى إتفاق على وضع فرنسا والمغرب».

وبهذه الإجابة تمت الخطوة الاولى في اتجاه الصفقة !

هلل اللورد كرومر لإجابة السيد دلكاسيه وأشار إلى أنه ليس ثمة أفضل من هذه الفرصة لتسوية الاختلافات القائمة بين الدولتين.

ومع أن المعتمد البريطاني في القاهرة قد أعرب عن شكوكه في جدية الاستجابة الفرنسية حين كتب: « في اعتقادي أن السيد دلكاسيه قد ذهب إلى أبعد مما يقصد وانه بالامكان أن نرى بعد وقت قصير انه لن يستطيع تحت ضغط الموظفين الدائمين في الكى دورساى تقديم مقترحات متعلقة بمصر تكون محل رضائنا» (22) **مع ذلك فقد بادر على الفور في وضع الخطوط الرئيسية للصفقة.. قال:**

« من مجموع المسائل التي أثارها المسيو دلكاسيه واضح أن المسألة الرئيسية تتركز حول المغرب.

«ومن رأيي أن نقدم تنازلات في المغرب مقابل ما يقدم لنا من تنازلات في مصر، واذا قررنا تبني مثل هذه السياسية فيجب أن نفتح عيوننا لما تعنيه.

«ولاحظ أن المسيو اتيين Etienne قال في محادثه معك (تبدو حكومة سلطان المغرب وهي تسير في طريق الانحلال الكامل)، وأنكم اجبتم بأن (هذه الممالك الشرقية تبقى دائماً رغم انحلالها البادي والمصاعب الهائلة التى تلقاها). وهذا صحيح ولكن السبب واضح تماما فان ماتعاني منه هذه الدول الشرقية مثل تركيا وفارس يعود أساساً للانتقامات والصراعات الدائرة بين المرشحين لوراثة العرش. وفي رأيي انه اذا تدخلت فرنسا لاقرار هذه المسألة المغربية دون مخاوف من أي تدخل من جانبنا فلن يمض وقت طويل حتى يصبح المغرب مقاطعة فرنسية.

«والمسألة الآن، فيما أرى، هل لدينا أي اعراض على أن يصبح المغرب مقاطعة فرنسية؟ في رأيي أنه لايوجد طالما: 1 ـ حصلنا على مقابل في مصر 2 ـ وطالما التزم الفرنسيون بالشروط الثلاثة الخاصة بالمغرب التي اقترحتها عليهم.

F.O. 363/17 N. 3 Cromer to Lansdowne July 17, 1903 Private. (22)

« ويقوم رأيى على الاعتبارات الآتية :

I ـ ليس هناك سبب عملي يدعونا إلى الابقاء على حكومة وطنية سيئة مثل تلك القائمة في المغرب.

2 ـ ان تلك البلاد سوف تسقط حتما في منطقة نفوذ احدى الدول الاوربية.

3 ـ من المرغوب في مثل هذه الظروف تحديد الدولة الاوربية التي يمكن أن تمارس نفوذا غلابا.

4 ـ وانى على ثقة بأننا غير راغبين في تحمل عبئ ادارة الحكومة المغربية .

5 ـ والمسيو اتيين على حق في رأيه بأن الاسبان غير أكفاء لتحمل هذا العبئ .

6 ـ من ثم فالافضل اطلاق يد الفرنسيين في هذا الأمر» (23).

ويحث اللورد كرومر حكومته على اتخاذ قرارها في المسألة المغربية، وان الأخذ بنصيحته في هذا الشأن ستعود بمزايا عديدة حددها في نهاية مذكرته بقوله «أحيل ان تتم المفاوضات على أساس اعتراف فرنسي بوقوع مصر في منطقة نفوذنا واعتراف من جانبنا بوقوع المغرب في منطقة نفوذهم» (24).

وتتعدد الملاحظات حول المذكرة السابقة، فهي من ناحية أكدت قبول رجل الادارة الاستعمارية البريطانية في القاهرة لفكرة الصفقة وتحبيذه لها، غير أنها من ناحية أخرى أبدت لهفة اللورد كرومر على عقد هذه الصفقة وهي لهفة لم تقل بحال عن لهفة المسيو دلكاسيه.

بدت هذه اللهفة من حثه لحكومته على التنازل عن المغرب وتقديم كل مبررات هذا التنازل في مقابل الحصول الكامل على مصر، كما أنها تأكدت في التحريض على عدم التمسك باشراك إسبانيا في الصفقة معللاً ذلك بأنه لايرى سببا « يدعونا إلى الذهاب إلى حد التضحية بمصالحنا من أجل تحقيق المصلحة الإسبانية» (25).

بامتداد الأيام بين 7 يوليوز و 5 غشت عام 1903 ظلت تجري لعبة ديبلوماسية غاية في الاهمية بين لندن وباريس.

---

(23) Ibid

(24) Ibid

(25) Ibid

قامت قواعد اللعبة من جانب باريس على اساس الحصول على الموافقة البريطانية على تفرد فرنسا بالحصول على المغرب في مقابل ضمان بعض الامتيازات فيه للجانب الاخر بالاضافة الى تسوية بعض المشاكل الاستعمارية المعلقة، وهي في هذا تعمل على تجنب الصفقة الثنائية المصرية ـ المغربية.

اختلفت قواعد اللعبة في لندن التي ارتكزت تماما على فكرة الصفقة الثنائية وانه دون مصر فلااتفاق على المغرب.

- بدأت اللعبة في الجلسة الاولى من جلسات المحادثات التي انعقدت في لندن بين وزير الخارجية البريطانية وبين السفير الفرنسي فيها، وقد انعقدت هذه الجلسة يوم 29 يوليوز عام 1903 اي بعد ثلاثة أسابيع من لقاء لانسدون ـ دلكاسيه الذي وضعت فيه بذور فكرة الصفقة.

وقد تحدث، المسيوكامبون باسهاب عن كل مايعني فرنسا بشأن المغرب أولا، ثم تطرق الى تناول موضوعات أخرى خاصة بسيام ونيوفوندلاند والنيوهبرديز ولم يشر من قريب أو من بعيد للمسألة المصرية وكأن الموضوع لم يطرح على الاطلاق في اجتماع 7 يوليوز بين الوزيرين.

وبهدوء كامل وبعد ان انتهى السفير الفرنسي من عرضه تحدث الماركيز لانسدون ولم يتناول حديثه سوى مصر.

نبه وزير الخارجية البريطانية في أول حديثه السفير الفرنسي بانه قد اغفل الحديث عن بلد لكل من انجلترا وفرنسا مصالح فيها ومن المستحيل استبعادها من الاتفاق وهي مصر، ثم اشار الى أن المسيو دلكاسيه يعلم تماما بانه قد تمت اثارة المسألة في الاجتماع الذي تم بينهما وانه قال «ان مصر مثل المغرب جزء من المسألة الإفريقية واننا اذا توصلنا إلى تفاهم حول المغرب فلن تكون هناك صعوبة تذكر في التوصل إلى تفاهم حول مصر أيضاً» (26).

وطبقا لقواعد اللعبة الفرنسية يحاول كامبو التملص فيقول انه ليست لديه تعليمات من المسيو دلكاسيه في هذه المسألة ويتساءل عما اذا كان بالامكان البحث في المسائل الاخرى وترك المسألة المصرية فيما بعد.

---

(26) F.O. 363/17 N. 4Lansdowneto Monson. July 29, 1903 N. 382 Very Conf.

وكانت اجابة الماركيز لانسدون قاطعة برفض الاقتراح وان ترك المسألة المصرية غير وارد على الاطلاق، وتم انهاء الاجتماع في انتظار رأي الحكومة الفرنسية في هذا الشأن (27).

ويجتمع الرجلان بعد اسبوع (5 غشت) ليمارس كل منهما ضغوطه على الاخر، فمن ناحية لانسدون يقوم بتبليغ السفير الفرنسي ان زملاءه في الوزارة مجمعون على ضرورة ادماج مصر في أي اتفاق، وانه لن يكون هناك اقتراح مقبول لايتضمن تسوية مركز انجلترا في مصر.

أما من ناحية كامبو فقد تقدم بكل حجة تؤكد على عدم تكافؤ الصفقة المطلوب ابرامها من الجانب الانجليزي «فالمسألة المصرية لايمكن مقارنتها بغيرها، وانها تشمل مصالح دولية ومالية وقانونية وسياسية، وانها أخيرا تهز الرأي العام الفرنسي ومن ثم ينبغي تناولها بحذر» (28).

وعندما ذكر كامبو لانسدون بتعهد الانجليز بالجلاء عن مصر وأشار الى أن الرأي العام الفرنسي كان ينتظر دائما هذا الجلاء اعترف الوزير الانجليزي بان مركز انجلترا لم يكن أبدا قانونيا ولكنه اضاف أنهم راغبون الان في جعله قانونيا. فتساءل كامبون عما اذا كان هذا يعني مطالبة فرنسا بالاعتراف بالاحتلال الانجليزي لمصر؟ ثم تطرق الى القول بأنه لايعرف أمرا أكثر صعوبة من قبول فرنسا لهذا الامر وانه يلزم المسيو دلكاسيه اعصاب قوية لتحمل مسؤولية تسوية المسألة المصرية. وكانت اجابة لانسدون «وهل تعتقدون انه لايلزمنا مثل هذا للتخلي لكم عن المغرب؟» (29).

وانتهى الاجتماع بطلب كامبون من الجانب البريطاني بتقديم مقترحات محددة في هذا الشأن لدراستها، وان كان لم ينس وهو يتقدم بهذا الطلب، شأنه شأن أي ديبلوماسي مناور، أن ينتهز الفرصة لاحراز بعض المكاسب حين قال «ان ادخال مصر في المحادثات أمر جديد سيدفع دلكاسيه الى تعديل وجهة نظره بالنسبة للتسوية

---

(27) Ibid.

(28) محمد خير فارس: المصدر السابق ص 218

(29) المصدر السابق ص 219

العامة التي يسعى إليها وأنه سيطالب في المغرب بميزات أكثر وضوحاً وبمركز أكثر تحديدا» (30).

ودخلت فرنسا بهذه الاجابة الى دائرة الصفقة الثنائية التي ظلت ترفضها ولم يمض وقت طويل حتى كانت قد وصلت الى مركز الدائرة.

اعداد الصفقة:

تلقفت الخارجية البريطانية القبول المبدئي من الجانب الفرنسي لفكرة الصفقة الثنائية وطيرت برقية الى العاصمة المصرية تطلب رأي اللورد كرومر في «المقترحات المحددة» الخاصة بمصر والتي يطلبها الجانب الفرنسي.

ولم يمض وقت طويل حتى جاء الرد، وكان بعدم الذهاب الى حد طلب ضم مصر وانما الحصول على موافقة فرنسا على :

1ـ الاعتراف باحتلال بريطانيا لمصر، أو بعبارة اخرى «تناسى تعهداتنا التي قطعناها بالجلاء عن تلك البلاد».

2ـ ضمان الحرية الكاملة للجانب البريطاني في التصرف في الشؤون المالية المصرية وبانه لم تعد ثمة ضرورة للابقاء على صندوق الدين أو نظام الادارة المعمول به في السكك الحديدية، كما أن الجانب الفرنسي لن يعترض على تحويل الدين العام.

3ـ تحديد وضعية القنصل البريطاني العام بشكل يضمن له هيمنة أكثر على المقدرات المصرية كأن يحضر جلسات مجلس الوزراء أو لايصدر أي مرسوم من جانب الخديو دون موافقته (31).

غير أن هذه الاراء التي أدلى بها اللورد كرومر لم تقدم الى السفير الفرنسي في لندن الا بعد أكثر من شهر ونصف حيث صادف وصولها بداية الاجازة الصيفية.

فقد تلقى المسيو كامبونفي أول أكتوبر عام 1903 مذكرة من الخارجية البريطانية تتضمن ماتستطيع حكومة لندن منحه في المغرب وماتريد الحصول عليه بالمقابل في مصر.

---

(30) نفس المصدر ص 219

(31) F.O. 363/17 Memorandum by the earl of Cromer Ang. 7, 1903.

فيما يخص المغرب فقذ وافقت لندن على حرية العمل الفرنسي فيه مع وضع ثلاثة تحفظات، يختص أولها بالاحترام التام لمبدأ حرية التجارة ووجوب احترام الحقوق والامتيازات التي حصلت عليها بريطانيا بمقتضى اتفاقيتي عام 1856، ويتعلق الثاني بتحديد القسم المحايد من الساحل المغربي من الحدود الجزائرية حتى مزاكان، ويتصل الاخير باعتراف فرنسا بالمصالح الاسبانية السياسية والاقليمية وان يسند الى اسبانيا ادارة القسم المحايد من الساحل اذا ماانهار حكم السلطان (32).

وبالمقابل طلبت من مصر ماجاء في مذكرة كرومر واغفلت فقط طلبه الاخير الخاص بوضع القنصل البريطاني العام في القاهرة ورغبته في توسيع اختصاصاته، فقد رأى المسؤولون في لندن ان الرجل يتمتع فعلا بهذه السلطة وليس ثمة حاجة الى تضمينها في اتفاق خاص مع فرنسا (33).

ومرة اخرى تجري مناقشة مطولة بين لانسدون وكامبون حول طبيعة الصفقة وذلك بعد ان تسلم الاخير المذكرة البريطانية.

كان رأي السفير الفرنسي أن الصفقة غير عادلة فبلاده تحصل مقابلها على «أمل صعب التحقيق» بينما تقدم تنازلات عن مركز مالي وطيد في مصر.

وجاء رد الوزير البريطاني مذكرا «اننا في مصر فعلا وانه ليس هناك أدنى تفكير في الانسحاب ونحن لانطالب الحكومة الفرنسية الا الاعتراف بالحقائق كما هي» (34).

وعندما يحاول كامبون في نهاية اللقاء أن يؤجل التنازلات الفرنسية في مصر الى حين الحصول على مقابلها في المغرب وذلك من خلال اقتراحه بأن يتم اجراء التغييرات في مصر والمغرب في وقت واحد جاء رد لانسدون باترا ومنهيا المناقشة حين قال «انه لايمكن لبريطانيا قبول تاجيل الاعتراف بالصفة الدائمة للاحتلال لوقت غير محدد وانها تنتظر اجابة مباشرة بنعم أو لا» (35).

---

(32) محمد خير فارس: المصدر السابق ص 220_221

(33) د. يونان لبيب رزق: تاريخ الوزارات المصرية 1818_1953

(34) Documents Diplomatiques Français Deuxième Série Tome 4 Doc. 7 Cambon à Delcassé 1 Oct. 1903.

(35) Ibid

عكفت دوائر الكي دورساي على دراسة المذكرة البريطانية وقد تأكد لها أنه ليس من نية حكومة لندن التراجع بأي حال فاما أن تكون الصفقة ثنائية واما لاصفقة على الاطلاق.

وبعد أكثر من ثلاثة أسابيع من الدراسة والتمحيص ثم اعداد الرد الفرنسي الذي سلم للخارجية البريطانية في 26 أكتوبر عام 1903، وكان بمثابة أول مشروع من جانب حكومة باريس لشكل الصفقة.

تضمن الرد الفرنسي اعتراضا على تحديد المنطقة المحايدة على الساحل المغربي واقترح أن يمتد فقط من مليلية الى المرتفعات المطلة على الضفة اليمنى لنهر سبو ودافعت الحكومة الفرنسية على اسناد ادارتها لاسبانيا ، كما تضمن اقتراحا بالابقاء على الوضع الراهن Status Quo في منطقة نصف قطرها 500 ميلا نحو مضيق جبل طارق.

الاهم من ذلك، فيما يعنينا، ماتضمنه الرد الفرنسي بالنسبة لمصر الذي استوعب تماما منطق الصفقة حيث وضع دلكاسيه مقترحاته على أساس تنازلات متقابلة ومتعادلة وتدريجية في كل من مصر والمغرب (36)

أما صورة التقابل والتعادل والتدرج كما جاءت في المذكرة الفرنسية فقد كانت على الوجه الاتي:

1ـ تتعهد الحكومة الفرنسية بعدم عرقلة عمل انجلترا في مصر وعدم مطالبتها بتحديد أجل لجلائها عنها (في مقابل) اعتراف الحكومة البريطانية بالحرية التامة لفرنسا في العمل في المغرب.

2ـ القبول بالربط بين احتمال تخلى فرنسا عما تتمتع به نتيجة لنظام الامتيازات في مصر (في مقابل) تخلي انجلترا عن ذلك في المغرب.

3ـ تبادر فرنسا باصلاح الادارة المالية المضطربة في المغرب، وبعد أن تتوطد هيمنتها المالية على هذه الادارة فستكون مستعدة (بالمقابل) في التخلي عن نصيبها في الاشراف المالي في مصر، كذلك عن حقها في ايقاف تحويل الدين المصري.

---

(36) محمد خير فارس: المصدر السابق ص 224

واعرابا عن حسن النية اشارت المذكرة الى استعداد فرنسا في الامتناع عن هذا الحق الاخير عقب توقيع الاتفاقية بشرط استخدام الاموال الناتجة عن التحويل في المصالح المصرية كبناء السكك الحديدية وما الى ذلك من الاشغال العامة.

4ـ احداث (ترتيب متبادل) بشأن السكك الحديدية في كل من مصر والمغرب .

5ـ (في مقابل) تأمين حرية المرور في جبل طارق الذي يكفله الاتفاق الخاص بالمغرب طالبت المذكرة بتأكيد المبادىء التي جاءت في معاهدة 29 أكتوبر عام 1888 (37) والقاضية بضمان المرور الحر في قناة السويس في جميع الاوقات (38) .

وكان الاستيعاب الفرنسي لفكرة الصفقة بداية للمرحلة الاخيرة من مراحلها وهي المرحلة التي استمرت لاكثر من خمسة شهور حين تم توقيع الاتفاقية في 8 ابريل عام 1904.

ابرام الصفقة:

لعل أهم ماميز هذه المرحلة محاولة كل من الطرفين المتعاقدين الحصول على أقصى مايستطيع، وهو أمر طبيعي في منطق الصفقات!

في 29 نوفمبر وبعد دراسة استغرقت أكثر من شهر للمقترحات الفرنسية داخل مجلس الوزراء البريطاني كذا داخل وزارة الخارجية ارسل اللورد لانسدون مذكرة «سرية وخاصة» الى كامبون تتضمن الراي الانجليزي.

وبالرغم من أن هذه المذكرة قد تضمنت مقترحات حول نيوفوندلاند والنيو هبرديز ومدغشقر غير أن الجانب الاهم منها دار حول الصفقة المصرية ـ المغربية.

ويستهل وزير الخارجية البريطاني المذكرة باقرار مبدأ الصفقة مرة أخرى حين يقول « ينبغي أن يتوخى أي إتفاق بين الحكومتين تبادل المزايا».

ينثني بعد ذلك لمناقشة ماجاء في المذكرة الفرنسية حول المغرب

1 ـ فيسعى في جانب منها الوصول الى حل وسط لتحديد المنطقة المحايدة على الساحل فيقبل ان تبدأ شرقا من مليلية ولكنه يحاول من جهة الغرب ان يدفعها

(37) والمعروفة بمعاهدة القسطنطينية

(38) F.O. 363/17 N. 16 Lansdowne to cromer, Oct. 28, 1903 Tel. N. 30 Secret.

من المرتفعات اليمنى لنهر سبو كما طالب الفرنسيين الى الرباط.

2ـ ويرى في جانب آخر غموض المقترح الخاص بالابقاء على الوضع الراهن في المنطقة المحيطة بمضيق جبل طارق فيدائرة نصف قطرها خمسمائة ميلا وينبه الى أن ذلك يعني ان تلك المنطقة تضم اقساما من الساحل المغربي.

3ـ ويحاول تفصيل الجانب الخاص بحرية التجارة في المغرب، فلاإصدارلحرية التجارة التي تقررت عام 1901 وضمان لتكافؤ الفرص في امتيازات التعدين وأسهم بناء السكك الحديدية والاحواض وغيرها من الاعمال العامة كذا الامتيازات التي يتمتع بها الرعايا والشركات البريطانية فيما يخص التجارة والملاحة.

وبنفس الروح تنتقل مذكرة لانسدون الى موضوع «مصر» وتحاول مرة اخرى أن تنتزع من الفرنسيين أقصى ماتستطيع انتزاعه.

فهو من ناحية يحي المسيو دلكاسيه على ماأبداه من استعداد للتعهذ بالا تعترض فرنسا على عمل بريطانيا العظمى في مصر، وهو يوافق على مبدأ التبادل فيما يتصل بالتعديلات المطلوب ادخالها على نظام الامتيازات في كل من مصر والمغرب، ثم انه يبدي استعداد حكومته لتقديم التأكيدات بأنه لن تفرض في مصر أي رسوم تفضيلية وان يستمر الابقاء على مبدأ حرية التجارة مع ضمان المرور الحر في قناة السويس تأسيسا على معاهدة 29 أكتوبر عام 1888.

غير أنه كان للانسدون من ناحية أخرى بعض الاعتراضات.

1ـ فهو رفض التأكيد على المادة الثامنة من معاهدة 1888 «التي تتنافى مع نتائج الاحتلال البريطاني» (39).

---

(39) تنص هذه المادة على : «تعهد الدول الموقعة على هذه المعاهدة الى مندوبيها بمصر بالسهر على تنفيذها ، وفي حالة حدوث أمر من شأنه تهديد سلامة القناة أو حرية المرور فيها يجتمع المندوبون المذكورون بناء على طلب ثلاثة منهم برئاسة عميدهم لاجراء المعاينة اللازمة وعليهم ابلاغ حكومة الحضرة الخديوية الخطر الذي يرونه لتتخذ الاجراءات الكفيلة لضمان حماية القناة وحرية استعمالها. وعلى كل حال يجتمع المندوبون مرة في السنة للتثبت من تنفيذ المعاهدة تنفيذا حسنا.

«وتعقد هذه الاجتماعات الاخيرة برياسة قوميسيير خاص تعينه حكومة السلطنة العثمانية لهذا الغرض ويجوز ايضا لقوميسيير الحضرة الخديوية حضور الاجتماع كذلك وتكون له الرياسة في حالة غياب القوميسيير العثماني

«ويحق للمندوبين المذكورين المطالبة بنوع خاص بازالة كل عمله أو فض كل اجتماع على ضفتي القناة من شأنه ان يمس حرية الملاحة وضمان سلامتها التامة».

2ـ غير ان الاعتراض الاهم كان على المحاولة الفرنسية لارجاء تخليها عن دورها في الاشراف على الادارة المالية المصرية إلى حين «تمكن حكومة الجمهورية الفرنسية من اقامة ادارة فعالة على الجهاز المالي والاشغال العامة في المغرب». وقدم مقترحات محددة في هذا الشأن..

مقترح بأن تقتصر مهمة صندوق الدين على الحصول على المبالغ اللازمة لدار الدين مع حقه في مقاضاة الحكومة المصرية اذا لم تدفع هذه المبالغ وبانهاء الادارة المختلطة للسكك الحديدية والتلغرافات وميناء الاسكندرية.

المقترح الثاني بانضمام الحكومة الفرنسية للجانب البريطاني في مخاطبة الدول الاخرى المعنية بهدف الحصول على موافقتها لاحداث هذه التغييرات.

المقترح الاخير بالا تعترض الحكومة الفرنسية على تحويل الدين كلما رؤي أن الفرصة مناسبة لذلك (40).

يتضح من المذكرة الانجليزية أن أسباب الاتفاق على عقد الصفقة كانت أكبر كثيرا من اسباب الخلاف، وقد اعتقد الجانبان بامكان محاصرة هذه الاسباب الاخيرة وابرام الصفقة، غير أن ذلك استغرق بعض الوقت.

وقد بدأ بحث نقاط الاختلاف في جلسة المحادثات، التي انعقدت في اليوم التالي لتقديم المذكرة، بين الماركيز لانسدون والمسيو كامبون.

فيما يتصل بالمغرب وافق السفير الفرنسي على خطأ الاقتراح الخاص بالابقاء على الوضع الراهن في المنطقة المحيطة بجبل طارق ولكنه ابدى تصميما على توقف المنطقة المحايدة عند نهر سبو خاصة وان الرباط كما اشارت المذكرة الانجليزية «ميناء ذو أهمية بسيطة».

أما فيما يتعلق بمصر لم يعترض المسيو كامبون الا على الطلب الانجليزي بانضمام فرنسا في الضغط على الدول الاخرى لقبول المقترحات البريطانية، وكما قال «أن نقبل هذه المقترحات شيئا وان نعاونكم في مباحثة الاخرين شيئا آخر» (41).

غير أن الرد الاهم جاء من دلكاسيه بعد ايام قليلة وفيه تتمسك فرنسا باخراج

---

(40) F.O. 363/17 N. 21 Landowne to Cambon, Nov. 19, 1903 Private and Confidential.

(41) F.O. 363/17 N. 22 Lansdowne to Monson. Nov. 22, 1903 Desp. N. 586 Conf.

الرباط من المنطقة المحايدة لأن هذا الميناء «سيكون نهاية الخط الحديدي القادم من الجزائر»، كما توافق على حرية التجارة وتكافؤ الفرص أمام رؤوس الأموال اما فيما يختص بالسكك الحديدية والموانئ «فهي مشاريع تهم الدولة مباشرة ولا يمكن تسليمها لأحد».

وفي مصر أيضا رفض دلكاسيه اغضاب الدائنين الفرنسيين اذا ماوافق على المقترحات الخاصة بصندوق الدين وتحويل الدين واعترض على التحفظ الانجليزي الخاص بالمادة الثامنة من معاهدة القسطنطينية (42).

وبالرغم من موافقة الجانب الإنجليزي على الاعتراض الخاص بالسكك الحديدية والموانئ ومما ابداه من استعداد لتقديم ضمانات هامة للدائنين الفرنسيين بالنسبة لمسألة صندوق الدين فان كل طرف تمسك بموقفه فيما يخص الرباط.. الانجليز يخشون استخدام الميناء المغربي من الجانب الفرنسي كقاعدة لزوارق الطوربيد والفرنسيون يرون أنه حيوي للغاية لمشروعهم الاستعماري في منطقة شمال غرب افريقيا (43).

وتأتي عطلة اعياد الميلاد ورأس السنة لترجيء مفاوضات الصفقة لبضعة أيام..

وينشط الجانبان منذ بداية العام الجديد (1904) حتى انه لم ينقض اقل من أربعة شهور حتى كانا قد تمكنا من ابرام الصفقة.

تمت أولا تسوية مسألة صندوق الدين وقضية تحويل الديون من خلال تنفيذ اقتراح كرومر بارسال مبعوث انجليزي (44) الى باريس للتفاوض في شأنهما. وقد تمكن الرجل من تقديم الضمانات الكافية للدائنين الفرنسيين مما وصل بمفاوضاته الى بر النجاح.

وتحت اغراء هذا النجاح وتحت ضغط كرومر بأن «فشل المفاوضات سيكون بمثابة كارثة» وافقت الحكومة البريطانية على الطلب الفرنسي الخاص بامتداد

---

(42) Documents Diplomatiques Français Deuxième Série Tome 4 Doc. N. 117 Delcassé à Cambon.

(43) محمد خير فارس: المصدر السابق ص 227ـ 228

(44) هو الدون جورست . Eldon Gorst

المنطقة المحايدة على الساحل المغربي من مليلية الى المرتفعات اليمنى من نهر سبو واخراج الرباط بالتالي من هذه المنطقة، وبالمقابل وافقت فرنسا على الابقاء على التحفظ الانجليزي الخاص بالمادة الثامنة من معاهدة القسطنطينية المتعلقة بحرية الملاحة في قناة السويس.. وقد تم التوصل الى كل هذه النتائج خلال شهرين تقريبا.

واقتصرت المفاوضات خلال النصف الثاني من مارس واوائل ابريل على الصياغة وبحث بعض النقاط التفصيلية. ومن هذه النقاط ماتتصل بمصر والمغرب مرة اخرى.

فيما يختص بمصر طالب الفرنسيون الساداة بين الموظفين الفرنسيين والانجليز العاملين في خدمة الحكومة المصرية ، والاستمرارفي تعيين فرنسي في منصب مدير الاثار توافق عليه الحكومة الفرنسية، وعدم التدخل في شؤون المدارس الفرنسية، واستمرار التمتع بالحقوق التي كفلتها المعاهدات والاتفاقيات والاعراف المتصلة بالتجارة الساحلية (45).

أما فيما يختص بالمغرب فقد نبه الفرنسيون الحكومة البريطانية للمعاهدة المعقودة بينها وبين سلطان المغرب في 13 مارس عام 1895 والقاضية بعدم انتقال مناطق معينة من الساحل المغربي متأخمة لرأس جوبى الى أي دولة دون الموافقة الانجليزية، وان مثل هذه المعاهدة قد تسبب بعض التعقيدات عند تنفيذ الاتفاق محل البحث (46).

ويتم تجاوز هذه النقاط التفصيلية بتنازلات متبادلة..

الجانب البريطاني يوافق على المطالب الفرنسية الاربعة المتصلة بمصر باستثناء تحفظات بسيطة، تحفظ على المطلب الاول الا تعنى الموافقة عليه السماح للحكومة الفرنسية بتعيين موظف فرنسي في أي مكان يخلو من موظف فرنسي آخر مهما كان سبب هذا الاخلاء، وتحفظ آخر على الشطر الثاني من التحفظ الثاني الخاص بموافقة الحكومة الفرنسية على تعيين مدير الاثار الفرنسي «فالوزراء المصريون

(45) F.O. 363/17 N. 60Lansdowneto Cromer, March 22, 1904 Tel N. 16 Secret.

(46) F.O. 363/17 N. 91 Lansdowne to Monson, April 6, 1904 Desp. 172 Conf.

حساسون للغاية من مثل هذا الشرط وهم يعترضون باصرار على المبدأ الذي يتضمنه»، وان كان من الناحية العملية سوف تحصل الحكومة الفرنسية على ماتريد من هذا الشرط (47).

يوافق البريطانيون أيضا على البحث عن طريقة لاصدار تأكيد رسمي بانهم لن يستخدموا معاهدة 1835 لاثارة العراقيل أمام اتفاق فرنسي ـ اسباني حول الاراضي المحيطة براس جوبى.

ولايبقى بعد ذلك سوى صياغة ماتم التوصل اليه وهـو مـا تـم بين فيما كل من كامبون ولانسدون في لندن في 8 أبريل عام 1904 تحت عنوان «تصريح فرنسي انجليزى متعلق بمصر والمغرب» (48) وكان بالاولى تسميته «بالصفقة الفرنسية الانجليزية المتعلقة بمصر والمغرب»!

---

(47) F.O. 363/17 N. 61 Cromer to Lansdowne, March. 23, 1904 Tel. N. 23 Secret

(48) أنظر ملحق رقم (6) نص التصريح.

الفصل السابع

الهجمة الاستعمارية والكفاح المشترك

المغاربة والهجمة الاستعمارية على مصر 1798 - 1807 :

المغاربة وحركة الجهاد ضد الحملة الفرنسية 1798 - 1801

اشتراك المغاربة في التصدي لحملة فريزر 1807

المصريون والهجمة الاستعمارية على المغرب 1904 - 1912 :

موقف انصار الجامعة الاسلامية

موقف الحزب الوطني

موقف السلفيين

الهجمة الاستعمارية والكفاح المشترك

بإمتداد أكثر من قرن قليلا (1798 ـ 1912) تعرضت كل من مصر والمغرب لهجمة استعمارية أوربية مضطردة بدأت بالغزو النابليونى لمصر في العام الأول وانتهت بفرض الحماية الفرنسية على المغرب في العام الأخير.

وقد اضطردت الهجمة الاستعمارية على مصر بدءا بالحملة الفرنسية على مصر عام 1798 (1) ومرورا بالغزو الانجليزى بعد ذلك بتسع سنوات (2)، وانتهاء بالاحتلال البريطاني للبلاد عام 1882. (3).

---

1) وهى الحملة التى قادها نابليون بونابرت في إطار الصراع الانجليزى ـ الفرنسى في القارة الأوربية وانطلاقا من الرغبة في تأسيس امبراطورية استعمارية فرنسية في الشرق تعويضا للامبراطورية التى خسرتها فرنسا في صلح باريس (1763). وقد استمر الفرنسيون يحكمون مصر لثلاث سنوات حتى خرجوا عام 1801 تحت وطأة المعارضة الشعبية والضغوط الخارجية خاصة من جانب اعدائهم الانجليز، وقد توالى على قيادة الحملة خلال تلك السنوات كل من نابليون بونابرت وكليبر وعبد الله جاك منو.

انظر: محمد فؤاد شكرى: الحملة الفرنسية على مصر

عبد الرحمن الرافعى: تاريخ الحركة القومية فى مصر ج ا

2) وهى الحملة التى قادها الجنرال فريزر (1807) بعد أن انضمت الدولة العثمانية التى كانت مصر احدى ولاياتها لفرنسا ضد روسيا حليفة انجلترا، وقد احتل الانجليز الاسكندرية غير أن محاولاتهم للامتداد خارجها فشلت مرتان مرة في رشيد ومرة في حماد مما دعاهم إلى الانسحاب من البلاد في نفس العام.

انظر: محمد فؤاد شكرى: مصر في مطلع القرن التاسع عشر (3 أجزاء)

أما الهجمة الاستعمارية على المغرب فقد اضطردت بشكل أكثر حدة ابتداء بحرب ايسلى (4) ومروراً بحرب تطوان (5) ومؤتمر مدريد (6) وانتهاء إلى ما انتهت إليه بفرض الحماية الفرنسية على المغرب (7).

ومن بين الأحداث التي صنعت الهجمة الاستعمارية على البلدين يمكن العثور على «موقف مغربي» خلال المراحل الأولى من تلك الهجمة على مصر، وبالذات المرحلة التى امتدت بين عامى 1798 و 1807 والتى شهدت الحملة الفرنسية خلال سنواتها الثلاث الأولى وحملة فريزر الانجليزية خلال عامها الأخير.

كما يمكن العثور على « موقف مصرى» خلال المراحل الأخيرة من نفس الهجمة على المغرب، وعلى وجه التحديد تلك التي امتدت بين عامى 1904 و 1912 أي بين عقد الوفاق الودى وبين فرض الحماية الفرنسية على المغرب.

---

3) والذى جرى تحت ادعاء حماية مصالح الدائنين الاوربيين والقضاء على الثورة العرابية وانتهى باحتلال القاهرة (سبتمبر 1882) وفرض الحكم البريطانى على مصر حتى عام 1922 وبقاء الوجود العسكرى الانجليزى في البلاد الى عام 1956.

انظر: أحمد عبد الرحيم مصطفى: مصر والمسألة المصرية

Cromer, Earl of : Modern Egypte (2 Vols) London, 1908.

4) وهي الحرب التي جرت عام 1844 بسبب التغلغل الفرنسي في مناطق الحدود الجزائرية المغربية، وتسمى بهذا الاسم بسبب المعركة التي جرت في وادى ايسلى وانتهت بنصر الفرنسيين وتوقيع إتفاقية تنص على نزع السلاح المغربي في منطقة الحدود بالاضافة إلى شروط أخرى.

انظر: صلاح العقاد: المغرب العربي (القاهرة 1969)

Jean Hess ; La Question Du Maroc Paris, 1903

5) أو الحرب الاسبانية ـ المغربية (1859 ـ 1860) والتى نشبت نتيجة للنزاع على الحدود المتاخمة لسبتة وانتهت بصلح تطوان الذى وحصلت فيه اسبانيا على غرامة حربية كبيرة وحق الأمة الاكثر رعاية في البلاد.

انظر: محمد خير فارس: المسألة المغربية (1900 ـ 1912) ـ القاهرة 1961

6) المؤتمر الذي انعقد عام 1880 تنظيم الحماية القنصلية في المغرب وشاركت فيه 15 دولة

انظر: عبد الوهاب بن منصور: الحماية القنصلية

7) وهو مانجح فيه الفرنسيون حين أجبروا المولى عبد الحفيظ على توقيع معاهدة فاس في 30 مارس 1912 مما كان بمثابة البداية للعهد الاستعمارى في البلاد.

انظر: محمد خير فارس: المصدر السابق.

وقبل تحرى طبيعة هذه المواقف ينبغى تقديم التفسير المناسب لاقتصار كل موقف على مرحلة من مراحل الهجمة الاستعمارية دون سائر المراحل.. والتفسير موجود !

بالنسبة للموقف المغربي فهو حقيقة لم يكن موقف المغرب بقدر ماكان موقف المغاربة الذين استقروا في مصر، بل وفي المشرق العربي.

ومن المعلوم أنه كان للمغاربة وجود قوى ليس في مصر فقط (8) بل في كل من الشام (9) والحجاز. (10).

ومن المعلوم أيضاً أن هذا الوجود قد قام على ثلاث ركائز، الركيزة الدينية على اعتبار أن المغاربة قد قصدوا الشرق اما للحج وبالتالى اداء فريضة دينية أساسية، واما لتلقى العلم وكان قبل أي شيء تعليما دينياً. (11).

وكانت الركيزة الثانية إقتصادية حيث شكل المغاربة قسماً هاماً مما يمكن توصيفه « بالبورجوازية المصرية».

وتبقى الركيزة الثالثة ذات الطابع العسكرى من خلال ما جرى من تكوين المغاربة لفئة عريضة من الجند غير النظاميين جنباً إلى جنب مع قوات الجيش العثماني، فقد سمحت الدولة العثمانية لعدد من الفئات الاسلامية بتكوين فرق خارج هذا الجيش تعتمد على أساس عرفي (12)، وكانت الفرقة المغربية أو ما عرف احياناً «بالفرقة الفاسية» احدى هذه الفرق (13).

وقد تضامت هذه الركائز لتعطى للوجود المغربي كل أبعاده مما خلف آثاره على موقف المغاربة في مصر، بل وفي المشرق العربي ، من الهجمة الاوربية على الاراضى المصرية.

---

8) انظر الفصل الخامس تحت عنوان: المغاربة في مصر

9) فقد كان المغاربة يشكلون فصيلة أساسية في القوات غير النظامية في الولايات العثمانية بالشام.
انظر: جب وبون: المجتمع الاسلامى والغرب (ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى) ج2

10) الفصل الثاني تحت عنوان: مصر وطريق الحج المغربي.

11) الفصل الثاني

12) مثل الدلاتية من الاكراد والارناؤوط من الالبانيين

13) الفصل الخامس.

فهم انطلاقا من الروح الدينية تحركوا يعبئون المشاعر الاسلامية في المنطقة ويرفعون راية الجهاد ضد غزوة الفرنسيس ثم ضد غارة الانكليز.

ولا شك أن مشاعر المغاربة في هذا الصدد كانت أقوى من مشاعر اخوانهم في الشرق، فهؤلاء الأخيرون كان قد توقف صراعهم الدينى مع الوجود الاوربي بعد انتهاء الحروب الصليبية، ثم انقطع تعاملهم مع هذا الوجود بعد سقوطهم تحت الحكم العثمانى منذ مطلع القرن السادس عشر (14). أما بالنسبة للمغاربة فقد اختلف الوضع حيث لم تنقطع في أي وقت الحروب الدينية مع أوربا، خاصة مع البرتغال وإسبانيا على البر ومع سائر القوى الاوربية على سطح البحر، وتتبدى الطبيعة الدينية لهذه الحروب من الجانبين، خاصة مع انهيار الوجود العربي الاسلامى في الأندلس، وكان المحاربون مجاهدين قبل أي شيء آخر.

من ثم فإنهم لم يفاجأوا بالوجود الاوربي بين ظهرانيهم كما حدث بالنسبة للمشارقة الذين كانت قد انقطعت صلتهم بأوربا قبل ذلك بزمن طويل، وبادروا على الفور إلى إعلان حرب جهادية على هذا الوجود.

وهم تأسيساً على وضعيتهم الاقتصادية والاجتماعية المتميزة لم يدخروا مالا للانفاق على المجاهدين في مقاومتهم للغزوة الفرنسية أو للغارة الانجليزية.

وهم أخيرا، وارتكازا على خبرتهم العسكرية قد دفعوا بأنفسهم في كل قتال جرى ضد الغزاة الاوربيين.

وإذا كان الوجود المغربي بركائزه الثلاث يفسر أسباب اشتراك المغاربة في مواجهة الهجمة الاستعمارية على مصر في مراحلها الاولى غير أنه تبقى علامة الاستفهام قائمة عن أسباب اختفاء هذا الدور في مواجهة الهجمة الأخيرة التى أطاحت بإستقلال مصر ممثلة في الاحتلال البريطاني عام 1882.

والتفسير أن ركائز هذا الوجود كانت قد تهاوت خلال الثلاثة ارباع القرن الممتدة بين الغزوتين الانجليزيتين (1807 ـ 1882).

ذلك أن مصر قد شهدت خلال تلك الحقبة متغيرات جذرية اضعفت كثيرا من الوجود المغربي منها.

---

14) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة اسلامية عليها (القاهرة 1980) جـ2 ص 122 - 127

وقد تمثلت أهم هذه المتغيرات في بناء الدولة الحديثة التى شرع فيها محمد علي (15) ثم سار خلفاؤه على نفس النهج خاصة الخديو اسماعيل (16). وكان مما ترتب على بناء هذه الدولة:

1) إنشاء نظام تعليمى حديث، ولم يعد للتعليم الدينى التقليدي الذي كان قائماً من قبل نفس مكانته القديمة، بل انه لم يمض وقت طويل حتى كان الازهر بكل تاريخه قد أخذ في إخلاء الطريق للمدارس العليا الجديدة ذات الطابع العلمانى مثل مدرسة الطب أو مدرسة الهندسخانة (17).

استتبع ذلك ان لم يعد للمثقفين الدينيين، ممن كان المغاربة يشكلون احدى شرائحهم العامة، نفس مكانتهم القديمة في قيادة المصريين.

2) إعادة بناء الهياكل الاقتصادية المصرية على نحو كفل للدولة سيطرة كاملة على الاقتصاد بحيث لم يعد لأية فئة مهما بلغت مهارتها أي دور مؤثر في النشاط الاقتصادى في البلاد (18). وكان من الطبيعى أن يفقد المغاربة مكانتهم الاقتصادية القديمة على ضوء هذا التطور.

3) تأسيس جيش حديث اعتمد على التجنيد، وقد استتبع هذا التأسيس اختفاء القوات العسكرية القديمة، وكان بالاجدى أن تختفي قبلها القوات غير النظامية ومنها فرقة المغاربة.

4) أضف إلى كل ذلك أنه قد ترتب على حروب محمد علي انسلاخ مصر تدريجيا عن الدولة العثمانية وبروز الهوية الوطنية بديلا عن الانتماء الاسلامي القديم. صحيح أن هذا التغير قد استغرق وقتاً طويلا غير أنه كان محسوساً على أي الاحوال خلال الثورة العرابية، قبيل الاحتلال البريطاني، والتى رفعت شعارها المشهور « مصر للمصريين».

---

15) Dodwell, Henry : The Founder of Modern Egypt

16) عبد الرحمن الرافعى: عصر إسماعيل (جزءان) القاهرة 1948

17) أحمد عزت عبد الكريم: التعليم في عصر محمد على

18) هيلين ريفلين: الاقتصاد والادارة في مصر في القرن التاسع عشر (ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى).

وقد ترتب على هذه الوضعية نتيجتان.. أولاهما: أنه لم يكن أمام العناصر غير المصرية الا أن تخلع ارديتها الوطنية القديمة وتتمصر، وكان المغاربة أحد هذه العناصر، وثانيتهما: انه لم يوجد في صفوف العمل الوطني بوجهه الجديد ذو الصبغة القومية لا الدينية مكان لعناصر غير مصرية وهى ظاهرة زادت امتدادا مع الوقت (19).

وعلى ضوء كل ماتقدم فلا غرابة الا يعثر الباحثون على اشتراك مغربي في مواجهة الهجمة الاستعمارية الأخيرة على مصر.



على الجانب الآخر كان هناك الموقف المصرى من الهجمة الاستعمارية على المغرب، وهو الموقف الذي تأكد خلال السنوات القليلة السابقة على فرض الحماية الفرنسية، أما قبل ذلك فلا يوجد مايشير أبدا الى مثل هذا الموقف مما يحتاج بدوره الى تفسير.

وقد ارتبط الاهتمام المصرى بالقضية المغربية بتطورات هامة شهدهما الشارع السياسي في مصر أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن التالي:

تمثل التطور الأول فيما اصابته فكرة الجامعة الاسلامية من رسوخ وانتشار خلال تلك الحقبة، ومعلوم أن جمال الدين الافغاني الروح المحرك للفكرة وداعيتها الأول قد عاش في مصر لبضع سنوات خلال السبعينات (20)، وخلف مدرسة من طلابه والمعجبين به.

ويمكن القول أنه قد نتج عن انتشار فكرة الجامعة الاسلامية أن تحول الاهتمام المصري من العالم العثماني إلى العالم الاسلامي ككل وأصبحت مناطق اسلامية لم تكن في يوم من الأيام محط اهتمام عموم المصريين، مثل الهند، موضع عنايتهم فما الحال اذن مع المغرب وهو وان لم يكن بلد عثماني فانه بلد عربي اسلامي.

---

19) كان من أهم الانتقادات التى وجهت للحزب الوطني بعد أن تولى الشيخ عبد العزيز جاويش رئاسة تحرير صحيفة اللواء عام 1908 ان الرجل من أصل تونسى.

20) أحمد أمين: زعماء الاصلاح في العصر الحديث

وقد صدرت الصحف المصرية التى تعبر عن هذا الاتجاه وتدعو إليه وكان منها صحيفة المؤيد (21) التي صدرت عام 1889 وضمت جمهرة الكتاب الاسلاميين في مصر بل وفي خارجها (22) وخصصت أغلب صفحاتها لاخبار العالم الاسلامي وقد احتل المغرب جانباً هاماً من تلك الصفحات.

ويرتبط (التطور الثاني) بالتطور السابق وقد تمثل في انتشار الدعوة السلفية في مصر وأصبح دعاتها يمثلون تيارا قوياً في الشارع السياسي المصرى.

ومع الوقت ظل حجم هذه الجماعة في تزايد، وقد تزعمها الشيخ محمد عبده الذى تمكن من خلال موقعه في دار الافتاء والازهر منذ عام 1899 وحتى توفى عام 1905 من ترسيخ المفاهيم السلفية ونشر الدعوة الهادفة إلى تصفية الاسلام من كل ما علق به من زيادات غريبة عنه (23).

وقد استمرت الدعوة السلفية في تزايد بعد رحيل محمد عبده من خلال معينه وتلميذه الشيخ رشيد رضا الذي أصدر مجلة ناطقة بإسم الجماعة وممثلة للتيار تلكم هى مجلة المنار.

واذا لاحظنا أن هذا التيار كان قديماً في المغرب مند عهد الجزولى صاحب دليل الخيرات إلى التيجاني إلى علال الفاسي (24) فان تلك المجلة لقيت رواجاً كبيرا فيه، وقد دل هذا الرواج على وجود علاقة بين التيار في كل من البلدين، وكان من الطبيعي أن يعنى السلفيون في مصر نتيجة لهذا بكل ما يصيب الاسلام في المغرب، وماذا يمكن أن يصيبه أخطر من تعرضه للهجمة الاستعمارية التى تعرض لها في مطلع القرن العشرين !؟

يبقى التطور الثالث المتصل بنمو الحركة الوطنية المصرية والدوافع التى دعت القائمين عليها إلى بذل ما بذلوه من اهتمام بالقضية المغربية.

---

21) التى تملكها ورأس تحريرها الشيخ على يوسف.

22) فقد نشرت لعبد الرحمن الكواكبى مؤلفه المشهور «ام القرى».

23) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية (بيروت 1974) ص 618

24) علال الفاسى: الحركات الاستقلالية طنجة 1947) ص 134

فمن المعلوم أن الحزب الوطنى المصرى تحت زعامة مصطفى كامل نشأ أولا بشكل سرى عام 1894، ومالبث أن طفا على السطح بعد تأسيس صحيفة اللواء ناطقة بإسمه عام 1900 وان كان لم يتشكل بصورة رسمية الا أواخر عام 1907 .(25)

وقد ظلت زعامة الحزب تؤمن بخطة مؤداها «تدويل القضية المصرية» ودفع أوربا، وبالذات فرنسا، على اجبار بريطانيا على انهاء احتلالها العسكرى والجلاء عن البلاد.

بيد أنه ماجرى في أبريل عام 1904 من عقد الوفاق الودى ومن تعهد فرنسا بعدم ازعاج الوجود البريطانى في مصر (26) قضى تماماً على الآمال التى عقدها الوطنيون على سياستهم، وكان قمينا بهم أن يعيدوا التفكير في كل خططهم.

وقد تمخض عن التفكير الجديد إعادة ترتيب هذه الخطط ووضع أولويات للأسس التى يمكن الاعتماد عليها بعد أن أسقطوا من حسابهم قضية التدويل أو الاستعانة بفرنسا أو غيرها من القوى التى كانت مناصفة للاحتلال البريطاني للبلاد.

فمن ناحية أدرك رجال الحزب الوطني بأنه ينبغي صرف إهتمامهم الى الجبهة الداخلية، وبالتالى أخذوا بشكل ملحوظ عن الفترة السابقة في تكثيف دعايتهم في صفوف المصريين مما أدى بسلطات الاحتلال الىَ إلقاء نفس التهم التي كانوا يلقونها من قبل على العرابيين... بانهم يقوموا بأعمال الاضطراب والتهييج.

من ناحية أخرى تحولت القيادة الوطنية من طلب العون الأوربي من خلال السعى الى تدويل القضية إلى السعى لطلب التعاضد مع الشعوب التي تتعرض لنفس المصير ، سواء كانت الشعوب الشرقية على وجه العموم أو كانت الشعوب الاسلامية على وجه الخصوص، وكان المغرب، خارج الدولة العثمانية، هو المعرض آنئذ للوقوع في البراثن الاستعمارية.

من ناحية ثالثة وأخيرة فإن ماحدث عام 1904 (27) قد زاد من قوة هذا التعاضد نتيجة لشعور الزعماء الوطنيين المصريين بوحدة المصير.



25) د. يونان لبيب رزق: الحياة الحزبية في مصر في عهد الاحتلال البريطاني (القاهرة 1970)

26) انظر الفصل السادس.

27) الفصل السادس.

يبقى لنا بعد ذلك استعراض الموقفين واللذين نتناولهما تبعا لترتيب حدوثهما الزمنى، فنبدأ أولا بتناول موقف المغاربة من الهجمة الاستعمارية على مصر لننتقل بعد ذلك إلى تناول موقف المصريين من الهجمة الاستعمارية على المغرب.

المغاربة والهجمة الاستعمارية على مصر 1798 ـ 1807:

بدأ الدور المغربي السياسي منذ الساعات الأولى لنزول قوات الحملة الفرنسية في الأراضي المصرية.

كانت المشكلة الأولى التى واجهت نابليون بونابرت وقيادة الحملة لدى بداية الاحتكاك بالمصريين، وهى مشكلة فنية بالأساس، تتمثل في كيفية التفاهم مع هؤلاء... وقد اختلف اللسانان.

صحيح أنه كان بين رجال الحملة بعض علماء اللغة ممن درسوا العربية ولكن لم يكن هذا كافيا فكما كان مطلوباً وجود فرنسيين يعرفون العربية كان من المطلوب في نفس الوقت عرباً يجيدون الفرنسية، وقد رأت قيادة الحملة أن هؤلاء الاخيرين يكونون بالحتم أكثر فائدة في التعامل مع المصريين، العرب المسلمين، من الأولين..

وقد حل المغاربة المشكلة لقيادة الحملة، وقد جاء الحل من باب غير متوقع، أما كيف جاء هذا الحل فهو السؤال الذي يتطلب البحث عن إجابة ..

لم يكن الهدف الأوحد للحملة الفرنسية، التى قررتها حكومة الإدارة مجرد احتلال مصر بل كان هذا الاحتلال جزءا من خطة أشمل ترمي إلى ضرب الامبراطورية الاستعمارية الانجليزية وتقطيع الطرق التي تربط بينها وبين الجزر البريطانية، وتمثل جانب من هذه الخطة من انتزاع جزيرة مالطة من فرسان القديس يوحنا، وفي مالطة عثر نابليون على الحل.

ذلك أن مالطة التى ظلت مركزا للغارة على الأساطيل الإسلامية في البحر المتوسط والتى كان قسم كبير منها يتكون من السفن المغربية قد احتفظت بأعداد غير قليلة من الأسرى المغاربة الذين مع طول الإقامة في الجزيرة جمعوا بين العربية، لغتهم الأصلية، وبين الفرنسية لغة الغالبية العظمى من الفرسان ان لم يكن كلهم.

وقد تمت الاستفادة من هؤلاء في جانبين:

الأول: صياغة تلك المنشورات التي قرر نابليون توجيهها إلى مجموع الشعب المصرى فور نزوله الى الأراضى المصرية، ومن يقرأ المنشور الأول الذى وجهه الفرنسيون من الاسكندرية والذى بدأ بالبسملة، وصدر « من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية» (28) يتأكد من أنه ولو كانت الأفكار فرنسية غير ان الصياغة التى جاء بها لايمكن الا أن تصدر عن عربي مسلم.

الثاني: فقد كان مطلوباً الاتصال بالمصريين من خلال من يعرف لغتهم، وللمرة الثانية لايجد نابليون من يرسله إلى القاهرة الا بعض المغاربة، وفي هذه المرة نجد تسجيلا لذلك دونه المؤرخ المصرى الذي عاصر الاحداث، والذى يعتبر مصدرا أصيلا لما جرى خلال تلك السنوات .. ذلكم هو المؤرخ « عبد الرحمن الجبرتى» .. يقول الجبرتى في احدى يومياته.

« وقد كانت الفرنسيس حين حلولهم بالاسكندرية كتبوا مرسوماً وطبعوه وأرسلوا منه نسخاً إلى البلاد التى يقدمون عليها تطمينا لهم، ووصل هذا المكتوب مع مجموعة من الاسارى الذين وجدوهم بمالطة وحضروا بصحبتهم وحضر منهم جملة الى بولاق، وذلك قبل وصول الفرنسيس بيوم أو بيومين ومعهم منه عدة نسخ وهم مغاربة ويعرفون باللغات» (29).

ويبدو أن « معرفة اللغات» قد أعطت للمغاربة مكانة متميزة خلال الأيام الاولى من الغزو الفرنسى لمصر، ذلك أنه كما استخدم الفرنسيون اسراهم في مالطة للاتصال بالمصريين فقد استخدم الأخيرون الموجودين منهم بين ظهرانيهم في الاتصال بالفرنسيين.

بدا ذلك فيما جرى بعد موقعة انبابة (21 يوليوز 1798) والتى سحق فيها الفرنسيون الجيش المملوكى الذي كان يدافع عن القاهرة وأصبحت العاصمة المصرية عارية أمام تقدم الجيش الغازى.

---

28) عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار في التراجم والأخبار ج2 (نص المنشور ص 182 ـ 104)

29) المصدر السابق ج2 ص 182

وفي هذه الظروف اجتمع المسئولون في القاهرة، وكانوا من علماء الأزهر، بعد أن هرب منها امراء المماليك تجاه الجنوب وهرب منها الحكام العثمانيون تجاه الشرق .. واختار علماء الأزهر وسيطاً يذهب لقائد الجيش الفرنسي الذي يتأهب لدخول المدينة يسأله شروطه، وكان الوسيط مغربياً!

ونعود مرة أخرى إلى التسجيل الدقيق للاحداث الذي قام به مؤرخنا المصرى فنجده يقول:

«.. فاجتمع في الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة للافرنج وينتظروا مايكون جوابهم، ففعلوا ذلك وأرسلوها صحبة شخص مغربي يعرف لغتهم وآخر صحبته » (30) .

وقد اتصل هذا الوسيط بنابليون الذي أرسل معه وعدا بالأمان للعلماء ولأهل القاهرة ... ودخل الفرنسيون بعد ذلك المدينة لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل الوجود الفرنسي في مصر، وكان للمغاربة دورا هاماً خلال هذه المرحلة.



خلف وقوع القاهرة فيأيدي « الفرنسيس» أصداء واسعة في العالم الاسلامي، وكان من الطبيعي أن تكون اقوى هذه الأصداء في الحجاز، ولأكثر من سبب:

فمن ناحية كانت هناك علاقة خاصة بين مصر والحجاز ناتجة عن الاعتماد الكبير لأهل الحجاز، وبالذات سكان الحرمين الشريفين على مايجيئهم من مصر من معونة سنوية (31) في «قافلة الحج المصرية» التي كانت تخرج من القاهرة كل عام في احتفال كبير كان من أهم المناسبات التي يعنى بها المصريون.

وقد تصور الحجازيون، وهم محقون في هذا التصور، أن وقوع مصر في قبضة «الكفار» سوف يمنع قافلة الحج المصرية من القدوم بكل ما يعنيه ذلك من دلالات دينية واقتصادية.

---

30) المصدر السابق جـ2 ص 192

31) د. فؤاد محمد المادى: العلاقات الاقتصادية والمالية بين مصر والحجاز ـ من الفتح العثماني حتى الاحتلال الفرنسى 1517 ـ 1798 (الكويت 1980).

من ناحية ثانية فقد ضمت بلاد الحجاز، نتيجة لوضعيتها الدينية الخاصة، أطرافا إسلامية متعددة، ويمكن القول دون مبالغة ان « المجاورين المغاربة» كانوا أكثر هذه الأطراف تشددا في الدعوة للدفاع عن الاسلام.

بدا ذلك في أن أقوى رد فعل للحملة الفرنسية على مصر كان بين أوساط هؤلاء المغاربة المجاورين في الحجاز.

يتضح حجم هذا الرد فعل مما جاء في روايات الجبرتى عن واحد من هؤلاء.. يقول « تواترت الاخبار ابتداء من شهر رجب (1213) بأن رجلا مغربيا يقال له الشيخ الكيلاني كان مجاورا بمكة والمدينة والطائف، فلما وردت أخبار الفرنسيس إلى الحجاز وانهم ملكوا الديار المصرية انزعج أهل الحجاز ويدعوهم إلى الجهاد ويحرضهم على نصرة الحق والدين، وقرأ بالحرامكتابا مؤلفا في معنى ذلك، فانقظ جملة من الناس وبذلوا أحوالهم وأنفسهم (32) ».

ولم ينته دور « الشيخ الكيلانى» عند هذا الحد، حد استنفار المسلمين الموجودين في الحجاز، بل كان له دور في مقاومة الوجود الفرنسى في مصر، وهو دور يمثل معلما هاما في تاريخ حركة المقاومة ضد هذا الوجود.

★ ★ ★

تأتينا الرواية عن هذا الدور من أكثر من مصدر (33) غير اننا نفضل التسجيل الذي أورده مؤرخنا العتيد الشيخ الجبرتى لسببين، أولهما: أن صاحب « عجائب الآثار» عاين الأحداث مما يجعله صاحب شهادة مباشرة لامنقولة، وثانيهما: ماتميزت به روايته من دقة وتفصيل مما لم يتوفر في سائر الروايات، بنفس القدر على الأقل.

تقول رواية الجبرتى انه إجتمع على الكيلانى « نحو ستمائة من المجاهدين مع ما انضم إليهم من أهل ينبع وخلافه» (34).

---

32) عبد الرحمن الجبرتى: المصدر السابق ج2 ص 250

لم يعثر لهذا الشخص على ترجمة في كتب التراجم المغربية ربما لأنه لم يكن من العلماء الذين اشتهروا في المغرب.

33) انظر د. احمد عبد الرحيم مصطفى: عندما هب العرب لصد الفرنسيين عن مصر مجلة العربي العدد 250 سبتمبر 1979 ص 35 ـ 39

34) عبد الرحمن الجبرتى: المصدر السابق ج2 ص 250

ويتحدث المؤرخ المصرى بعد هذا عن الرجل فيصفه بأنه « المجاهد المغربي ومن معه من المجاهدين الحجازيين».

ونتوقف عند هذا الجزء من الرواية لنتساءل عما يعنيه الجبرتى « بالمجاهدين الحجازيين»، هل يقصد أن أولئك الذين اصطحبوا الكيلانى كانوا من أهل الحجاز ام كانوا من المقيمين في الحجاز، وبالذات المجاورين في الديار المقدسة، وعلى الأخص هؤلاء الذين ينتمون لجلدة نفس الرجل.

نرجح أن المقصود بقولة « المجاهدين الحجازيين» المسلمين المقيمين في الحجاز وعلى وجه الخصوص المغاربة منهم، ويقوم هذا الترجيح على أكثر من أساس:

1) فعلى طول التاريخ العثماني، السابق لقدوم الحملة الفرنسية، نعثر على « حضور مغربي» في الساحة السياسية أو العسكرية في مصر أو في الشام، (35) بينما نجد بالمقابل « غياب حجازى» عن هاته الساحات.

2) انه في دولة مثل الدولة العثمانية وهى دولة إسلامية بالأساس لم يكن المؤرخون أو غيرهم من كتاب الحوليات يعنون كثيرا بالبحث عن الأصول القومية لأية مجموعة بشرية لأن الانتماء القومى كان لايعنى لهم شيئًا... وكان تحديد هذه الأصول بالتالى لايتم الا في مجتمعات معينة، وفي احوال محددة..

في مجتمعات المدن مثلا حيث كانت المدينة تنقسم إلى احياء (حارات) يعيش في كل حى منها مجموعة بشرية يجمعها انتماء واحد، دينى أو حرفي أو قومي، ففي مثل هذه المدن كان يبقى أبناء كل قومية على قوميتهم.. والأمثلة في هذا الصدد بالنسبة للمغاربة في المدن العربية الكبيرة خاصة القاهرة والاسكندرية موجودة وعديدة (36).

ولما كانت مثل هذه المجتمعات المدنية لاتتوفر في الحجاز فلم يكن ثمة داع لتوصيف المجموعات البشرية الموجودة فيه على مثل هذا الأساس القومي.

---

35) د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: دور المغاربة في تاريخ مصر في العصر الحديث (العصر العثمانى) المجلة التاريخية المغربية عدد 10 _ 11 يناير 1978

36) انظر الفصل الثالث

أما « الأحوال المحددة» فقد كان أظهرها القوات غير النظامية التى ضمها الجيش العثماني، اذ كانت تصنف هذه القوات تبعاً لمناطق قدومها،الدلاتية مثلا القادمين من كردستان، والارناؤوط القادمين من أسبانيا، والمغاربة الذين ينتمون إلى المغرب. ومثل هذه الحالة إن وجدت في الحجاز فلم توجد بشكل أصيل بقدر ما وجدت بشكل وافر اذ أن مثل هؤلاءالأجناد كانوا يذهبون إلى الأراضى المقدسة في قوافل الحج التركية خاصة القافلتين المصرية والشامية.

وهكذا، وطالما لاتوجد هذه المجتمعات أو تلك الأحوال، فقد كان من الطبيعي أن يرد الجبرتى أصول من استجاب من المجاهدين لاستنفار الكيلانى الى الاقليم الذي أتوا منه فأصبحوا « المجاهدين الحجازيين».

3) يبقى الأساس الأخير والأهم للترجيح بأن هؤلاء المجاهدين كانوا في اغلبيتهم من المغاربة، وهو أساس مستمد من رواية الجبرتى أيضاً الذي يقول أن الرجل ومن معه بعد أن عبروا البحر الأحمر إلى الأراضي المصرية « انضم إليهم جملة من أهل الصعيد وبعض أتراك ومغاربة» (37).

ومفهوم إنضمام المصريين من أهل الصعيد لقوة تدافع عن (بلادهم) ضد الغزوة الاوربية، ومفهوم أيضاً إنضمامالترك من اجناد الدولة لمجاهدين يدفعون عن (دولتهم) خطر الهجمة الاجنبية، ولكن السبيل الوحيد لفهم إنضمام المغاربة هو أنهم وجدوا أن جل تلك القوة من المجاهدين من أبناء جلدتهم.



ننتقل بعد ذلك إلى متابعة الدور الذي قام به الكيلانى ومجموعته فنسوق ما جاء من «عجائب الآثار» عنهم، ثم نسجل ملاحظاتنا حوله.. يقول الجبرتي:

« ركب الغز معهم وحاربوا المماليك، فلم تثبت الغز كعادتهم وانهزموا وتبعهم هوارة الصعيد والمتجمعة من القرى وثبت الحجازيون، ثم انكفوا لقلتهم وذلك بناحية جرجا وهرب الغز والمماليك إلى ناحية اسنا وصحبتهم حسن بك

---

37) الجبرتى نفس المصدر ونفس المجلد ص 250

الجداوى وعثمان بك حسن تابعه، ووقع بين أهل الحجاز والفرنسيس بعض حروب غير هذه المرة بعدة مواضع وينفصل الفريقان بدون طائل» (38).

وتتوارد الملاحظات حول هذا النص الذي ساقه المؤرخ المصرى..

الملاحظة الأولى: ان المجاهدين تحت قيادة الكيلانى كانوا اثبت في ميدان القتال ضد الفرنسيين من سواهم، وكان الحكام القدامى من الغز (الاتراك) والمماليك أول المنهزمين، ثم تبعهم رجال القبائل من الهوارة وكانت أشد القبائل تحكما في أهالى الصعيد حتى أن رئيسهم الشيخ همام كان يسيطر على أغلب الصعيد لسنوات قليلة قبل قدوم الفرنسيين (39)، تلاهم أبناء البلاد أو من أسماهم الجبرتي « المتجمعة من القرى»، وأخيرا انكف اتباع الكيلانى « لقلتهم» لالنكوصهم كما كان الحال بالنسبة للعناصر الأخرى.

الملاحظة الثانية: تتصل بإستمرارية جماعة الكيلانى التي عبر عنها الجبرتي « بحروب غير هذه المرة بعدة مواضع»، صحيح أنها كانت تنتهى « بدون طائل» على حد تعبير المؤرخ المصرى، أي بدون حسم، وكان مفروضًا أن يكون هذا الحسم إلى جانب الجيش النظامى لا إلى جانب مجموعة المجاهدين.

بإختصار يمكن القول من خلال استنطاق هذا النص ان الكيلانى وجماعته كانوا يحاربون القوات الفرنسية شكلا من حرب العصابات لم تتمكن هذه القوات من حسمها لصالحها وكانت مصدرا من مصادر استنزافها.

والواضح أن هذه الحرب قد اقلقت القيادة الفرنسية قلقا شديدا حتى أنه لما قرر بونابرت العودة من حملة الشام في يوليوز عام 1799 كان سببًا من الأسباب الخمسة عشر التى ساقها لعودته مابلغه من «توجه أهل الحجاز صحبة الكيلانى لناحية الصعيد» (40).

---

38) المصدر السابق نفس الصفحة

39) لم يضرب سيطرة هذا الرجل على الصعيد سوى على بك الكبير المملوك الذي حكم مصر بين عامى 1769 و 1773

40) الجبرتى: المصدر السابق ج ص 288

وقد ظل المجاهد المغربي ومجموعته يشكلان شوكة في جنب الوجود الفرنسى في مصر إلى أن توفى الرجل (ذى القعدة 1213) فانضمت مجموعته إلى مجاهد مغربي آخر اسمته المناشير الفرنسية «المغربي محمد»الذي صار له جيش كبير وادعى أنه من سلاطين المغرب (41)، ولهذا الرجل قصته غاية في الأهمية في تاريخ الكفاح المصرى ضد الوجود الفرنسي، وهي قصة تستحق أن تروى.



(المرة الأولى) التي أشارت فيها المصادر إلى هذا الرجل كانت ضمن ما واجهه الفرنسيون من مقاومة في « جهة البحيرة» (42).

وإقليم البحيرة يقع غربي الدلتا متاخما للاسكندرية من جهة الجنوب، ولنا أن نلاحظ أن هذا الاقليم، بعد الاسكندرية، يعتبر أول الأقاليم قربًا لجهة الغرب وبالتالى فإن المغاربة في قدومهم إلى مصر ينزلون به أول ما ينزلون قبل أي إقليم آخر من أقاليم الدلتا، وقبل القاهرة نفسها، ولنا أن نلاحظ أيضًا أنه نشأت في هذا الاقليم حركة مقاومة ساخنة ضد الوجود الفرنسى كان من الطبيعي أن يكون المغاربة أحد عناصرها.

غير أن (المرة الثانية) والأهم كانت خلال ثورة القاهرة الثانية (مارس ـ أبريل 1800) حيث قاد «المغربي محمد» فصيلة هامة من فصائل هذه الثورة.

وقبل التعرض لهذا الدور تنبغى الاشارة إلى أن العاصمة المصرية قد شهدت ثورتين ضد الاحتلال الفرنسي،أولاهما التى تفجرت في أكتوبر عام 1799 وهى وان ظل أثرها باقيًا في ضمير الشعب المصرى لما جرى خلالها من اقتحام الفرنسيين للازهر غير أنها كانت محدودة سواء على المسطح المكانى حيث كان انتشارها محصورا في أحياء قاهرية معينة أو على المدى الزمنى إذ استطاع نابليون ضرب مراكز الثورة بل واخمادها في فترة قصيرة.

---

41) المصدر السابق ص 288

42) المصدر السابق ص 327

اختلف الأمر بالنسبة للثورة الثانية التي تفجرتفيظروف مغايرة، ذلك أنه كان قد تقرر في يناير عام 1800 وبمقتضى اتفاقية فرنسية - عثمانية انسحاب قوات الاحتلال الفرنسى من البلاد، وبدئ فعلا في تنفيذ الاتفاقية ووصلت إلى القاهرة السلطة العثمانية التى كانت قد غادرتها من قبل ومعها جموع من النازحين وتهيأ الجميع لتوديع الوجود العسكرى الفرنسي حين تدخل الانجليز ورفضوا شروط الاتفاقية وتأزم الموقف في العاصمة المصرية خاصة بعد الصدام بين القوات الفرنسية والعثمانية في أحدى ضواحي القاهرة والذي انتهى بفوز الفرنسيين.

وفي هذه الظروف تفجرت ثورة القاهرة الثانية والتى احتلت مكانـًا في تاريخ المقاومة المصرية أكثر تميزا من شقيقتها الكبرى ولأكثر من سبب:

1) فقد تفجرت هذه الثورة وكان الفرنسيون (على رحيل)، لا (على قدوم) كما كان الحال بالنسبة للثورة السابقة، مما أعطاها قوة ضغط أكبر على أساس أن مزيدا من المقاومة قد يؤدى في نهاية الأمر إلى إتمام هذا الرحيل.

2) ثم انها تفجرت بعد أن كانت بعض العناصر الادارية والعسكرية العثمانية قد عادت إلى المدينة أضف إلى ذلك جموعـًا كبيرة من النازحين الذين تركوا القاهرة لدى احتلالها من جانب الفرنسيين، وكانت هذه العناصر ذات مكانة إجتماعية (43) أو مكانة دينية (44) مما وفر لها قيادة قادرة.

ومن ثم كان من المنطقى أن تستمر هذه الثورة وقتـًا أطول وأن تتسع لتضم جهات أشمل .. ثم الأهم ماترتب على كل ذلك من تعدد فصائلها، وكان «المغربي محمد» قائدا لفصيلة من أهم هذه الفصائل.

أما ممن تشكلت هذه الفصيلة فنعود في ذلك إلى الجبرتى الذي يقول انه « التف عليه طائفة من المغاربة البلدية وجماعة من الحجازية ممن كان قدم صحبة الكيلانى (45).

---

43) مثل السيد أحمد المحروقى شهبندر تجار القاهرة

44) مثل السيد عمر مكرم نقيب الاشراف في العاصمة المصرية

45) الجبرتى جـ2 ص 327

ويتضح من هذا التشكيل أن جماعة «المغربي محمد» قد تميزت عن الجماعة التى قادها الكيلانى بميزتين.. أولاهما: تعدد مصادر تشكيلها فهى قد ضمت إلى جانب المغاربة أو غيرهم ممن أتوا صحبة الكيلانى من الحجاز «طائفة من المغاربة البلدية» وهى بذلك كانت أوسع قاعدة من الجماعة الحجازية.

الميزة الثانية والأهم أنها ضمت أعدادا من المغاربة المحليين أو المغاربة المقيمين في مصر الذين أسماهم الجبرتى « بالمغاربة البلدية»، وتتضح قيمة هذه الميزة في أنه أصبح للرجل مخزون بشرى ظل يُستمد منه العناصر الثورية التى قامت بدور فريد في تاريخ ثورة مارس عام 1800.

أما جوانب هذا الدور فهى متعددة نستخلصها من رواية الجبرتى ابتداء من تفجير أحداث الثورة ووصولا إلى آخر جذواتها.

ففي أول الأمر كادت الثورة ألا تحدث أصلا ذلك أنه عندما بلغت عناصر السلطة التى كانت قد دخلت القاهرة الأنباء بفشل الاتفاقية قرروا مغادرة القاهرة، أو كما قال الجبرتى « لما عاين ذلك الجميع أجمع رأى الكبراء والرؤساء على الخروج من البلد في تلك الليلة لعجزهم عن المقاومة». غير أن العناصر الثورية في القاهرة منعت هؤلاء من الخروج وعلى حد رواية المؤرخ المصرى أنه لما « تسامع أهل خان الخليلى من الالداشات وبعض مغاربة الفحامين والغورية ذلك، فجاءوا للجمالية وشنعوا على من يريد الخروج وعضدهم طائفة عساكر الينكجرية، وعمدوا إلى خيول الأمراء فحبسوها ببيت القاضى والوكائل، وأغلقوا باب النصر». (46).

وهكذا أبقى المغاربة والالداشات عناصر السلطة في القاهرة، معهم كبار التجار الذين أرادوا الخروج أيضاً، والذين لعبوا دورا هاماً في تحويل الثورة فقد «باشر السيد أحمد المحروقى وباقى التجار ومساتير الناس الكلف والنفقات والمآكل والمشارب كذلك جميع أهل مصر، كل إنسان سمح بنفسه وبجميع ما يملكه وأعان بعضهم بعضاً (47).

---

46) المصدر السابق ص 324

47) نفس المصدر ص 327

وبالامكانمن خلال رواية المصدر المعاصر لاحداث الثورة القول بأن «المغربي محمد» واتباعه كانوا يشكلون الجناح الراديكالى للثورة..

في أول الأمر استلفت النظر بأعمال العنف ضد الفرنسيين والتي سجلها المصدر المذكور بقوله « فعل ذلك الرجل المغربي أمورا... فكان يتجسس على البيوت التى بها الفرنسيس والنصارى فيكبس عليهم ومعه جمع من العوام والعسكر فيقتلون من يجدونه منهم وينهبون الدار ويسحبون النساء ويسلبون ماعليهم من الحلى والثياب» (48).

بعد ذلك، وعندما اشتد ضرب المدفعية الفرنسية للمدينة، فكر بعض العلماء في التوسط لدى كليبر لكف الضرب « ووقف الفتنة»، وبعد ان نجحت الوساطة وعاد العلماء إلى مراكز الثوار يناشدونهم التوقف كان «المغربيمحمد» من أشد العناصر رفضا لهذا التوقف، ونعود مرة أخرى لرواية الجبرتي...

« فلما رجع المشايخ بهذا الكلام وسمعه الانكشارية والناس قاموا عليهم وسبوهم وشتموهم.. وتشدد في ذلك الرجل المغربي الملتف عليه اخلاط العالم، ونادى من عند نفسه: الصلح منقوض وعليكم بالجهاد، ومن تأخر عنه ضرب عنقه...» (49).

وأخيرا، وبعد أن تمكن الفرنسيون من ضرب أغلب مراكز الثورة حتى أنهم دمروا ما ينوف عن اربعمائة منزلا في بولاق (50)، أكثر أحياء القاهرة اشتعالا، وبعد أن أخذت المدينة في الهدوء.. بعد كل هذا ظل « المغربي محمد» يدعو إلى استمرار الثورة..

يقول الجبرتى« .. وركب المغربي فتوجه إلى أهل الحسينية وطلب محاربة الفرنسيس، فحضر أهل الحسينية إلى عثمان كتخدا يستأذنونه في موافقة ذلك المغربي أو منعه، فأمر بمنعه وكفهم عن القتال (51).

---

48) نفس المصدر ص 327

49) نفس المصدر ص 335

50) عبد الرحمن الرافعى: تاريخ الحركة القومية .جا

51) الجبرتى: ج2 ص 341

يتأكد مع كل هذا أن توصيف الجناح المغربي في ثورة القاهرة الثانية بالراديكالية توصيف غير بعيد عن الصواب.

ويزداد هذا التأكد مِن خلال موقف المحافظين المصريين من الرجل، ويمثل هؤلاء اصدق تمثيل الشيخ عبد الرحمن الجبرتي... عالم الدين المحافظ بحكم إنتمائه، وأحد الملاك الخائفين على ممتلكاتهم، أضف إلى كل ذلك أنه كان بتكوينه أحد المؤمنين بفكرة « التقية» تجاه الغازى الفرنسى..

يدين الجبرتى أسلوب العنف الذي استخدمه الجناح الراديكالى فيقول « فعل ذلك الرجل المغربي أمورا تنكر عليه لأن غالب ماوقع من النهب وقتل من لايجوز قتله يكون صدوره عنه » (52).

ثم أنه لانتمائه لشريحة الأعيان من أصحاب الأملاك يستهجن أفعال المغربي التى تعرض ثروته للتلف وأملاكه للدمار فيقول « ان غرضه هو في دوام الفتنة فان بها يتوصل لما يريد من النهب والسلب والتصور بصورة الإمارة بإجتماع الأوغاد عليه وتكفل الناس له بالماكل والمشرب هو ومن انضم إليه.. ثم هو ليس ممن له في مصر مايخاف عليه من مسكن أو أهل أو غير ذلك بل كما قيل: لاناقتى فيها ولا جملى. فإذا قدر ماقدر تخلص مع حزبه إلى بعض الجهات والتحق بالريف أو غيره، وحينئذ يكون كآحاد الناس ويرجع لحالته الأولى وتبطل الهيئة الاجتماعية التى جعلها لجلب الدنيا. وبالجملة فكان هذا الرجل سببًا في تهدم أغلب المنازل بالازبكية، ومن جملة مارميت به مصر من البلاء».

وأخيرا يعرب ممثل المحافظين المصريين عن دهشته من عدم انصياع «المغربي» لولاة الأمور فيقول: « وكان ممن ينادى به عليه حين اشيع أمر الصلح وتكلم به الأشياخ: الصلح منقوض وعليكم بالجهاد ومن تأخر ضرب عنقه، وهذا منه افتيات- وفضول ودخول فيما لايعنى حيث كان في البلد مثل الباشا والكتخدا والأمراء المصرية، فما قدر هذا الأهوج حتى ينقض صلحًا أو يبرمه وأى شيء يكون هو حتى ينادى أو ينصب نفسه بدون أن ينصبه أحد لذلك (53).

---

52) نفس المصدر ص 327

53) المصدر السابق ص 335

والواقع أن الجبرتى بمثل هذا الموقف لم يكن مؤهلا لاستيعاب دور الجناح الراديكالى في الثورة ابتداء من رفض القتل وانثناء للخوف على الممتلكات وانتهاء بوجوب طاعة أولى الأمر... ومتى كانت أي ثورة تقوم على الطاعة !؟

على أى الأحوال بإنتهاء الثورة تفرقت فصائلها بما فيها الفصيلة المغربية ولم تشر المصادر المعاصرة مرة أخرى إلى أي دور « للمغربى محمد» وان كان دور «المغاربة» في الجهاد ضد الغزوة الاوربية ظل قائماً فيما نعثر عليه من اشتراك في المقاومة الوطنية التي واجهت الحملة الانجليزية والتي عرفت بإسم حملة فريزر التي هاجمت السواحل الشمالية للبلاد عام 1807.



بعد أن احتل الانجليز في 17 مارس عام 1807 الاسكندرية بدأوا زحفهم المنظم بإتجاه الشرق سعياً إلى تحقيق هدفين.. إحداهما بتأمين المدينة المحتلة من خلال السيطرة على المناطق الريفية المحيطة بها والتى تمدها باحتياجاتها الغذائية، والثانية بتنفيذ الخطة التي جاءت حملة فريزر لتنفيذها والقائمة على احتلال ساحل مصر الشمالى لمنع أي محاولة انزال فرنسى على هذا الساحل.

غير أن هذا الزحف اصطدم في أواخر نفس الشهر بمقاومة مصرية عتيدة في مدينة «رشيد» دعت قيادة الحملة إلى سحب قواتها والإعداد لزحف آخر أكثر قوة..

دعا ذلك القيادات الشعبية التي واجهت الموقف في رشيد الى إرسال نداء استغاثة عاجلة جاء فيه أن الانجليز «استعدوا وحضروا إلى ناحية الحماد قبلى رشيد ومعهم المدافع الهائلة والعدد ونصبوا متاريهم من ساحل البحر الى الجبل عرضاً وذلك ليلة الثلاثاء... فهذا ماحصل اخبرناكم به ونرجو الاسعاف والامداد بالرجال والجبخانة (54) والعدة والعدد وعدم التأنى والاهمال (55).»

---

54) الجبخانة لفظة تركية بمعنى الذخيرة.

55) الجبرتى: المصدر السابق جـ3 ص 187

وقد وصلت الاستغاثة إلى السيد عمر مكرم نقيب الاشراف في القاهرة والذي كان آنئذ بمثابة الزعيم الشعبي الأول في القاهرة بعد الدور القيادى الذي قام به خلال وجود الفرنسيين ثم بعد ذهابهم (56).

وبادر السيد عمر النقيب، كما كان يسميه الجبرتى، الى قراءة الجواب « على الناس وحثهم على التأهب والخروج للجهاد». ويشير المؤرخ المصرى إلى من استجاب لصيحة الجهاد فيحددهم على النحو الآتى « طائفة المغاربة وأتراك خان الخليلى وكثير من العدوية والاسيوطية وأولاد البلد» (57).

على ضوء ذلك يتضح أن المغاربة كانوا في طليعة المتطوعين الذين حملوا السلاح لصد الحملة الانجليزية، واستطرادا لنفس الموقف نلاحظ أنهم اسهموا بنصيب وافر في هذا العمل.

ونعود مرة أخرى إلى رواية « عجائب الآثار» التى تشير إلى ما ورد إلى القاهرة من معلومات عن القتال الذي جرى حول العماد وجاء فيها أنه «كان بين الفريقين مقتلة كبيرة وأسروا من الانكليز طائفة وقطعوا منهم عدة رؤوس» وتستطرد الرواية بأن «الانكليز انجلوا عن متاريس رشيد وابى منصور والعماد» وانه كان « من جملة المتطوعين رجلان من أهل مكة التجار المقيمين بمصر كانا في الواقعة بنحو مائة من البدو والمغاربة ينفقان عليهم ويحرضانهم على القتال» (58)



وكانت هذه الموقعة ذات اثر حاسم في التاريخ المصرى فقد انسحب الانجليز من البلاد في شتنبر من نفس السنة وانزاحت خطورة التدخل الأجنبى من سماء السياسات المصرية لثلاثة ارباع القرن (1807 ـ 1882).

وقد أدى هذا الانقشاع إلى نتيجتين اثرتا في طبيعة المشاركة المغربية التى لاحظناها على امتداد الصفحات السابقة..

56) أنظر: د. عبد العزيز الشناوى: عمر مكرم

57) الجبرتى: المصدر السابق ج3 ص 187

58) نفس المصدر ص 192

النتيجةالأولى: انه مع اختفاء أخطار التهديد الاوربي لم يعد هناك ما يحفز المغاربة الموجودين في مصر أو الوافدين إليها للمشاركة في العمل السياسي في البلاد والذي لم يتجاوز بالنسبة لهم آداء فريضة الجهاد.

النتيجة الثانية: ما أتاحه عدم تعرض البلاد للاخطار الخارجية من فرصة لمحمد على لبناء دولة مصر الحديثة وهى دولة لم يكن لغير المصريين أن يشاركوا في أي عمل سياسي فيها.

المصريون والهجمة الاستعمارية على المغرب 1904 ـ 1912:

كانت الأخبار الأولى التي جاءت إلى العاصمة المصرية منذ أوائل عام 1904 عن احتمالات عقد اتفاق انجليزى ـ فرنسى لتقسيم مناطق النفوذ في مصر والمغرب بمثابة صدمة قوية للشارع السياسي المصرى.

فهذه الصدمة قد أكدت من ناحية للعاملين في الحقل الوطني بمختلف شرائحهم، الوطنية والاسلامية والسلفية، أن مصير الشعوب واحد أمام الهجمة الاستعمارية، كما أنها، من ناحية أخرى، قد لفتت أنظار مختلف أصحاب هذه الاتجاهات للمغرب بالذات حيث وضعها الاتفاق مع مصر في سلة واحدة أو في صفقة واحدة.

كان أول من تنبه للموقف الجديد أصحاب الجامعة الاسلامية الذين عبرت عنهم صحيفة المؤيد التي ظهر فيها أول مقال في الحملة تحت عنوان « (59) مراكش بين اسبانيا وفرنسا »(60) تبعتها مقالات أخرى عن « فرنسا ومراكش» و «الحالة في المغرب الأقصى» و«الاتفاق الفرنساوى ـ الانكليزى».

والواضح أن الشيخ « على يوسف» والملتفين حولهمن المتعاطفين مع فكرة الجامعة الاسلامية قد عنوا أساساً بما تتعرض له دولة اسلامية من أطماع أوربية مما يتضح في مختلف المقالات التي نشرتها المؤيد في هذه المناسبة. جاء في احدى هذه المقالات..

---

59) نلاحظ أن الصحف المصرية قد بدأت منذئذ تستخدم تسمية «مراكش» بدلا من تسمية «المغرب» التى ظلت تستخدمها الوثائق المصرية طوال القرن التاسع عشر ولعل ذلك يعود أساساً للتأثير الاوربى وان المثقفين والصحافة المصرية كانوا يستقون معلوماتهم من مصادر أوربية.

60) المؤيد فى 1904/1/17

« لانجد مندوحة من الاعتراف بأن الكاتب وهو يخط ما سطره الآن يشعر بألم وأسف شديدين على بلاد اسلامية عربية قد قضى عليها الجهد وسوء التدبير أن تكون موضع منافسة دول أجنبية» (61).

وبنفس المنطق يرى أصحاب الجامعة الاسلامية في مصر أن شعبا اسلامياً مثل الشعب المغربى لن يؤخذ بسهولة وتقول أن فرنسا « لاتجهل ماكابدته مع الجزائريين من خسائر وما فقدته من رجال وأموال كما هو معلوم مشهور» (62)، وترتب على هذا المنطق تحذيرات أطلقوها.

1) فهم يرون أن فرنسا تريد «أن تسلك مسلك الانكليز في الاستعمار وتبسط نفوذها بالمسائل المالية والوسائل الاقتصادية وتذر الرماد في عين أوربا بكلمات كخدمة المتاجر الاوربية ونشر المدنية العصرية وتوطيد السلام والتعصب الاسلامى وهلم جرا ...» (63).

2) ويضعون يدهم على مناسبة تجعلهم يطلقون صيحات التحذير عالية أكثر، وكانت المناسبة ماوصل من أخبار عن ضغوط تمارسها الحكومة الفرنسية لاجبار المغرب على الاقتراض من بنك باريس بدلا من الشركة الحرة ويرون أن وراء ذلك سعى فرنسا « لوضع أول حجر في دعامة نفوذها. وبمثل هذه الوسائل تنال أوربا أغراضها في البلاد الشرقية. واذا لم يكن هذا هو المقصد الحقيقي والغاية من وراء هذه السياسة فأى غرض لفرنسا يحملها على تعضيد بنك باريس تعضيدا رسمياً في حين أن الشركة الأخرى فرنساوية ولها معاملات كثيرة وتجارات واسعة في مراكش وهى التى عقدت القرض الأول مع السلطان هناك (64) ».

نفس الاهتمام أولته «الصحف الوطنية»، على رأسها صحيفة اللواء التى كان يملكها ويرأس تحريرها الزعيم المصرى المشهور « مصطفى كامل»، نفس الاهتمام أولته هذه الصحف للمسألة المغربية في نفس المناسبة.

---

61) المؤيد في 1904/5/2 مقال بعنوان «اسبانيا ومراكش».

62) المؤيد في 1904/5/11 مقال بعنوان « فرنسا ومراكش أيضاً».

63) نفس المقال السابق.

64) المؤيد 1904/5/10 مقال بعنوان: مراكش ـ مبادئ العمل

غير أننا نلاحظ اختلاف المنطلق لاصحاب التيار الوطني عن المنطلق الذي تحرك منه أصحاب التيار الإسلامى. ذلك أن مصطفى كامل قد قاد بالأساس الحملة ضد «المسئولين المغاربة». والسلطان عبد العزيز بالذات بإعتباره مسئولا عما تتعرض له بلاده من الأطماع الفرنسية.

ولايمكن فهم دوافع موقف الزعيم الوطني المصرى الا على ضوء علاقته السياسية بالخديو عباس حلمى، الذى كان يحكم مصر آنئذ، فبالرغم من أن عباسا كان وراء التيار الوطني في أول الأمر يغذيه ويشجعه بل ويموله، غير أن عام 1904 شهد انقلابا في العلاقة بين الطرفين أدت بمصطفى كامل إلى النظر للخديو على اعتبار أنه احدى الادوات التى تمكن من الوجود البريطاني في البلاد، (65) وقد أثرت هذه النظرة في معالجته للقضية المغربية.

فاللواء صحيفة الحزب الوطني تعلق على ماجاء من جريدة «الاكلير» الباريسية تحت عنوان «الحالة في مراكش والواجب على فرنسا تلقاء ما يجرى الآن» فتتساءل «هل لسياسة مراكش وقادة أمورها أن يطلعوا على امثال هذه المقالة ليعلموا أن بلادهم في خطر كبير وأنه اذا أمكن انقاذها اليوم قد لايمكن ذلك في مستقبل الأيام وان الساعة الحاضرة غالية في ساعات الدهر لايصح صرفها في الباطل وترك البلاد مسوقة الى هاوية الخطر العظيم» (66).

وفي أواخر شهر مارس عام 1904 يشن مصطفى كامل حملة عنيفة على السلطان عبد العزيز وحكومته وكأنما كان في نفس الوقت يشن ذات الحملة على الخديو عباس.

ينبه في مطلع هذه الحملة إلى خطورة الموقف في المغرب والى مطامع الدول في هذه المملكة الاسلامية وينتقد بحدة شديدة استدعاء السلطان لعدد من المطربين المصريين ويعبر عن سخريته من أن مولاي عبد العزيز «لم يجد في حضارة المسلمين وتقدمهم ماينفع بلاده الا (المطربين) وأنه يلهو ويلعب مسرورا منعم

---

65) د. يونان لبيب رزق: الحياة الحزبية في مصر في عهد الاحتلال البريطاني 1882 ـ 1914 (القاهرة 1976).

66) اللواء في 1904/3/23 مقال بعنوان: الحالة في مراكش

الباك يحسبه ملك الدنيا، والعالمون في خدمته، والاساطيل طوع اشارته، والجيوش الجرارة في قبضته، والممالک تخشاه، والأمم تخافه، والدهر خاضع بين يديه يقول له (افعل ماشئت فانک آمن) ».

وبعد هذه السخرية يقدم زعيم الحزب الوطني مجموعة من المطالب:

1) يطالب السلطان عبد العزيز بالاقتداء باليابان « بدرس المشروعات الحربية وأساليب الاصلاح والارتقاء ورفع بلاده إلى المقام الذي حمل الدولة البريطانية على محالفتها وقد أبت من قبل محالفة دول أوربا».

2) يستقر من أسماهم «برجال الهمة والاقدام والنصح والإرشاد» بالتنبيه إلى الخطأ وتقويم الاعوجاج.

3) يذكر بأن المسلمين في هذا الزمان في حاجة للتذكيروالارشاد«ولوأراد المسلم أن يبكى مصائب الاسلام لما كفاه أطول الاعمار للبكاء»! (67).



تعود المسألة المغربية لتفرض نفسها عام 1906 خلال مؤتمر الجزيرة الخضراء وفي أعقابه. ويتولى اثارة المسألة هذه المرة أصحاب التيار السلفى يتزعمهم الشيخ محمد رشيد رضا.

وأول ما نلاحظه في الحملة التى قادها السلفيون نظرتهم لما يجرى في المغرب على أنه نتيجة طبيعية للممارسة الخاطئة للاسلام.. يقول رشيد رضا:

« لقد أعدنا النذر والنصائح ولكن القوم في غمرة ساهون، لايتوبون ولاهم يذكرون، وانما يعتمدون على أهل القبور في دفع الضر أو تحويله عنهم، كما علمت من التجائهم الى قبر سيدى ادريس عندما ارادت فرنسا الافتيات عليهم وجؤارهم عنده بكلمة (يالطيف) مئة ألف مرة»

ويقول في موضع آخر:

« اذا ارجعت المسببات الى أسبابها تبين لک أن الذى حال بين أهل مراكش وبين الانتفاع بما ذكّرناهم وذكّرهم به غيرنا هو الجمود على التقاليد والاتكال على

---

67) اللواء في 1904/3/28 مراكش في امان !ـ مقال افتتاحى بقلم مصطفى كامل

أصحاب القبور فهاتان العلتان هما المانعتان من فهم الحق ومن كل تغيير يدعى إليه المقلد للآباء المفوض أموره إلى من اتخذهم أولياء».

ومن تشخيص العلة يستعرض زعيم التيار السلفى في مصر ظروف استدراج المغرب لعرض قضية الاصلاح فيه على مؤتمر أوربى وكـيف اتفق أعضاء هذا المؤتمر« على وجوب انشاء مصرف لتلك المملكة وإنشاء شرطة يدير أمرها ضباط أوربيون. اما المصرف فلابتلاع أموال الحكومة وأما الشرطة فلتأمين تجارة أوربا التى يبتلعون بهاأموال الاهالى ويتمكنون بها من إدارة البلاد ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون».

أما الحل في رأى رشيد رضا فهو المبارزة « إلى إصلاح شأنها بالتربية والتعليم اللذين تقتضيهما حالة العصر لاسيما تعليم الفنون العسكرية والمدنية والاقتصادية (68) ».



وتحدث الطامة الكبرى في نظر المصريين عند فرض الحماية الفرنسية على المغرب عام 1912 ويشن أصحاب الاتجاهات السياسية المصرية أشد حملاتهم على فرنسا هذه المرة.

بالنسبة لاصحاب تيار الجامعة الاسلامية فقد نظروا إلى الحادث من زاويتين .. أولاهما: ضياع إستقلال أقدم مملكة إسلامية مستقلة، وكما جاء في مقال تحت عنوان « أفول نجم دولة اسلامية» مانصه:

« تم الأمر يوم السبت 20 مارس 1912 وبهذا أفل نجم دولة اسلامية يرجع تاريخ دخول الاسلام فيها إلى القرن الأول من الهجرة» (69).

أما الزاوية الثانية فقد تمثلت فيما كانت تتعرض له أقسام أخرى من العالم الإسلامى من غزوة أوربية وبالذات ليبيا التى تعرضت في العام السابق للهجمة الايطالية التي استهدفت انتزاعها من أحضان الدولة العثمانية. ولما كانت إيطاليا

---

68) المنار جا مجلد 9 عزة محرم 1324 (24 فبراير 1906) ـ مملكة مراكش ومؤتمر الجزيرة

69) المؤيد في 1912/4/14

لاتزال تلقى المقاومة من أهل طرابلس والمتطوعين المسلمين فقد حذر أصحاب الجامعة الاسلامية فرنسا من خطوتها ونبهوا إلى الموقف الحرج الذي وضعت نفسها فيه.

فقد جاء في مقال تحت عنوان « مركز فرنسا الحرج في مراكش ـ المقدمات والنتائج» مانصه ...

« .. كان على الفرنساويين أن لايتعجلوا في الأمر وأن يأخذوا لهم من دفاع أهل طرابلس عن بلادهم وهم أقل من المراكشيين مالا ورجالا وقوة درساً يعلمهم أن العرب لايمكن أن يؤخذوا بالقوة والجبروت وانه مهما كانت قوة الدولة التى تحاربهم ومهما كانت نتائج القتال فإنهم لايقبلون حكم الأجنبي عليهم بحال من الاحوال.

« ... ان فرنسا عرضت نفسها بوضع الحماية لتحمل أعباء مسئولية هائلة وجلبت عليها أثقالا وهموماً ترزح تحت أثقالها عشرات السنين تهرق فيها دماء الكثيرين من أبنائها وتصرف فيها ملايين الجنيهات وتظل على الدوام شجى في حلقومها حتى يحكم الله بينها وبينهم وهو خير الحاكمين» (70).



أما أصحاب التيار الوطنى فقد كانت حملتهم أعنف، صحيح أن مصطفى كامل كان قد لقى ربه قبل ذلك بأربع سنوات (1908) غير أن خليفته محمد فريد كان ذا عود صلب ومن أكثر الوطنيين تشددا.

وكانت حملة صحيفة « العلم» التى حلت محل «اللواء» كصحيفة ناطقة بلسان الحزب الوطني أشد حدة وأطول عمرا.

بدأت هذه الحملة في منتصف أبريل بتعليق على إتفاقية الحماية مؤكدة أنه « يجب أن تحسب للأمة حسابا كبيرا » (71).

الجانب الثاني من الحملة وجهه الحزب الوطني المصري لنقد تصريحات أدلى بها السلطان لصحيفتين فرنسيتين (72) اعترف فيها بأن الحماية الفرنسية سلبته كل سلطة .. تعلق قائلة :

---

70) المؤيد في 1912/6/1 مقال بقلم حامد ابراهيم

71) العلم في 1912/4/14 مقال بعنوان مراكش اليوم ومراكش غدا.

« قرأنا الحديث فقلنا (على نفسها جنب براقش) وتأثرنا لضياع مملكة اسلامية عنهة كبرى كانت تحوم حولها آمال جم غفير من المسلمين والشرقيين فلا حول ولا قوة الا بالله» (73).

ويتجه الجانب الثالث إلى سائر المسلمين تستنفرهم في مقال تحت عنوان «المسلمون والفرنج قديما وفرنسا ومراكش حديثا» وبعد استعراض تاريخى طويل يعلق المقال الافتتاحى في الصحيفة الوطنية بقوله.

« تلك عظات بالغات ولكننا معشر المسلمين لم نتعظ بها الآن وعمى عنها عظماء المسلمين وكبراؤهم طمعاً في المحافظة على مراكزهم والقابهم» (74).

أما آخر جوانب الحملة وأهمها فهو الجانب الذي اتصل بمتابعة ألوان المقاومة المغربية لفرض الحماية الفرنسية وقد هلل لها الحزب الوطنى أشد التهليل.

جاء أول مقال في هذه الحملة يستعرض المقاومة المغربية لفرض الحماية ويقول « لايكفى لامتلاك الأمم امضاء الاتفاقات أو التصديق على أوامر الاستلحاق وانما يجب أن تملك القلوب وانا لايمكننا أن نفهم كيف يقدر غاصب على امتلاك قلوب مغصوبة مهما بذل في هذا السبيل من الجهد ومهما أكثر من الوسائل ومهما طال على الاغتصاب من أمد» (75).

ومنذ أواخر ماى حتى أواخر يونيه عام 1906 والدوائر الوطنية تبدى تلهفها على أخبار المقاومة المغربية للسيطرة الفرنسية وترحب بها وتنذر فرنسا بالويل والثبور وعظائم الأمور!

فتكتب «العلم» تحت عنوان «الأمة المراكشية تدافع عن إستقلالها ـ حرج مركز فرنسا في فاس» تقدر عدد الثائرين في المدينة المغربية بعشرين ألفا وتشير إلى معارك دامية « قتل فيها من الفرنسويين ما يزيد عن الستين وجرح نحو المائة».

72) السيبكل والطان
73) العلم في 1912/5/10
74) العلم في 1912/6/14
75) العلم في 1912/5/5

وتستطرد الصحيفة الوطنية بأن «سبب هذه الثورة القلوب الملأى بالحقد على الاجانب والحكومة المغربية التي ساعدتهم خصوصاً حين سمعوا أن اخوانهم الطرابلسيين قرروا أن يدافعوا عن دينهم ووطنهم وحريتهم فاستبسلوا وأخذتهم الانفة».

وتعرب دوائر الحزب الوطني عن أملها بأنه « ستعقب هذه الثورة ثورات أهم وأعظم» (76).!

مقال آخر من نفس الصحيفة تستعرض فيه ماجاء في جريدة «الحق» التى كانت تصدر في طنجة ويمتلى بتشجيع الثورة ضد الفرنسيين. (77).

أما المقال الثالث فقد كان أشد المقالات اثارة ويكفى تسجيك عنوانه لتوضيح مقدار مابه من إثارة. جاء في هذا العنوان « الاحوال في مراكش ــ الهجوم على فاس ــ رسالة مكتوبة على قصف المدافع ــ خوف القناصل ــ اعدام طلبة العلم». (78)

وتنتهى هذه الحملة بتحذير العالم الإسلامى كله مما تنويه فرنسا في المغرب وتنبه الى «قانون الظهير البربرى» قبل صدور هذا القانون بثمان عشرة سنة... تقول صحيفة الحزب الوطني في مصر..

« يرى معظم الفرنسويين أن الواجب يقضى بتعليم البربر اللغة الفرنسوية وان لايسهلوا عليهم تعليم اللغة العربية لأنهم إذا تعلموها يزداد تعصبهم ولذلك أخذ بعض الفرنسيس يتعلمون لغة البربر ليتمكنوا بسهولة من تعليمهم اللغة الفرنسوية.

« ويريد بعضهم أن يجعل للغة البربر قواعد وترتيبات خصوصية تغنيهم فيما بعد عن اللغة العربية لغة التعصب الدينى على زعمهم ..» (79).

★ ★ ★

وعند هذا الحد تتوقف الحملة الوطنية التى امتلأت بها الصحف المصرية كرد فعل لفرض الحماية الفرنسية على المغرب، بل تتوقف الصحف ذات الاتجاه الوطني

---

76) العلم في 1912/6/3

77) العلم في 1912/6/19

78) العلم في 1912/6/23

79) العلم في 1912/6/25

عن الصدور نتيجة لسياسة المصادرات والاغلاق التى اتبعتها السلطات البريطانية حيالها، في نفس الوقت يشرد زعماء الحزب الوطني حتى أن رئيسه محمد فريد قد غادر البلاد في نفس السنة (1912) ولم يعد إليها أبدا !

غير أن آخر صيحة تحذير، أطلقتها الصحف المصرية حول المغرب، وهي صيحة التحذير من سياسة فرنسا البربرية كانت عندما تحققت في قانون الظهير البربرى عام 1930 هى التى أدت إلى ظهور حركة المقاومة الحديثة وتوجه العديد من

الملاحق

ملحق رقم (1)

من اسماعيل باشا الى السلطان محمد الرابع

15 جمادي اولى 1283

ملحق رقم (2)

من اسماعيل الى السلطان محمد الرابع

15 جمادي أولى 1281

ملحق رقم (3)

من محمد الرابع الى اسماعيل باشا

18 جمادي أولى 1282

ملحق رقم «4»

من السلطان عبدالرحمن الى محمد علي باشا

27 القعدة 1260

ملحق رقم «5»

محضر الجلسة التي عقدت بين لانسدون ودلكاسيه في

7 يوليوز عام 1903 واتفق فيها على مباديء صفقة 1904

ملحق رقم (1) ★

صورة المحرر من طرف ولى النعم الى حضرة سلطان المغرب★★

أعز الله أنصار الملك المعظم السلطان الجليل المفخم ذروة هامة المجد الشامخ وغرة جبهة الشرف الباذخ محيى مأثر المعالى وحسنة الأيام والليالي وحلية العصر الحالي ومن به فخرة على الزمن الخالي عز الاسلام وكنز الأنام وزينة الأيام وخلف السلف الكرام أمير المؤمنين بالديار المغربية لازالت محفوفة بالعناية الاحدية ادام الله تعالى دولته وأمد بتأييده صولته ولازالت أعلامه منصورة بالله خافقة كقلوب عداه ولا برحت الدنيا ممتعة بدوام علاه آمين.

بعد سلام تترادف بركاته وتترى نفحاته وتتوالى على ذلك النادى الكريم غدواته وروحاته نحمد نبيكم الله الذي جعل المؤمنين بنعمته اخوانا وصيرهم لبعضهم على طاعته اعوانا ونشكره سبحانه على نعمه الوافرة ومننه الباهرة وآلائه الزاهرة ونسأله لنا ولكم دوام التوفيق لما فيه رضاه بجاه سيدنا محمد حبيبه الاعظم ومجتباه صلى الله تعالى وسلم عليه وعلى اله وصحبه وجميع المنتمين اليه هذا وقد سررت بورود مشرفكم الكريم المتضمن لزوم المطبعة لذلك الجانب الفخيم وما يحتاجه المخصوص الوارد في شأنها من التمرين والتفهيم وذلك لما فيه من الإعانة على طلب العلم الشريف وتعليمه وتسهيل السبيل في نشره بين البرايا وتعميمه وصيانة كتبه

★) دار الوثائق القومية ـ القلعة (القاهرة

معيه سنية عربي ـ قيد الأوامر الكرام الصادرة للاقاليم دفتر 1923 رقم 13 ـ مذكورين سايره ـ 15 جمادى اولى 1283

★★) السلطان محمد الرابع

الشريفة من تحريف الكاتبين وتقريبها من أيدي المطالبين والراغبين وهذا دليل ظاهر وبرهان باهر علىمزيد عنايتكم بما فيه المصلحة العامة ورعايتكم لما يعود على الناس بالفوايد التامة واهتمامكم بأمر العلم الكريم وأهله وقيامكم بما يجب من حق فضله ثم ورد مشرفكم الباهر على يد الثلاثة المعلمين من صناعة البارود وتعليمهم صنعة الزريج ورعايتهم حتى يحصلوا على الغرض المقصود وهذا أيضا من القيام بحراسة حمى الدين المبين والاهتمام بحماية حوزة الملك المتين فمتع الله ببقايكم الملك والعليا ونفع بوجودكم الدين والدنيا فأما الوارد بصدد المطبعة فأرسلناه الى البيك ناظر دار الطباعة وأوعزنا اليه بأدائته جميع ما يلزم. لهذه الصناعة والاعتناء بتمرينه على استعمال أدواتها وتوفيقه على كيفية ادارة آلاتها وسائر كيفياتها علىتنوع حالاتها وأما الواردون من أجل صنعة الزريج فأرسلناهم الى الباشا وكيل ديوان الجهادية المصرية في الحال ووصيناه بالاعتنا بتعليمهم كل ما يلزم لاكمال صناعة البارود منالأعمال والأشغال واخذها عن أهلها المتقنين وأربابها المجيدين المتفننينحتى يحصلوا على البراعةفي أشغال تلك الصناعة ثم لانزال نسأل عن حالهم والله يرقيهم لدرجات كما لهم وجميعهم في تعليمهم مجددون ومعلموهم في تعليمهم مجتهدون لقد ضاعف لى مزيد السرور عناية جنابكم العالي بهذه الامور فانا بحمد الله جمعتنا صلة الإسلام ومتابعة النبي عليه الصلاة والسلام والدين في كتاب الله أخوه ونسبة مرجوة قال سبحانه إنما المؤمنون أخوه وامرونا بالتعاون على الخير في محكم القرآن فقال جل من قائلوتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان وقد شبه المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلمبأعضاءالجسد وأجزاء البنيان فوجب أن تتحد قلوبنا وتتعاون أفكارنا وتتوافق انظارنا وتنتفع ببعضها ديارنا فمهما كان في أحد الطرفين من صنعه ترغب أو علم يطلب أو مزية تسحب كان للاخر أن يستفيد منه ويأخذ علم ذلك عنه وها هنا بعناية الله العلية وبركات وتوجهاتكم القليبة مكاتب مفيدة ومدارس عديدة لتعليم فنون كثيرة وعلوم خطيرة كعلوم الطب والنباتات والمعادن والهندسة والجغرافية وجر الاثقال والاستحكامات والفنون الحربية والأصول العسكرية النظامية الى ما يوجد من المعامل والمصانع لعملالبنادق والجلل والمدافع وما يتعلق بها من الأعمال والصنايعوما يلزم الحرب والكفاح من أنواع العدد والسلاح ثم معامل الأقمشة على تعدد انواعها ومصانع

السفن على تنوع أوضاعها والسكك الحديدية والاشارة الكهربائية الى نحو ذلك مما تضيق عنه ساحة الكتاب ويحتاج تفصيله الى حد اطقاب الاطناب حسبما رآه حامل عزيز الكتاب الوارد من على ذاك الجناب وهذه أمور يقتضيها الزمن الحال وتستدعيها مقتضيات الأموال وقد علم ان كل زمن بما يقتضيه من الأمور وقد جاء تحدث للناس أقضية كما ورد في الحديث المشهور وهذا الوقت يستدعي التفنن والتوسع في دواير التمدن وقد أمرنا خير الناصحين ان نطلب العلم ولو بالصين وفي ما أحاطت به سعة علمكم الكريم ما وردت به الاحاديث الشريفة من الحث على التعلم والتعليم فاذا توجهت رغبتكم الشريفة واتجهت مقاصدكم المنيفة لارسال أحد من ممالككم المعمورة لتعلم شيء من الأمور المذكورة فعلى الرحب والسعة والأمن والدعة وأهلا بالقادمين واخواننا في الدين لانألوهم نصحا ولانحجب عنهم نجحا ولا يرد باب القبول دونهم ولايغض النظر عنهم لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم من لم يهتم للمسلمين فليس منهم وقوله ادام الله علينا وعليكم بركات امداده خصلتان ليس فوقهما شيء من البر والإيمان بالله والنفع لعبادة والمسؤول لنا ولكم من الله الكريم المتعال دوام حسن الحال وحسن المآل بجاه رسول الرحمة ونبي الكمال.

ملحق رقم (2) ★

إلى سلطان المغرب ★★

أمر منطوقه بعد تقديم ما يجب لهذه السدة من التبجيل والتكريم ننهي أنه في اسر الاوقات لشرفنا بورود مكتوب سيادتكم فتلوناه وهمنا من حلو لفظه ومعناه

★) دار الوثائق القومية ـ القلعة (القاهرة)

معية سنية عربي 23 ج 1 ـ وثيقة رقم 9 جهات سايرة ص 41ـ15 جمادى اولى 1281 (دواوين)

★★) السلطان محمد الرابع أيضا

وحسبما اشرتم تعين شخصان من صانعي السكر بالديار المصرية احدهما لهالمام بالبضاعةالقديمة والآخر يعرف العمليات الجديدة وها هما متوجهان الى اعتاب ناديكم المبارك عند وكيل السعادة المقيم بهذه الاقطار والمأمول انه بشمولهما بالنظر الكريم يستحسن ما يبديانه من الصناعة ويستحلا ما يكررانه من البضاعة ويحصل بهما النفع العام لدى أهالي الايالة المحروسة الجميع ويؤدون ما يجب لسيادتكم شكرا لهذا الصنيع وما تشيرون به من الخدم رهين الاعلام والسلام ختام.

ملحق رقم (3) ★

من محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الى اسماعيل باشا

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا واله وصحبه وسلم

من عبدالله المتوكل على الله المفوض أمره الى الله أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ابن امير المؤمنين ابن أمير المؤمنين وهو

خاتم

محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن

أسعد الله أيامه ونصر جنوده وأعلامه الى المحب الذي رسمت محاسنه في جبين الدهر وبقيت شوامخ مفاخره على اساس المجد والفخر أمير مصر العزيز وخلاصة ذهب الرؤساء الابريز المرتدى من محاسن الشيم ماشا المعظم المبجل السيد اسماعيل باشا ابقاكم الله والسعد يخدمكم والثناء الجميل في كل موطن يتبعكم ويقدمكم وسلام عاطر النفحات أزهى اللمحات يغادى مقامكم ويراوحه ويحييه في كل حين ويصافحه ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فموجب تحرير هذا المسطور

★) دار الوثائق القومية ـ القلعة (القاهرة)

بحر برا ـ محفظة 19 وثيقة 116

بتاريخ 18 جمادى أولى 1282

لجنابكم السعيد تجديد أسباب الود التي تزيد بطول العمر أعظم تأكيد وإخلاص الدعاء بكم بالاعانة واليمن والتأييد وأعلامكم انناكلفنا وكيلنا بتلك الديار المعظمة الازهى الحاج محمد افروخ بان ييسرالى جانبنا العالى مكينةجيدة صالحة لخدمة السكر على حسب ما رسمناه له وان يوجهها لحضرتنا العالية بالله بعد الاختبار والإمعان في الاختيار فالمطلوب من سعادتكم أن تشمله اعانتكم فيا عسى أن يعرض له من أمرها وتطيلوايده في تسييرها على اكمل الوجود وأقربها،أبقاكم الله أهلا لكل جميل وجازاكم من فضله الجزيل أمين والسلام في 18 جمادى الأولى عام 1282

ملحق رقم «4» ★

من سلطان المغرب الى الجناب العالي

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد واله وصحبه وسلم من عبد الله المعتصم بالله المتوكل على الله المفوض أمره الى الله أمير المؤمنين الشريف الحسني العلوي وهو (خاتم باسم السلطان عبد الرحمن)

أيد الله جنوده ونصر أعلامه حينما توجهت وبنوده الى المقام المنيع نستفتح بخطابه أبواب العناية والتيسير ونستميح بمكاتبته بتيسير كل عسير ونستطلع به أوجه الاسعاد مشرقة القسمات ونستنشق من جنابه نوافح الوداد مسكية النسمات مقام من أحلته الرياسة درواتها وامطته السيادة صهواتها والبسته المفاخر ارديتها وعطرت بذكر الاكارم انديتها فأصبح واسطة عقد الدول وحايز ما لم يحز الاول صاحب الفضل الجلى والقدير العلى الباشا السيد محمد بن على أبقاه الله لدعايم الاسلام رافعا وعن حوزة الدين الحنيف مدافعا وسلاما تتعطر منه الأرجاء والأندية وتملأ

★) دار الوثائق القدمية ـ القلعة (القاهرة)

بحرا برا ـ محفظة 19 وثيقة 69

بتاريخ 27 القعدة 1260

نفحاته الاعلام والأردية ورحمة من الله تعم الأناء والاحيان وتتوالى ما توالى الحلوان
أما بعد حمد الله الذي وسع كل شيء رحمة وعلما واعطى من خص من خلقه حكمة
وكلمة والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذي اشرق الوجوه بنوره وتباشرت
العوالم بظهوره وعلى اله النجوم الثواقب وأصحابه أهل المفاخر والمناقب فانه بلغنا
نفوذ حكم القضاء والارادة بوفاة وكيل المغاربة الحاج محمد بن عبد السلام براده
والحاجة داعية الى من يقوم مقامه ويأخذ بيد من يرد لهم للظعن أو الاقامة فرددنا
الاختيار الى التجار الذين لهم الحاجة الى من يأخذ بأيديهم في الورود والصدور
فوقع اختيارهم على التاجر الازهى الحاج محمد بن الطيب ابن عم المذكور لما علم من
السعي المشكور والبر المشهود المشهور فوليناه الولاية وفق اختيارهم اذ نفعه ودفعه
عايد على حجاجهم وتجارهم وهم أعلم بمن يقوم بأمرهم على حسن المراد ويعامل
الله في الأخذ بيد الضعفاء والفقراء في الأصدار والايراد والاعتماد في ذلك على
عنايتكم المألوفة ورعايتكم التي هي الى العدل والاحسان مصروفة فانه بملاحظتكم
يبلغ في ذاك الامل وبعنايتكم يرد الاهابة في القول والعمل فالمطلوب من
سيادتكم العلية وسعادتكم الجلية ان تولوه من عنايتكم قسطا وتمنحوه برعايتكم
معونة وبسطا وتكلفوا من يأخذ بيده فيما يعرض من الأمور وتسألوا عن هذا كما هو
المعلوم من سعيكم المشكور ابقاكم الله واعلام نصركم خافقة واسواق ثنائكم عامرة
نافقة والسلام في 27 ذي القعدة الحرام عام 1260.

ملحق رقم «5»

محضر جلسة لانسدون ودلكاسيه (7 يوليوز 1903) واتفق فيها على مبادئ
صفقة 1904 ـ نقلا عن وثائق الخارجية البريطانية من ملف رقم 17 /363 . F.O

No. 2.

The Marquess of Lansdowne to Sir E. Monson.

(No. 336. Very Confidential.)

Sir, *Foreign Office, July 7, 1903.*

THE French Ambassador mentioned to me some days before the President's arrival that it would be agreeable to M. Delcassé to meet me during his stay in London, and to discuss with me some of the points with regard to which his Excellency and I had at various times had conversations.

M. Delcassé called upon me this morning, and we exchanged ideas at some length in regard to these questions.

After expressing the pleasure which it gave me to have this opportunity of learning his views at first hand, I said that, as he was aware, I had on several occasions discussed with M. Cambon the position of our two countries in Newfoundland, Morocco, Siam, the New Hebrides, and other parts of the world. Those discussions had, up to the present, not led to any definite results. They had, however, I thought, been useful in clearing the ground, and they certainly had led me to the conclusion that the points at issue between the two Governments were few in number, and by no means incapable of adjustment.

M. Delcassé expressed his entire agreement, and added that this view now prevailed in the French Chamber, which was inclined to take a reasonable, not to say friendly, line in regard to all such questions. As for the French Government, they had ceased to desire a wide extension of their Colonial possessions, and were intent, not upon adding to them, but upon consolidating them, and removing all sources of future trouble within them and upon their borders.

I replied that His Majesty's Government were influenced by very similar sentiments, and that I certainly thought the opportunity was in every way propitious for a frank exchange of opinions between the two Governments.

Speaking of Newfoundland, which I had mentioned first, M. Delcassé said that the question of the supply of bait, so indispensable to the French fishermen, was that which had most importance for France; the considerations which had to be taken into account by the French Government were, however, largely of a sentimental character. There was a feeling that the fish, which had of late deserted the French Shore, might some day return there, and any surrender of French rights would be resented unless it could be shown that sufficient compensation had been secured.

I replied that we also had to take into account sentimental considerations, and particularly those which had weight with our own Colonies, but that in the case of Newfoundland, it was by no means only a case of sentiment. I had had opportunities of discussing the Newfoundland question with the Colonial Office and also with Representatives of the Colonial Government, and I had found that the main obstacle to a settlement, so far as the Colonial Government was concerned, was the existence of the French system of bounties, which rendered it possible for the French fishermen, and particularly those belonging to St. Pierre and Miquelon, to compete with those of Newfoundland on terms absolutely ruinous to the latter. The Newfoundland people, on their side, were masters of the situation so far as the supply of bait was concerned, and naturally felt that this was a trump card which they were entitled to use to the best effect. I had discussed with M. Cambon the possibility of a settlement on the basis of the withdrawal of the French from the French Shore, with compensation to the persons engaged in the fishing industry, while the French fishermen would receive facilities for obtaining a free supply of bait on the Newfoundland coast. M. Cambon had suggested that France was entitled to territorial compensation as well as to compensation in money, and although I was surprised at this demand, I had not altogether excluded the idea. I had, however, told M. Cambon distinctly that there could be no question of giving up the Gambia for which his Excellency had asked by way of territorial compensation. There might, however, be other quarters in which a concession might perhaps be made to France, but it seemed to me that it was for the French Government rather than for us to make suggestions of this kind.

M. Delcassé observed that the bounties were a matter of domestic concern to the French Government, and that it would be difficult for them to give way on this point.

I said that I admitted the difficulty, but that I thought it should not be beyond the powers of the French Government to adjust the incidence of the bounties in such a manner as to prevent their giving so great an advantage to the local fishermen. I felt

the French Government to remain well with Spain. As for the "open door," he undertook that there should be no difficulty whatever in regard to that.

The conversation then turned to Siam, and M. Delcassé observed that the position of France and Great Britain had virtually been determined by the Agreement of 1896, which involved the recognition of the claims of France in the valley of the Mekong, and of Great Britain in the Malay Peninsula.

I reminded M. Delcassé that Lord Salisbury had expressly guarded himself against this interpretation of the Agreement.

His Excellency said, with a laugh, that he was familiar with the passage to which I referred. There was, however, no resisting the conclusion that the two Powers, when they guaranteed the centre of Siam, had by implication admitted that they were free to deal with the external portions of the kingdom. We had, he thought, shown by our conduct in Kelantan that we considered ourselves at liberty to do what we pleased in the Peninsula.

I took the opportunity of contradicting the statement that Kelantan had been occupied by a British force; as for the valley of the Mekong, we had Treaty rights which the Franco-Siamese draft Treaty seemed to me to ignore.

M. Delcassé said that there was no desire to encroach upon our right to most-favoured-nation treatment. All that the French Government had asked for was that, if railways were to be constructed in those regions, and the Siamese could not construct them themselves, France, as the adjoining Power, should have a preference.

I said that I had no reason to suppose that British capital was likely to be forthcoming for railway construction in the Mekong Valley, and that we had no desire to obstruct French railway enterprise in that part of the world. But most-favoured-nation treatment in respect of commerce was a different thing from most-favoured-nation treatment in respect of railway construction, and, so far as commerce was concerned, we should certainly expect the door to be kept open.

M. Delcassé again expressed his entire agreement.

We then spoke for a few moments of French and British interests in the New Hebrides, and I reminded M. Delcassé of the proposal for the establishment of a Commission, &c., made on the 29th October, 1901, by His Majesty's Government, which proposal had led to the French counter-proposal of the 9th April, 1902, to which we had taken exception. Since then we had not been able to advance the matter.

I asked M. Delcassé whether he would tell me what his ideas were as to the best way out of the difficulty. M. Étienne had, I observed, proposed a partition of the islands. I feared, however, that it would not be easy to give effect to this proposal, which would probably be objected to by the Australian Colonies.

M. Delcassé replied that he would gladly consider favourably any solution of the difficulty which His Majesty's Government might desire to recommend. If we could but come to terms about Morocco, the New Hebrides question could, he felt certain, be settled with the utmost ease.

With regard to Sokoto, M. Delcassé said that while he fully admitted that, according to the letter of the Convention of the 14th June, 1898, we were entitled to the territory comprised within the arc of the 100-mile circle of which Sokoto was the centre, the French Government were, in his opinion, equitably entitled to a revision of the arrangements, which had been arrived at in ignorance of the local conditions, and which compelled French convoys, when proceeding from the French possessions on the Niger to those in the neighbourhood of Lake Tchad, to follow a circuitous and waterless route.

I said that the country within the arc was now absolutely ours, and that if we agreed to a revision of the frontier or to the concession of a way-leave in this region, we should certainly expect in return a substantial concession somewhere else. I added, however, that I was personally in favour of a comprehensive settlement between the two Governments, and that possibly a concession at this point might form an element in a general settlement.

In the event of such a settlement being arrived at, we should also have to take stock of the situation in Egypt. No one, I supposed, for a moment believed that we were likely to retire from that country, and I learned with pleasure from Lord Cromer that the French Representatives in Egypt were on excellent terms with ours; but I was under the impression that it might still be possible for France, if she chose, to give us trouble in matters of detail, and we should certainly have to consider this point if a general settlement were to be attempted.

M. Delcassé replied that he was entirely in favour of a comprehensive settlement, and that the Egyptian question formed part of the larger African question which

[728]

sure that, unless something were done in regard to the bounties, it would be impossible for us to move the Colonial Government.

M. Delcassé here "changed the venue" by observing that the possibility of coming to an understanding as to the Newfoundland question really depended upon our attitude with regard to French interests in Morocco. If we could come to terms as to that country, all other difficulties would disappear, or become comparatively easy to deal with. He begged me to understand that the French Government had no desire to get rid of the Sultan or to annex his country. They wished, on the contrary, to maintain the Sultan's rule. Such a system was much more convenient than French administration, pure and simple. He had often wished that they had still a Bey at Algiers. Nor, again, had the French Government any desire to force the pace (" brusquer les choses ").

They had shown this by their moderation in dealing with the tribes on the Algerian frontier. The conduct of these had, over and over again, been such as to afford a sufficient excuse for advancing the French frontier had the French Government desired to do so; but he had given his word that this was not to be done, and the pledge had been scrupulously respected. The Sultan had even gone the length of proposing to them that they should occupy Ujda, and that they should assist His Highness at other points; but these overtures had been persistently declined. It was, however, obvious that the authority of the Sultan was waning rapidly, and that it was insufficient to maintain order in the country, and the French Government could not regard with indifference the prevalence of chronic disorder in Morocco, or admit that it was the business of any other Power but France to undertake the task of regenerating the country. In these circumstances, what they desired was a reasonable assurance that their policy would not be obstructed by Great Britain.

I said that we had shown by our conduct during the last two years that we had no desire to call in question the right of the French Government to take measures for the pacification of the Franco-Moorish border, and we had readily accepted the assurances of the French Government that the operations in which they had lately been engaged were to be of a strictly punitive character, nor did I think it likely that this country would ever take a leading part in the pacification of the interior of Morocco, should there be a collapse of the Sultan's authority, followed by a condition of confusion and anarchy.

I added that I was glad to have this opportunity of correcting what I could not help believing to be a mistaken impression which the French Government had formed as to supposed attempts on our part to interfere in the internal affairs of Morocco. I was aware from what M. Cambon said that some suspicion had been engendered in the minds of the French Government by the Sultan's selection of Sir Harry Maclean as his Military Adviser and by the employment of a certain number of Englishmen in his service. The Sultan, no doubt alarmed by French activity on the Algerian frontier, had, not unnaturally, turned to us for assistance, and had frequently sought our advice. That which we had given to him had, I believed, been of the soundest description, and there was nothing in it to which the French Government could take exception. We had urged His Highness to keep his prisons in better order, to give reasonable facilities for trade, and to avoid extravagance, and when he had been obliged to borrow money we had recommended him to apply not to any one Power, but to the three Powers most interested in keeping him on his legs.

On the other hand, we could not be indifferent to the fate of Morocco. We were, in the first place, largely interested in its Mediterranean seaboard, and particularly in Tangier and the neighbouring coast. Besides this, I was bound to tell him that it would be impossible for us to make any arrangements affecting the balance of power in Morocco without first ascertaining how far such an arrangement would provide fairly for the interests of and be acceptable to the Spanish Government. We were on good terms with them, and had been freely consulted by them. Spain, on account of her proximity, and owing to the fact that she had possessions in several parts of Morocco, was, I said, naturally susceptible in regard to the Moorish question. In the third place, it would be impossible for us to agree to any settlement which might have an injurious effect on British commerce or British enterprise in that part of Africa, and it would, therefore, be necessary for us to show our people that we should, in any circumstances, retain equality of opportunity in those regions.

M. Delcassé said, unhesitatingly, that he felt sure of being able to satisfy us completely on these three points; he recognized that it would be impossible for us to allow another Power to establish itself at Tangier, and the neutralization of that part of the seaboard could be provided for. With regard to Spain, it would have to be a part of the bargain that a satisfactory compromise was arranged with that country, which the French Government did not desire to ignore. It was, indeed, the policy of

could, he felt sure, be disposed of satisfactorily if only we could come to an agreement as to the position of France and Morocco.

The only other subject mentioned during the conversation which I have recorded was that of the treatment of British firms in the French Congo. I endeavoured to impress upon M. Delcassé the importance of an amicable settlement of the cases of Messrs. Holt and others, and I dwelt upon the influence of the commercial element in the British House of Commons and the mischief which was created by the constant complaints which we had received as to the treatment of these firms.

M. Delcassé replied that whenever these gentlemen had come to Paris they had apparently been well content with the explanations which they had received. I said that they had, no doubt, been treated with great courtesy by the French officials, and that what they complained of was rather the arbitrary action of the French local Tribunals, which appeared to me to have dealt them very hard measure.

M. Delcassé answered, good humouredly, that it was extremely difficult to moderate the ardour of the Colonial Courts, and that we had probably experienced similar difficulties in dealing with ours. He promised me, however, to bear in mind what I had said.

Throughout our conversation M. Delcassé spoke apparently with the utmost sincerity, and he did not attempt to disguise from me the immense importance which the French Government attached to obtaining from us a recognition of the predominance which they desired to obtain in Morocco. The impression which he evidently desired to leave upon my mind was that, in order to secure our acquiescence, they would, in regard to Morocco itself, accept the conditions upon which we should probably desire to insist, whilst they would at other points go very far indeed to comply with our requirements.

I am, &c.
(Signed) LANSDOWNE.

No. 3.

The Earl of Cromer to the Marquess of Lansdowne.—(Received July 27.)

(Private.)

Dear Lord Lansdowne, *Cairo, July* 17, 1903.

I HOPE to see you very soon, but I know how difficult it is, amidst the press of work in London, to give much time to discussion. I think, therefore, I had perhaps better put the following remarks on paper.

I have read the despatch in which you state what passed at your recent interview with M. Delcassé. His language appears to me to be eminently satisfactory. For my own part, I may say that I did not anticipate that he would open out anything like so hopeful a prospect of settling our various outstanding differences with France. I most earnestly hope that advantage will be taken of the opportunity which is now apparently offered for settling those differences.

What it really amounts to is this: that everything depends on our attitude as regards Morocco. M. Delcassé, you say, "did not attempt to disguise from me the immense importance which the French Government attached to obtaining from us a recognition of the predominance which they desired to obtain in Morocco." I rather anticipated something of this sort, but I certainly did not expect M. Delcassé to go so far as to say that "he was entirely in favour of a comprehensive settlement, and that the Egyptian formed part of the larger African question, which could, he felt sure, be disposed of satisfactorily if only we could come to an agreement as to the position of France and Morocco." I cannot help thinking that, in making these remarks, M. Delcassé went rather further than he intended, and that it may subsequently be found that, under pressure exerted by the permanent officials at the Quai d'Orsay, and others, he will be reluctant to face the French Chamber with any Egyptian proposals which would be thoroughly satisfactory to us. However that may be, we are for the moment perfectly justified in taking him at his word.

It is to be observed that there are six outstanding questions, viz.:—(1) Newfoundland; (2) Morocco; (3) Siam; (4) the New Hebrides; (5) Sokoto; and (6) Egypt. These six questions may, it would appear, be grouped thus: in Morocco, Siam, and Sokoto, the French want various things which we have it in our power to give. In Newfoundland and Egypt the situation is reversed. In these latter cases we depend to a greater extent on the goodwill of France.

The New Hebrides question does not, so far as the information contained in this

تصريح فرنسي انجيليزي متعلق بمصر والمغرب وموقع في لندن بتاريخ 8 ابريل 1904

الفصل الاول

تعلن حكومة صاحب الجلالة البريطانية انها لاتنوي تغيير الحالة السياسية في مصر وتعلن حكومة الجمهورية الفرنسية من جهتها انها لن تعوق عمل انجلترا في هذه البلاد بالمطالبة بتحديد مهلة للاحتلال البريطاني او باية صورة اخرى ، وانها توافق على مشروع المرسوم الخديوي بالفصال الحالي والمشتمل على الضمانات التي اعتبرت ضرورية لصيانة مصالح حملة الدين المصري، لكن على شرط انه بعد وضعه موضع التنفيذ لايمكن ادخال اي تعديل عليه بدون موافقة الدول الموقعة على اتفاقية لندن لسنة 1905.

وتم الاتفاق على ان الادارة العامة للاثار القديمة في مصر ستواصل اناطتها بعهدة عالم فرنسي في مصر تتمتع بنفس الحرية التي كانت لها في الماضي.

الفصل الثاني

تعلن حكومة الجمهورية الفرنسية انها لاتنوي تغيير الحالةالسياسية في المغرب.وتعترفحكومة صاحب الجلالة البريطانية من جهتها بانه يحق لفرنسا باعتبارها الدولة المجاورة للمغرب في رقعة واسعة من الارض – ان تسهر على الطمأنينة في هذا البلاد وان تقدم لها مساعدتها فيكل ما يتعلق بالشؤون الادارية والاقتصادية والمالية والعسكرية التي هي في حاجة اليها.

وتعلن انها لن تعرقل عمل فرنسا في هذا الشأن مع تحفظ، هو ان لايمس هذا العمل الحقوق التي تتمتع بها بريطانيا العظمى في المغرب بموجب المعاهدات والاتفاقيات والاعراف، بما في ذلك حق الملاحة في المرافئ المغربية، وهو الحق الذي تستفيد منه البواخر الانجليزية منذ سنة 1901.

الفصل الثالث

وستحترم حكومة صاحب الجلالة البريطانية، من جهتها الحق الذي تتمتع به فرنسا في مصر، بموجب المعاهدات والاتفاقات والاعراف ، بما في ذلك حق الملاحة المخول للبوارج الفرنسية بين الموانئ المصرية.

الفصل الرابع

وتعلن الحكومتان المتعلقتان سويا بمبدأ الحرية التجارية، سواء في مصر او في المغرب بأنهما لن تستعملا اي حيف، لدى وضعهما للرسوم الجمركية أو اية ضرائب اخرى، ولدى وضعهما لتسعيرة النقل بواسطة السكك الحديدية.

وستتمتع تجارة كل من الدولتين مع المغرب ومع مصر بنفس المعاملة فيما يختص بالمرور عبر الممتلكات الفرنسية والبريطانية في افريقيا وسيبرم اتفاق بين الحكومتين يضبط شروط هذا المرور ويحدد نقط التوغل .

وهذا الالتزام المتبادل صالح لمدة ثلاثين سنة ، واذا لم يقع فسخ صريح قبل مدة سنة على الاقل، فان الفترة المذكورة ستتجدد كل خمس سنوات .

وغير ان حكومة الجمهورية الفرنسية بالمغرب ، وحكومة صاحب الجلالة البريطانية بمصر تحتفظان لنفسهما بالسهر على ان تكون الامتيازات المتعلقة بالطرق والسكك الحديدية والموانئ تعطى بشروط تظل فيها سلطة الدولة كاملة على هاته المشاريع الكبرى ذات المصلحة العامة.

الفصل الخامس

تعلن حكومة صاحب الجلالة البريطانية انها ستستعمل نفوذها حتى لايكون الموظفون الفرنسيون العاملون الان في مصر في وضع اقل فائدة من الوضع الذي يوجد فيه الموظفون الانجليز العاملون في مصر.

ولن تعارض حكومة الجمهورية الفرنسية من جهتها في ان يعامل بمعاملة مماثلة الموظفون البريطانيون المشتغلون حاليا في المغرب.

الفصل السادس

لضمان حرية المرور من قناة السويس ، تعلن حكومة صاحب الجلالة البرطانية موافقتها على ما تضمنته المعاهدة المبرمة في 29 اكتوبر 1888 وعلى وضعها موضع التنفيذ ، وبما ان حرية المرور بالقناة شيء مضمون ، فان تطبيق الجملة الاخيرة من البند الثاني من الفصل الثامن من هذه المعاهدة سيظل موقوفا.

الفصل السابع

لضمان حرية المرور من بوغاز جبل طارق، تتفق الحكومتان على عدم السماح باقامة تحصينات او اية منشآت استراتيجية في القسم من الشاطيء المغربي الواقع بين مليلية والمرتفعات التي تهمين على الضفة اليمنى لسبو مع اخراج الغاية

غير ان هذا الحكم لاينطبق على النقط التي تحتلها الان اسبانيا في الضفة المغربية للبحر الابيض المتوسط

الفصل الثامن

ان الحكومتين المشبعتين بعواطف المودة الخالصة ازاء اسبانيا تأخذان بعين الاعتبار المصالح التي لهذه من جراء موقعها الجغرافي وممتلكاتها الواقعة على الشاطئ المغربي للبحر الابيض المتوسط والتي ستتشاور بشأنها الحكومة الفرنسية مع الحكومة الاسبانية.

وستبلغ حكومة صاحب الجلالة البريطانية الاتفاق الذي يمكن ان تتوصل اليه في هذا الصدد فرنسا واسبانيا.

الفصل التاسع

تتفق الحكومتان على ان تتبادلا مساندة ديبلوماسية من أجل تطبيق بنود التصريح الحالي المتعلق بمصر والمغرب .

فصول سرية اضافية
اضيفت الى التصريح الفرنسي الانجليزي
المؤرخ 8 ابريل 1904

الفصل الاول

في حالة ما اذا وجدت احدى الحكومتين نفسها مضطرة بحكم الظروف القاهرة لتعديل سياستها اتجاه مصر والمغرب، فان الالتزامات التي التزمت بها كل منهما للاخرى في الفصول 4 و 6 و 7 من التصريح الصادر هذا اليوم لايقع المس بها.

الفصل الثاني

لاتنوي حكومة صاحب الجلالة البريطانية ان تقترح الان على الدول ادخال تعديل ما على الامتيازات وعلى التنظيم القضائي المطبق في مصر.

وفي حالة ما اذا وجدت نفسها منساقة الى التفكير في ضرورة ادخال اصلاحات في مصر ترمي لجعل التشريع المصري مماثلا لتشريع الاقطار المتمدنة الاخرى ، فان حكومة الجمهورية الفرنسية لن تمانع في بحث هذه الاقتراحات، لكن بشرط ان تقبل حكومة صاحب الجلالة البريطانية ان تبحث اي اقتراح قد تعرضه عليها حكومة الجمهورية الفرنسية بشأن ادخال اصلاحات الى المغرب من النوع ذاته.

الفصل الثالث

تتفق الحكومتان على ان قسما من التراب المغربي مجاورا لمليلية وسبتة والممتلكات الاسبانية الاخرى يجب ـ بمجرد ما يتوقف السلطان عن ممارسة سلطاته هناك ـ ان يدخل في نطاق النفوذ الاسباني، وعلى ان ادارة الشاطئ من مليلية لغاية مرتفعات الضفة اليمنى لنهر سبو باخراج الغاية يجب ان يوكل امرها الى اسبانيا.

غير انه يجب على اسبانيا مسبقا ان توافق موافقة صريحة على مقتضيات الفصلين 4 و 7 من تصريح هذا اليوم وان تتعهد بتطبيقها.

وعلاوة على ذلك، عليها ان تتعهد بعدم تسليم الكل او البعض من الاقاليم الموضوعة تحت سلطتها او الواقعة في ذائرة نفوذها

الفصل الرابع

اذا طلب من اسبانيا ان توافق على احكام الفصل السابق ورأت من واجبها ان تمسك،فان الفصل المبرم بين فرنسا وبريطانيا العظمى كما هـو ناتج عن تصريح هذا اليوم يبقى مع ذلك قابلا للتطبيق في الحين.

الفصل الخامس

في حالة ما اذا لم يمكن الحصول على موافقة الدول الاخرى على مشروع المرسوم السالف الذكر في الفصل الاول من تصريح هذا اليوم فان حكومة الجمهورية الفرنسية لن تعارض في تسديد الديون المضمونة والموحدة لاصحاب الاسبقية بقيمتها الاسمية وابتداء من تاريخ 15 يوليوز 1910

وحرر في لندن في نسختين ، في 18 ابريل 1904

جول كامبون   لانسدون

ثبت المصادر

اولا : وثائق غير منشورة

ثانيا : وثائق منشورة

ثالثا : دوريات

رابعا : مصادر

خامسا : مراجع : عربية / افرنجية

سادسا : مقالات

ثبت المصادر

أولا: وثائق غير منشورة

ـ دار الوثائق القومية ـ القلعة (القاهرة):

بحر برا ـ محفظة 19 وثيقة 69، وثيقة 116

معية سنية عربي ـ دفتر 23 جا وثيقة رقم 9 ـ جهات سايرة، دفتر 1923، وثيقة رقم 13 ـ مدكورين سايرة

Public Ricord office. (London)

أوراق وزارة الخارجية

F/O 363/17
Correspondance Relating to the Anglo-French Agreement, Signed at London, April 8-1908

94 وثيقة

ثانيا: وثائق منشورة

Sources Inedites de l'Histoire du Maroc (S.I.H.M.)
II série, Espagne III
Chantal de la Veronne

— Documents Diplomatiques Français, 1871-1914
Ministère des Affaires Etrangères- Commission de publication des documents relatifs aux origines de la guerre de 1914- 2e série- Tome I à 14
Paris 1929

ثالثا: دوريات:

ـ صحيفة المؤيد ـ صاحبها ورئيس تحريرها الشيخ على يوسف، القاهرة عام 1904 وعام 1912

ـ صحيفة اللواء ـ صاحبها ورئيس تحريرها ، مصطفى كامل، القاهرة عام 1904
ـ صحيفة العلم ـ الناطقة بلسان الحزب الوطني المصرى، القاهرة عام 1912
ـ مجلة المنار ـ صاحبها ورئيس تحريرها الشيخ رشيد رضا، القاهرة عام 1906

رابعاً: المصادر

ـ ابن ابراهيم، عباس المراكشى
الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الإعلام، 5 أجزاء مطبوعة، فاس 1936
ـ ابن زيدان، عبد الرحمان
اتحاف اعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، 5 أجزاء الرباط 1929 ـ 1933
ـ ابن عسكر، الحسنى الشفشاونى
دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ، القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، الرباط 1976
ـ البلوى، خالد بن عيسى الاندلسى
تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح، فاس 1976
ـ التامكروني،على بن محمد الدرعي : النفحة المسكية في السفارة التركية باريس (غير مؤرخ)
ـ الجبرتى، عبد الرحمن
عجائب الآثار في التراجم والأخبار
طبعة دار الفارس ببيروت (3 مجلدات) غير مؤرخة
ـ الزيانى ، أبو القاسم
الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا
حققه وعلق عليه: عبد الكريم الفيلالى، المحمدية 1967
ـ الكتاني ، محمد بن جعفر
سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس بمن اقبر، من العلماء والصلحاء بفاس
(3 أجزاء) طبع حجر، فاس 1906
ـ الكتاني ، عبد الله
فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعاجم، والمشيخات والمسلسلات، فاس 1927

ـ المقرى، أحمد
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب
(8 أجزاء) تحقيق د.إحسان عباس ،بيروت 1968
ـ الفشتالي، عبد العزيز
مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا
دراسة وتحقيق: د. عبد الكريم كريم، الرباط 1972

ـ العياشى، أبو سالم
الرحلة العياشية ـ ماء الموائد
(جزءان) ـ طبع حجر مصور بالاوفست، وضع فهارسها محمد حجي، الرباط 1977
ـ القادرى، محمد بن الطيب
نشر المثاني، تحقيق محمد حجي ـ أحمد توفيق، الرباط 1978
ـ الوفراني، محمد الصغير المراكشي
نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى، طبعة هوداس 1888، اعادة نشر بالرباط (غير مؤرخ)
صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادى عشر ، فاس طبع حجر 1891

Léon l'Africain Description de l'Afrique
Epaulard 1956

خامساً: المراجع

1) العربية

ـ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، 9 أجزاء، الدار البيضاء 1956
ـ أحمد أمين
زعماء الإصلاح في العصر الحديث، القاهرة 1959
ـ أحمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور)
علاقات مصر بتركيا على العهد الخديو اسماعيل ، 1863 ـ 1819 القاهرة

- ب.ج. روجرز
تاريخ العلاقات الانجليزية - المغربية حتى عام 1900، ترجمة د. يونان لبيب رزق، الدار البيضاء 1981
- جرانت، تمبرلى
تاريخ أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين، ترجمةبهاءفهمي - مراجعة د. أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة
- ريفلين، هيلين
الاقتصاد والإدارة في مصر في القرن التاسع عشر ، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، مصطفى الحسينى ، القاهرة 1968
- كارل بروكلمان
تاريخ الشعوب الإسلامية
ترجمه: نبيه أمين فارس - منير البعلبكى ، بيروت 1974
- محمد الأخضر (دكتور)
الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية
1075 - 1311 (1664 - 1894) الدار البيضاء 1977
- محمد حجى (دكتور)
الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين
جزءان، الرباط 1978
- محمد خير فارس
المسألة المغربية 1900 - 1912، القاهرة 1961
- محمد داوود،
تاريخ تطوان، 8 مجلدات، تطوان
- محمد المنونى
- ركب الحج المغربي ، تطوان 1953
- مظاهر يقظة المغرب الحديث، الجزء الأول، الرباط 1973

ـ محمد عبد الغنى حسن
المقرى ـ صاحب نفح الطيب
إعلام العرب رقم 60 القاهرة ـ غير مؤرخ
ـ محمد فؤاد شكرى (دكتور)
مصر في مطلع القرن التاسع عشر 1801 ـ 1811
3 أجزاء القاهرة 1958
ـ مؤلف مجهول:
تاريخ الدولة السعدية التاكمادرنية
نشر كولان، الرباط 1934
ـ عبد الحميد يونس، عثمان توفيق
الأزهر ، القاهرة 1946
ـ عبد الرحمن الرافعى
ـ تاريخ الحركة القومية وتطور نظم الحكم في مصر
ـ عصر محمد على ، القاهرة 1947
ـ عصر اسماعيل (جزءان) ، القاهرة 1948
ـ عبد الرحيم عبد الرحمن (دكتور)
الريف المصرى في القرن الثامن عشر، القاهرة 1974
ـ عبد الله كنون،
رسائل سعدية، تطوان 1954
ـ عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور)
ـ صور من دور الأزهر في مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر في أواخر القرن الثامن عشر، القاهرة 1971
ـ الدولة العثمانية ـ دولة اسلامية مفترى عليها، (جزءان) القاهرة 1980.
ـ عبد الهادى التازى (دكتور)
جامع القرويين ـ المسجد والجامعة بمدينة فاس ، (3 أجزاء) بيروت 1973

ـ عبد الوهاب بن منصور
مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب من نشأتها إلى مؤتمر مدريد 1880، الرباط 1977
ـ علال الفاسى
الحركة الاستقلالية في المغرب ، تطوان 1948
ـ على إبراهيم عبده (دكتور)
السياسة الدولية في أعالى النيل ، القاهرة 1958
ـ فؤاد محمد الماوي (دكتور)
العلاقات الاقتصادية والمالية بين مصر والحجاز من الفتح العثمانى حتى الاحتلال الفرنسى 1517 ـ 1798 الكويت 1980
ـ هاملتون جب ، هارولد بوون:
المجتمع الاسلامي والغرب
ترجمة د. احمد عبد الرحيم مصطفى
مراجعة د. أحمد عزت عبد الكريم
القاهرة 1971
يونان لبيب رزق (دكتور)
ـ الحياة الحزبية في مصر في عهد الاحتلال البريطاني
1882 ـ 1914 القاهرة 1970
تاريخ الوزارات المصرية 1878 ـ 1953، القاهرة 1975
ـ السودان في عهد الحكم الثنائي الأول
1899 ـ 1924، القاهرة 1976

2) الافرنجيه

- Brignon J. A. Amine, B. Boutaleb, G. Martinet, B. Rosemberger, M. Terrasse
Histoire du Maroc
Hatier, Casablanca 1968
– Gromer, Earl of.

Modern Egypt (2 volums)
London 1908
— Dodwell, Heny
The founder of Medern Egypt
— P. Guillen
L'Allemagne et le Maroc de 1870 à 1905
P.U.F. Paris 1967
— Jean Hess,
La Question du Maroc
Paris 1903
— Levi - Provençal E.
Les Historiens des Chorfas
Edition. Emil Larose. Paris 1922

سادساً: بحوث:

ـ أحمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور)
عندما هب العرب لصد الفرنسيين عن مصر ، مجلة العربي (الكويت) العدد 250 سبتمبر 1979

ـ محمد المنونى
ـ علاقات المغرب بالمشرق في العصر المرينى الأول
دعوة الحق (الرباط)، العدد الخامس ـ مارس 1965
ـ الصلات الثقافية بين المغرب وتونس الحفصية، المناهل (الرباط)، العدد 17
ـ عبد الرحيم عبد الرحمن (دكتور)
ـ دور المغاربة في تاريخ مصر في العصر الحديث
القسم الأول: العصر العثماني، المجلة التاريخية المغربية (تونس)، عدد 10 ـ 11 يناير 1978
ـ دور المغاربة في تاريخ مصر في العصر الحديث
القسم الثاني: القرن التاسع عشر، المجلة التاريخية المغربية (تونس)، عدد 12 يونيو 1978

ـ عبد الهادى التازى (دكتور)
رسالة المنصور الذهبي لأحد أقطاب الشرق، دعوة الحق (الرباط)، العدد السادس والسابع، ماي 1967
ـ شوقى عطالله الجمل (دكتور)
الحسن بن محمد الوزان وانتاجه الفكرى ، والمؤثرات التي تأثر بها، المناهل (الرباط) عدد 2 مارس 1975

فهرست عام

الاماكن ، الاعلام

الاماكن

أ

ب

ت

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

العادلية = 44
عمرو (جامع) = 79
العراق = 102 ـ 103 ـ 105
العالم الجديد = 130
العقادين (حي) 162
العماد = 224

غ

غزة = 20 ـ 111
الغورية (حي) = 142 ـ 146
الغوري (جامع) 153

ف

فرنسا = 7 ـ 16 ـ 18 ـ 21 ـ 22 ـ 33 ـ 39 ـ 55 ـ 57 ـ 58 ـ 124 ـ 136 ـ 180 ـ 182 ـ 183 ـ 184 ـ 185 ـ 186 ـ 187 ـ 188 ـ 189 ـ 190 ـ 191 ـ 193 ـ 195 ـ 196 ـ 197 ـ 198 ـ 199 ـ 210 ـ 225 ـ 226 ـ 227 ـ 228 ـ 229 ـ 230 ـ 232 ـ 233 ـ 248 ـ 249 ـ 250 ـ 251.
فاس = 11 ـ 13 ـ 16 ـ 17 ـ 29 ـ 31 ـ 34 ـ 36 ـ 39 ـ 42 ـ 56 ـ 107 ـ 108 ـ 119 ـ ـ 120 ـ 140 ـ 170 ـ 171 ـ 232 ـ 237 ـ
فاس الجديد = 15 .

ك

الكعبة = 42 ـ 48
كي دور ساي = 187 ـ 193
كردستان = 216

ل

لندن = 23 ـ 175 ـ 180 ـ 183 ـ 184 ـ 185 ـ 188 ـ 191 ـ 192 ـ 193 ـ 199 ـ 247 ـ 251

لبنان (جبل) 103

ليبيا = 156 ـ 229

م

مصر : 5 ـ 7 ـ 11 ـ 12 ـ 13 ـ 15 ـ 16 ـ 18 ـ 19 ـ 20 ـ 22 ـ 23 ـ 24 ـ 26 ـ 29 ـ 31 ـ 32 ـ 33 ـ 34 ـ 36 ـ 37 ـ 38 ـ 39 ـ 40 ـ 41 ـ 42 ـ 43 ـ 45 ـ 46 ـ 47 ـ 48 ـ 49 ـ 50 ـ 53 ـ 55 ـ 56 ـ 57 ـ 59 ـ 60 ـ 62 ـ 63 ـ 65 ـ 66 ـ 67 ـ 68 ـ 69 ـ 70 ـ 71 ـ 72 ـ 73 ـ 74 ـ 75 ـ 83 ـ 88 ـ 89 ـ 90 ـ 92 ـ 93 ـ 94 ـ 95 ـ 99 ـ 101 ـ 102 ـ 103 ـ 105-106 ـ 107 ـ 108 ـ 109 ـ 110 ـ 111 ـ 112 ـ 113 ـ 114 ـ 115 ـ 116 ـ 117 ـ 118 ـ 119 ـ 120 ـ 121 ـ 122 ـ 123 ـ 124 ـ 125 ـ 126 ـ 127 ـ 128 ـ 129 ـ 130 ـ 131 ـ 133 ـ 134 ـ 135 ـ 136 ـ 137 ـ 138 ـ 139 ـ 140 ـ 141 ـ 142 ـ 143 ـ 144 ـ 145 ـ 151 ـ 152 ـ 154 ـ 156 ـ 159 ـ 161 ـ 162 ـ 164 ـ 165 ـ 166 ـ 167 ـ 168 ـ 170 ـ 171 ـ 173 ـ 175 ـ 176 ـ 177 ـ 178 ـ 179 ـ 181 ـ 185 ـ 186 ـ 187 ـ 188 ـ 189 ـ 190 ـ 191 ـ 193 ـ 194 ـ 195 ـ 196 ـ 197 ـ 198 ـ 199 ـ 203 ـ 204 ـ 205 ـ 206 ـ 207 ـ 209 ـ 210 ـ 211 ـ 212 ـ 213 ـ 214 ـ 215 ـ 218 ـ 220 ـ 222 ـ 223 ـ 224 ـ 225 ـ 226 ـ 229 ـ 233 ـ 238 ـ 240 ـ 247 ـ 248 ـ 250 .

المنشية (قرية) 47

المنصورية (قرية) 47

المغرب : 5 ـ 6 ـ 11 ـ 12 ـ 13 ـ 14 ـ 15 ـ 16 ـ 17 ـ 18 ـ 20 ـ 21 ـ 22 ـ 23 ـ 24 ـ 25 ـ 29 ـ 31 ـ 32 ـ 33 ـ 34 ـ 35 ـ 36 ـ 38 ـ 41 ـ 42 ـ 45 ـ 47 ـ 49 ـ 56 ـ 57 ـ 62 ـ 65 ـ 66 ـ 68 ـ 69 ـ 70 ـ 71 ـ 73 ـ 76 ـ 82 ـ 88 ـ 91 ـ 93 ـ 94 ـ 97 ـ 99 ـ 101 ـ 106 ـ 107 ـ 108 ـ 112 ـ 113 ـ 114 ـ 115 ـ 116 ـ 117 ـ 119 ـ 120 ـ 121 ـ 122 ـ 123 ـ 124 ـ 127 ـ 128 ـ 129 ـ 131 ـ 133 ـ 134 ـ 135 ـ 137 ـ 138 ـ

و

ي

الاعلام

أ

ب

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

غ

ف

م

ن

هـ

و

ي

نشر وطبع
دار النشر المغربية
الدار البيضاء

No. 3.

The Earl of Cromer to the Marquess of Lansdowne.—(Received July 27.)

(Private.)

Dear Lord Lansdowne, *Cairo, July 17, 1903.*

I HOPE to see you very soon, but I know how difficult it is, amidst the press of work in London, to give much time to discussion. I think, therefore, I had perhaps better put the following remarks on paper.

I have read the despatch in which you state what passed at your recent interview with M. Delcassé. His language appears to me to be eminently satisfactory. For my own part, I may say that I did not anticipate that he would open out anything like so hopeful a prospect of settling our various outstanding differences with France. I most earnestly hope that advantage will be taken of the opportunity which is now apparently offered for settling these differences.

What it really amounts to is this: that everything depends on our attitude as regards Morocco. M. Delcassé, you say, "did not attempt to disguise from me the immense importance which the French Government attached to obtaining from us a recognition of the predominance which they desired to obtain in Morocco." I rather anticipated something of this sort, but I certainly did not expect M. Delcassé to go so far as to say that "he was entirely in favour of a comprehensive settlement, and that the Egyptian formed part of the larger African question, which could, he felt sure, be disposed of satisfactorily if only we could come to an agreement as to the position of France and Morocco." I cannot help thinking that, in making these remarks, M. Delcassé went rather further than he intended, and that it may subsequently be found that, under pressure exerted by the permanent officials at the Quai d'Orsay, and others, he will be reluctant to face the French Chamber with any Egyptian proposals which would be thoroughly satisfactory to us. However that may be, we are for the moment perfectly justified in taking him at his word.

It is to be observed that there are six outstanding questions, viz.:—(1) Newfoundland; (2) Morocco; (3) Siam; (4) the New Hebrides; (5) Sokoto; and (6) Egypt. These six questions may, it would appear, be grouped thus: in Morocco, Siam, and Sokoto, the French want various things which we have it in our power to give. In Newfoundland and Egypt the situation is reversed. In these latter cases we depend to a greater extent on the goodwill of France.

The New Hebrides question does not, so far as the information contained in this

نشر وطبع
دار النشر المغربية
الدار البيضاء

يباع في مكتبة «اديما» 27 زنقة حسن الصغير
الهاتف : 30.47.11/30.47.18 ـ الدار البيضاء

الثمن 30 درهما